

التربية الإسلامية للناشئة

المرحلة الثالثة

جمعه وحققه فضيلة المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني



المرحلة الثالثة

التربية الإسلامية للناشئة



منهاج

ا رحلة الثالثة

التربية الإسلامية للناشئة

عه وحقّقه ا ر الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

بإشراف فضيلة دث دمشق الأك

المرحوم الشيخ محمد الديراني

تطلب كتب العلامة مد أم شيخو من:

دار نور البشير

سوريا – دمشق – ص.ب: 11777

هاتف: 6329717 (0096311).

(0096311)
4541544 :Èõİz

www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com





المرحلة الثالثة

التربية الإسلامية للناشئة

ا درسة..............

الصف...............

جمعه وحققه فضيلة المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني
ابن محدث دمشق الأكبر المرحوم الشيخ محمد الديراني

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء...

من   اء الرسول العظيم ﷺ، الشفوق ا ليم الرحيم، الذي وهب روحه وحياته لأمته... صلى ا   عليه وعلى آله وأصحابه الطيب   الطاهرين.

ومن ورثته الأبرار...

نقدم هذا ا نهاج ا بارك ا ديد:

المرحلة الثالثة

(التربية الإسلامية للناشئة)

إ   طلابنا الأعزاء الصادق   للوصول والاقتفاء بأثر الرسول ﷺ الطا للنجاح وا نات العلى الراغب   با عرفة ا قيقية.

هدية مجانية قيِّمة

لا   وز بيع هذا الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المعلم الأول المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن سار بهداه ليوم الدين.

تمهيد:

أخي المعلم الفاضل...

إنّ هذا المنهاج المبارك مُعدّ لتدريس الطلاب وتعليمهم، وتثقيفهم ثقافة عالية مبنيَّة على أسس علميّة مستوحاة من كلام الله تعالى وبيان رسوله الكريم ﷺ، وبذلك العلم الرباني يتأهل الطالب لتهذيب نفسه وتوريدها موارد الكمال ويتحقق نجاحه بالدنيا والآخرة، وإن أهمية مادة التربية الإسلامية هذه التي بين أيدينا تنبع من كونها مستقاة من تأويل العلَّامة الإنساني الكبير محمد أمين شيخو قُدِّس سره لكتاب الله العظيم (القرآن الكريم) التي أفاض الله بنوره بها على قلبه لقربه العظيم من حضرة الله وحبّه الكبير لرسوله الكريم ﷺ ورحمته التي اكتسبها من الله تعالى على إخوته في الإنسانية، فكان السراج الذي يضيء للأجيال طريقها إلى السعادة بكتاب الله والنبراس الذي يهدي البشرية لإخراجها من الظلمات إلى النور.

وستجد أيها المعلم الفاضل بهذا المنهاج وبجميع المقررات الأخرى هذه النقاط الأساسية:

أولاً: تعريف الطلاب بكمال الله تعالى وبيان رحمته بعباده وعدله في خلْقه، وردّ كل ما علق بالأذهان وما دار على الألسنة مما يتنافى مع العدالة والرأفة

والرحمة وسائر الكمالات الإلهية والنبراس في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ثانياً: بيان كمال الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين شهد الله تعالى في كتابه الكريم بطهارة نفوسهم وعصمتهم وجعلهم مُثُلاً عليا للعالمين يقتدون بهم، ودحض كل افتراء أو تأويل يتنافى مع سموِّهم ورفيع مكانتهم متمسِّكين في ذلك بقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾[2].

ثالثاً: الدعوة إلى التمسُّك بأهداب الشرع الشريف وتقوى الله حق تقاته، مع تحذير الإنسان من أن يُتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأماني راجعين إلى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[3]. وقول رسول الله ﷺ:

«الكيِّسُ مَن دانَ نفسَهُ وعمل لما بعدَ الموْت، والعاجزُ من أتبعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني» [4]

رابعاً: إرشاد الطلاب إلى خطوات الإيمان الصحيح وفق ما بيَّنه رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام أخذاً عن كتاب الله تبارك وتعالى، إذ ما من امرئٍ خالطت بشاشة الإيمان قلبه إلا استقام على أمر الله وكان له رادعٌ من نفسه، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾[5].

خامساً: توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه وبيان شأنه العالي عند الله ثمَّ الإرشاد

(1) سورة الأعراف: الآية (180).

(2) سورة الأنعام: الآية (90).

(3) سورة النساء: الآية (123).

(4) أخرجه الترمذي.

(5) سورة التغابن: الآية (11).

إلى طريق محبته ﷺ، وبيان ما تثمره محبة تلك النفس الزكية الطاهرة من إقبال بصحبتها على الله واصطباغ النفس المؤمنة المستشفعة بها بكمالٍ من الله تأسياً بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

لذا على الإخوة المعلِّمين الأفاضل أنْ يدْرسُوا هذا المنهاج دراسةً وافيةً قبل تدريسه للطلاب، خاصةً وأنَّ هذا المنهاجَ مُعدّ بطريقةٍ سهلة جداً فهو يشرحُ الآيات الكريمة أولاً باللغةِ العربية، وذلك مما يساعدُ الطالب على فهم معنى الآية الكريمة، وكذلك فهمُ السورة كاملة.

وأيضاً فيه ذكرٌ لبعضِ قصصِ العلَّامة محمد أمين شيخو وذلك مما يُضفي جوّاً غنيّاً أثناءَ التعليم كما يُعلِّمُ الطالبَ التفكيرَ ويعلمه الشجاعة والإيثار، وأيضاً يَعلَم الطالبَ أن العلمَ الحقيقي لا يرزقُه تعالى لمن لا يُعمل تفكيره ولا يسعى في مساعدة الآخرين.

إنما يرزقُ اللهَ العلمَ ويفتح بالمعرفة على الإنسان المفكّر الباحث عن الحق والذي يَبذلُ مما آتاه الله ويساعد الآخرين.

وكلُّ إنسان يرزقه الله تعالى على قدْرِ سعيه وعمله واللهُ واسعٌ عطاؤه وهو ذو الفضل العظيم.

تقد ا ربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

(1) سورة الأعراف: الآية (157).

القرآن الكريم

مفرِّقاً بين الحق والباطل

بيَّن طريق السعادة والشقاءِ ليفرِّق الإنسان بين الخير والشر

القرآن الكريم فيه شيئان

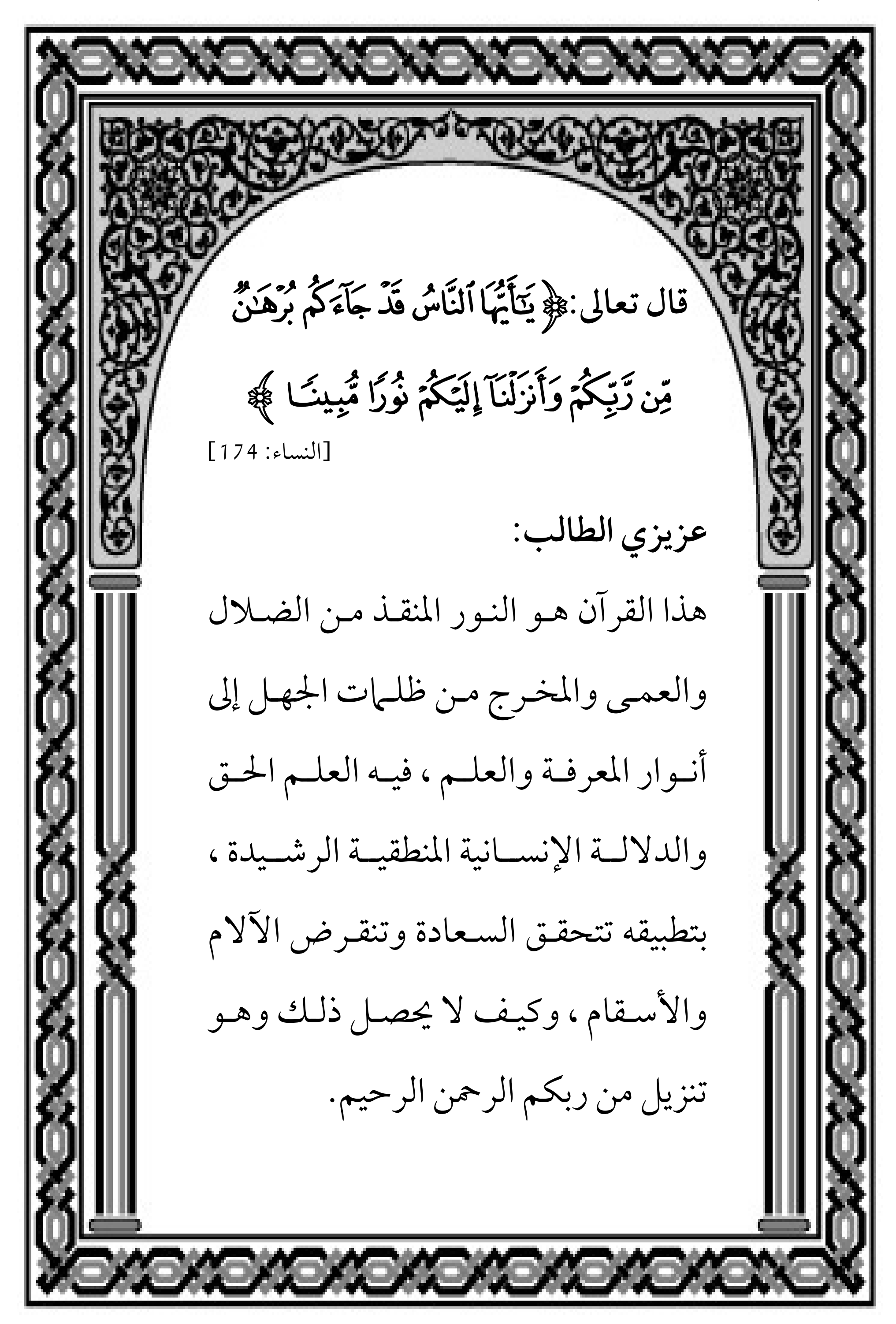
دلالة على لا إلَه إلَّا الله

وبيان طريق الحق من الباطل



قسم

الحفظ والتأويل



قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورًا مُّبِينًا﴾

[النساء: 174]

عزيزي الطالب:

هذا القرآن هو النور المنقذ من الضلال والعمى والمخرج من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة والعلم ، فيه العلم الحق والدلالة الإنسانية المنطقية الرشيدة ، بتطبيقه تتحقق السعادة وتنقرض الآلام والأسقام ، وكيف لا يحصل ذلك وهو تنزيل من ربكم الرحمن الرحيم.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

الدرس الأول

تأويل سورة الليل (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾

عزيزي الطالب: إن الله سبحانه وتعالى دائم التربية لك، ناظر إليك بعنايته ورعايته بلطفه وحنانه، لا يتوقف خيره وبره عنك أبداً.. وهذا ما أرادت هذه السورة أن تبيِّنه لك وأن ترشدك إلى طريق سعادتك، وإلى السير الذي يعود عليك بالحسنى في دنياك وآخرتك.

وقد بيَّن تعالى في مطلع السورة طائفة من الآيات الكونية تعريفاً لك بعظمة من يرشدك ويهديك وبياناً لفضله الواسع عليك.. ولذلك قال تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾

فالليل: هو هذه الظلمة التي تنبعث من جهة المشرق فتغشى وجه الأرض متزايدة شيئاً فشيئاً، إلى أن تلفّنا بردائها وتسترنا، وهنالك تجدنا ننقطع عن أعمالنا، ونخلد إلى الراحة، ونستسلم إلى النوم، لنستعيد به نشاطنا بعد أن كلَّت جوارحنا وسرى التعب إلى أجسامنا.

والنهار: وهو ذلك الضياء الذي يرافق ظهور الشمس، فيكشف لنا جميع ما

نشهده وما تفضَّل به علينا ربُّنا، فنذهب إلى أعمالنا وقد استعدنا نشاطنا، وزال عنَّا ما كنَّا نجده من تعب، فكأننا وُلدنا من جديد، وبدأنا مرحلة جديدة من مراحل حياتنا.

فمن الذي أوجد لنا هذا النظام، وجعل الليل سكناً، والنهار مُبصراً؟.

من الذي أوجد الأرض على هذا الحال من التكوُّر، وجعلها تدور حول نفسها، فكان من ذلك الليل والنهار، وبهذا نستطيع أن نستمر في سعينا وأعمالنا، ونتمتَّع بما أعطانا ربُّنا؟!.

على أن معنى هاتين الآيتين ليس قاصراً على ما قدَّمنا، بل هنالك معانٍ عدَّة لا يعلمها إلَّا الله تنطوي مكنونة من ورائها.

ففي ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: إذا هو غطَّى الأرض بظلامه: سكونٌ وهدوء، وذلك مما يساعدنا على الراحة والاستسلام للنوم، وفي الليل الرطوبة وبرودة الجو، وفي ذلك ما فيه من الفوائد للإنسان والحيوان ومعونة النبات على النماء، وفي الليل فوائد شتى مهما عدَّدت منها فأنت عاجز عن درك جميعها.

كما ينطوي تحت كلمة: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾: أي: إذا ظهر وبدا معانٍ شتى. ففي النهار يظهر لك ما خلقه لك ربك من موجودات، وفي النهار بما فيه أيضاً من حرارة وضياء ينمو النبات وتنبت الحبوب وتنعقد الأزهار وتنضج الفاكهة والثمرات، وفي النهار فوائد لا يحصيها غير خالقها وموجدها.

ففكِّر في ذلك أيها الإنسان تفكيراً دقيقاً، تُهْدَ إلى خالقك، وتتعرَّف إلى شيء من عنايته بك وفضله عليك.

وبعد أن ذكر لنا تعالى الليل والنهار وما يدل عليه خلقهما من نظامٍ وإحكام، أراد تعالى أن يرينا من آياته آية أخرى، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ فالحيوانات والحشرات والطيور والأسماك والنبات والإنسان: من كل نوع من هذه الأنواع خلق الله تعالى زوجين اثنين. وإنك إذا ذهبت تبحث وتوسَّعت في البحث وجدت هذا النظام يتعدى ما ذكرنا فيشمل ما يُسمُّونه بالجمادات وغير ذلك مما تشهده ويقع نظرك عليه، فمن كل شيء خلق الله تعالى زوجين اثنين وجعل بينهما تآلفاً وتجاذباً، وجعل لكل منهما ما يناسبه ويحتاج إليه لتنظيم الحياة، وليستمر الوجود والبقاء، ولتتم عليك النعمة والإحسان، فما أرحم الخالق العظيم بنا، وما أكبر ما تفضَّل به علينا جميعاً!.

وبعد أن بيَّنت لنا الآية السابقة ذلك النظام البديع، أرادت الآية التالية أن تعرِّفنا بأن لهذه المخلوقات وظائف وأعمالاً مختلفة، وأنه تعالى ما خلق مخلوقاً عبثاً، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

وشتى: بمعنى مختلف، متنوِّع، فلكل مخلوق سعيه ووظيفته، فالجمل يحمل، والخيل والبغال تجر، والبقر يحرث، والضأن يأتيك بالصوف واللبن، والدجاج ينتج البيض، والضبع ينظِّف الفلاة من الجيف ليحافظ الجو على صفائه ونقاوة هوائه، والكلب يحرس، والهر ينظِّف المنازل من الحشرات، والنحل يجني العسل ويُلقِّح الأزهار، ويطول بنا الشرح إذا أردنا أن نأتي على ذكر كل مخلوق أو حيوان. فما من مخلوق إلا وله وظيفته الخاصة به، وما من مخلوق إلاَّ وله الأعضاء المتناسبة مع وظيفته، والغرائز التي يهتدي بها إلى كيفية سيره في حياته.

وبتضافر وظائف هذه المخلوقات بعضها مع بعض ينتظم السير في هذا الكون، وتتأمَّن لك السعادة وتدوم الحياة.

فمن الذي خصَّص كل مخلوق بخصائصه، وجهَّزه بالأعضاء التي تساعده على وظيفته، وجعل الكون كله وحدة مترابطة الأجزاء وأبدعه على هذا الحال من الكمال!. أليس هو صاحب الرحمة والحنان!.أليس هو الله تعالى ذو الجلال والإكرام!. ألا يجب عليك أن تفكر بذلك أيها الإنسان فتتعرَّف إلى عظمته تعالى وتذكِّر نفسك بحنانه وإحسانه، وتعلم أنه لا يأمرك إلا بما فيه سعادتك وخيرك فتخضع لأمره ونهيه؟.

ولذلك ومن بعد هذه الآيات الأربع التي افتتح بها تعالى هذه السورة الكريمة أراد سبحانه أن يبيِّن لنا الطريق الذي نصل به إلى السعادة الحقَّة والحياة الطيبة فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ وإذن فربُّك العظيم وخالقك الكريم، ما تركك سدى وما خلقك عبثاً، بل بيَّن لك طريق سعادتك وذلك ما فيه خيرك، وقد بدأ تعالى بآية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾: ليبيِّن لك أن أول خطوة بعد هذا الإيمان الفكري الذي حصلت عليه بنظرك في هذا الكون إنما هو العمل الطيِّب والإحسان.

وأعطى: بمعنى: بذل، فالذي يبذل مما أعطاه ربُّه من مال إن كان غنياً ومن معونة للضعفاء إن كان قوياً، ومن جاه لذي حاجة إن كان وجيهاً، ومن علم ومعرفة إن كان عالماً، وإن شئت فقل: كل امرئ يعطي في حدود إمكانياته كلَّما سنحت له الفرصة وانفتحت في وجهه أبواب العمل إنما يصل به عطاؤه للتقوى:

والتقوى: إنما هي إقبال النفس على ربِّها وخالقها ورؤيتها بنوره تعالى حقيقة الأشياء، فبالعطاء تُقبل النفس على الله لتحصل لها التقوى، لأن من قوانينها أنها لا بدَّ لها من عمل صالح تعتمد عليه حتى تتولَّد فيها الطمأنينة والثقة بذاتها فإن هي غدت واثقةً من صلاح عملها مطمئنة بإحسانها أقبلت راغبة على ربها.. وهنالك يسري النور إليها فترى بنور ربها الخير خيراً فتقبل عليه راضية.. وكذلك ترى بنور ربها الشر شراً فتعافه وتتجنبه.

وإذن فأول ما نبدأ به بعد الإيمان الفكري: العمل الصالح، والعمل الصالح وسيلة التقوى، أي: إقبال النفس على خالقها. ولكن ماذا ينشأ عن التقوى؟.

لقد ذكر لنا تعالى ذلك بقوله:﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾

والحسنى: هي ما جاء به القرآن الكريم من الهدى. فالإقبال على الله يجعلك ذا بصيرة ترى بها ما تنطوي عليه أوامره تعالى من الخير لك والسعادة، فإذا أنت رأيت ذلك أيقنت بفضل ربك عليك وشكرته على إحسانه إليك، وشكرت رسول الله ﷺ على ما بذله في سبيل دلالتك وهدايتك، ولكن بماذا يقابلك ربك إن أعطيت واتَّقيت وسرت في طريق الإحسان والإنسانية، لقد بيَّن لك تعالى ذلك أنه سيجزي إحسانك بالإحسان فقال سبحانه: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾

واليسرى: هي الحياة الطيبة التي فيها اليسر والسرور، فلا يسوق لك تعالى إلَّا ما فيه سرورك وهناؤك.

ولا تقتصر تلك اليسرى على الحياة الدنيا، بل تمتد بك إلى الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

التدريب:

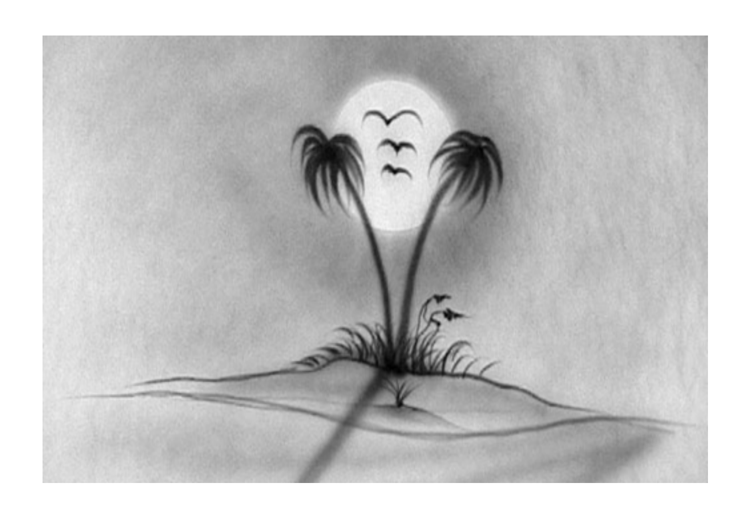
احفظ سورة الليل من أستاذك جيداً وثابر على قراءتها وتدبر معانيها السامية.

الأسئلة:

1- اذكر بعض الفوائد التي يجنيها الإنسان من الليل.

2- إلى ماذا تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ **وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ** ﴾؟.

3- ما هو معنى كلمة {**التقوى**}؟.



الدرس الثاني

تتمة تأويل سورة الليل (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

عزيزي الطالب: بعد أن بيَّن لنا تعالى في الآيات السابقة من سورة الليل طريق سعادتنا أراد أن يُحذِّرنا في الآيات التالية من الطريق التي إذا نحن سلكناها شقينا وكانت حياتنا ضنكاً وعسراً. ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾

وقد بدأ تعالى بآية: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾: ليعرِّفك بما يجرُّه لك البخل بالأعمال الصالحة من الشقاء، فكما أن العطاء والإحسان يصل بالنفس إلى التقوى، أي الإقبال على الله، فبعكسه البخل على النفس يكون بعدم بذل المعونة والتأخُّر عن الأخذ بيد الضعيف ومساعدة ذوي الحاجة فتجعل النفس كسيرة الجناح، مقعدة عن السير في طريق التقوى، ولذلك تجدها تستغني عن الإقبال على الله والرؤية بنور الله. وفي الحديث الشريف:

«**يكاد الفقر أن يكون كفراً**»[1].

وليس المراد بالفقر فقر المال وإنما المراد: الفقر من الأعمال الصالحة. ولكن ما

(1) رواه البيهقي وغيره مرفوعاً.

الذي يعقب هذا الاستغناء؟. وما الذي يتبع ذلك الإعراض؟.

يعقبه العمى والضلال، فلا تستطيع النفس والحالة هذه أن ترى الخير من الشر، ولا أن تشهد حقائق الأعمال، ولذلك تجد هذا المسكين يكذِّب بالحق، وما جرَّه لتكذيبه إلا ضلاله وعماه ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ **والحسنى**: هي الدلالة التي جاء بها القرآن الكريم، سُمِّيت بالحسنى لأنها تجعل حياة الإنسان حسنة طيبة.

وما التكذيب إلا الإنكار، فهذا الذي بخل على نفسه فلم تتفتَّح بصيرته لترى خيرها من شرِّها، تراه لا يشهد ما في القرآن الكريم من الخير ولا يعرف قدر هذه الدلالة وما فيها من الفضل الإلهي، ولذلك تجده يفضِّل سير أهل الكفر والضلالة، ويميل إلى أهل الفسوق والعصيان، فإذا سمع بالسفور «كشف وجه المرأة» ينسى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

كما ينسى سبب غزوة بني قينقاع، والتي كان سببها كشف وجه إمرأة مسلمة من قبل اليهود مما كان سبباً في طردهم جميعاً من المدينة المنورة.. ويستحسن هذا المعرض عن ربه كشف الحجاب مُدَّعياً أن الحجاب عادات تقليدية قديمة، وإذا ذكرت له الربا وحرَّمته قال لك: إن فيه بعثاً للحركة الاقتصادية، ولو أنه أعطى واتَّقى، أي: فعل الخير وأقبل على ربه لرأى أن كشف الحجاب هو السبب في تفكيك عرى الأسرة وانحلال روابط الزوجية، ولعلِمَ أنه مبعث التدهور

---

(1) سورة الأحزاب: الآية (59).

الأخلاقي وفساد التربية وغير ذلك من الأمراض والأوبئة الاجتماعية.
ولو أنه أعطى واتَّقى، أي: فعل الخير وأقبل على ربه لرأى أن الربا قليلاً كان أو كثيراً هو السبب في إفلاس أكثر التجار، وحدوث أهم الأزمات الاقتصادية، وركود الأسواق التجارية، فهو يزيد الفقير فقراً، ويجعله عالة على غيره، وكلما ازداد الفقراء بارت التجارة، وعمَّ الكساد، ولحق الأغنياء الفقراء، ويشمل الشقاء سائر الطبقات، وهكذا إنك لتجد المعرض مكذِّباً بالحسنى، فلا يتَّفق تفكيره مع الحق ولا يطابق سيره السير الإنساني، وليس يعرف من الحياة إلاَّ الوصول لرغباته الخاصة ولشهواته الدنيئة. ولكن ماذا يعود عليه من عمله؟. وهل يتركه ربه من غير مداواة، أم أنه تعالى رحيم بهذا الإنسان ولو ضلَّ طريقه وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه؟.
لقد بيَّن لنا تعالى أنه لا يترك ذلك الإنسان ولا يهمله، بل إنه سبحانه رحيم ومن رحمته أنه يضيّق عليه، فلعله بذلك التضييق يقبل على ربه ملتجئاً إليه، فيُشفى من مرضه. ويطهِّر قلبه مما فيه من الخبث والشهوات الدنيئة، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾
والعسرى: هي ضد اليسرى، وهي الحياة التي كلها عسر وضيق، فتجد من كان ذلك حاله تارةً مريضاً وتارة مكروباً مهموماً، وإنك لتجده ضائقاً صدره، ولو ملك الدنيا، وحُيِّزت له الأرض بحذافيرها، فهو أبداً في ضنك، وهو أبداً في همٍّ وغمٍّ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾[1].
ولكن إذا مات هذا الرجل ولم يتب فماذا يحل به؟.

(1) سورة طه: الآية (124).

إنه سينتقل من هموم الدنيا وغمومها ونغصها وكربها إلى عذاب الآخرة ولعذاب الآخرة أشدُّ وأخزى. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: وماذا يفيده ماله؟.ماذا يدفع عنه ماله إذا هو هلك ودفن في قبره؟. هل يلحق به ماله فيخلِّصه من الشقاء الذي حل به، أم أنه يتمنَّى أن لو تصدَّق في الدنيا ولم يسقط في هذه الهوَّة ولم يكن معذَّباً!.

وإذاً فمن يبخل فإنما يبخل على نفسه، والبخل بالعمل الصالح يجرُّ إلى الإعراض، والإعراض يجرُّ إلى العمى والتكذيب بالحق، وماذا بعد التكذيب بالحق إلاَّ الضلال!. ومن مات وهذا حاله فمصيره إلى النار وليس ينفعه البخل وجمع المال، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى طريق السعادة وطريق أهل النار والشقاء، أراد أن يبيِّن للإنسان أنه مطلق حرٌّ في إرادته، وأنه تعالى لم يقيِّد إرادة الإنسان بل إنه أعطاه الحرية وأطلق له الاختيار، فمن شاء سلك طريق الحق، ومن شاء سلك طريق الغيِّ والضلال، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

فالله تعالى يهديك لما فيه خيرك، ويدلُّك على ما فيه سعادتك، ويُحذِّرك مما فيه شقاوتك، وأنت من بعد ذلك حرٌّ فيما تطلب وتختار غير مُجبر على السير في طريق من الطرق أو عمل من الأعمال. ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ..﴾[1].

ثم بيَّن تعالى لك أنه بعد اختيارك وتصميمك فهنالك التسيير والإمداد، قال

(1) سورة البقرة: الآية (256).

تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾

فإن أنت اخترت الطريق الأولى طريق العطاء والتقوى، سيَّرك الله وأمدَّك، وعادت عليك نتائج سيرك. وإن أنت اخترت الطريق الثانية، طريق البخل والإعراض، منحك من الحَوْل والقوة ليخرج لك ما استقرَّ في نفسك من الشهوة الخبيثة والشر الكامن، ثم كانت عائدة ذلك الفعل عليك بالضنك والعسرى، وإذاً: فللعبد الحرية في الاختيار ومن الله التسيير والإمداد قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1].

والحمد لله على كل حال.



التدريب:

احفظ سورة الليل من أستاذك جيداً وتعاون مع أصدقائك على تسميعها غيباً وعلى تدبر ما ورد فيها من الحق.

الأسئلة:

1. اشرح الحديث الشريف: «**يكاد الفقر أن يكون كفراً**».
2. اذكر بعض النتائج السلبية على المجتمع التي يسببها التعامل بالربا.
3. إلى أين يسوق الله تعالى الإنسان الجاهل المعرض بعد أن اختار طريق البخل والإعراض عن ربه العظيم؟.

---

(1) سورة الإسراء: الآية (20).

الدرس الثالث

تتمة تأويل سورة الليل (3)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾

أعزائي الطلاب: يريد الله تعالى من شدة رحمته بنا أن يحذِّرنا من سلوك طريق الشقاء وينذرنا عاقبة الأشقياء، والخسارة الكبرى التي ألزموا أنفسهم بها.. فبيَّن لنا أن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى، وأن فيها ناراً تلظى قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وكلمة تَلَظَّىٰ: بمعنى، تتوقَّد وتتلهَّب..

وفي هذه الآية تتبدى لنا رحمته تعالى بنا وعطفه علينا، فهو ينذرنا من تلك النار، ويحذِّرنا من الوقوع فيها، رأفة بنا وحناناً منه علينا.. ثم إنه بيَّن تعالى عدله فقال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ وإذاً فليس الأمر كما يزعمه أُناس من أنه إذا شاء تعالى عذَّب المحسن ونعَّم المسيء، بل إنه سبحانه رب عادل، فليس يصلى هذه النار، أي ليس يذوق حرّها وألم حريقها إلاَّ الأشقى، وهو الذي أشقى نفسه، أي أتعبها فأسرف على نفسه في دنياه وبذلك حرمها من النعيم الذي أعدَّه الله له في آخرته، وعرَّضها للعذاب والمداواة، ولكن ما الذي جرَّ

له هذا الإسراف على نفسه وبالتالي هذه الشقاوة والبلاء، لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

وإذاً فالتكذيب بما جاء به الرسول من الحق والهدى، والتولِّي عن الإقبال على الله تعالى وإن شئت فقل: ترك الصلاة يسوق الإنسان إلى التفريط في أمره والإسراف في الشهوات على نفسه، فيغدو شقياً مُعذَّباً، ولا يظلم ربُّك أحداً. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾

وسيُجنَّبها: أي سيُحفظ منها ويُباعد عنها. **والأتقى**: هو التقي الذي أقام الصلاة فأقبل بها على ربه تعالى، واتَّقى بنور الله الوقوع في الشهوات المحرَّمة والأعمال الخبيثة، كما شاهد بذلك النور طريق الخير والسعادة، فجعل يفعل ما تتطهر به نفسه وتتزكى ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾

ويتزكى: بمعنى يتطهر. فبالإنفاق وفعل الخير كما قدَّمنا تصبح النفس ولها الثقة بذاتها والطمأنينة من إحسانها ما يجعلها تقبل على ربها راضية بعملها، وهنالك وبهذا الإقبال على الله، وإن شئت فقل: بهذه الصلاة يمسح النور الإلَهي صفحة النفس فتُشفى من عللها وأدرانها، وترجع صافية نقية طاهرة زكية، لابسة ثوب الكمال والفضيلة، مصطبغة بصبغة من الله ومن أحسن من الله صبغة، سعيدة منعمة.

ثم بيَّن تعالى أن الإخلاص في العمل وخلوَّه من الشوائب والعلل أصلٌ في هذه التزكية والطهارة، فقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾

أي: إن ذلك الأتقى لم يكن بإتيانه وإنفاقه ليرجو غايةً دنيوية، وليس لأحد

عنده سابقة فضل وإحسان فيكافئه عليها ويجزيه بها، لكن الكمال الذي اكتسبه من ربه بإقباله عليه، والصفة العالية التي تحلَّى بها يجعله مخلصاً في عمله، فليس يطلب غير وجه ربه الأعلى قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهو يبتغي، أي: يقصد ويتطلَّب بعمله وجه ربّه، أي نظر ربّه عليه، ذلك الربّ الأعلى الذي لا نهاية لعطائه ولا حد لواسع فضله. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ فإن فعلت الخير وسلكت هذا السبيل، فلسوف يعطيك ربك عطاءً عظيماً تسرُّ به وترضى، فالمدار كله على التقوى، أي: على دوام إقبال النفس على ربها وصلتها الدائمية به تعالى.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

❁ ❁ ❁

النشاط الذاتي:

علي أن أخصِّص لنفسي كلّ يوم ساعةً مسائيّة كما أوصى رسول الله ﷺ تبدأ قبل غروب الشمس.. أتأمل فيها كيف يتلاشى ضوء النهار ويأتي الليل شيئاً فشيئاً منبعثاً من جهة الشرق بهدوئه وحلول السكون والرطوبة وبرودة الجوّ، وهكذا حتى يغشى وجه الأرض، ملاحظاً كيف يحدث هذا الانتقال بلطفٍ بالغ، مما يدلُّ على أنّ هنالك يداً عظيمة مشرفة على سير هذا الكون البديع.

(1) سورة فصلت: الآية (46).

ثمّ أقوم لصلاة المغرب وأقرأ ما أتذكّره من هذه السورة الكريمة متدبِّراً معاني الآيات.

وكذلك ساعة صباحيَّة أخصِّصها لنفسي للتفكُّر من بعد صلاة الفجر إلى ما بعد شروق الشمس مفكِّراً كيف ينجلي الظلامُ بلطفٍ ليحلَّ محله النور والنهار وكيف تشرق هذه الشمس العظيمة شيئاً فشيئاً لتملأ السماء ضياءً ونوراً ببريقها الذهبي ما أعظم هذه اليد الرحيمة التي تدوِّر الأرض بلطفٍ لتشرق علينا الشمس وما أعظم هذه القدرة الإلهية التي تمسك الشمس وتدوِّر الأرض وتبعث النور علينا بكلّ لطفٍ ورحمةٍ وحنان ثم أصلّي بعدها صلاة الضحى.

مذكراً نفسي بقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[1].

۞ ۞ ۞

الأسئلة والتدريبات:

1- لكلِّ مخلوق في هذه الحياة وظيفةٌ يقوم بها على الوجه الأكمل، اذكر مخلوقاً من غير الذي ورد بالدروس السابقة وبين وظيفته.. وحكمة الله تعالى من خلقه.

2- الذي يبذل مما أعطاه ربُّه من مالٍ إن كان غنياً ومن معونةٍ للضعفاء إن كان قوياً، ومن جاهٍ لذوي الحاجة إن كان وجيهاً، ومن علمٍ ومعرفةٍ إن كان عالماً، إلى أين يصل به عطاؤه هذا؟.

(1) سورة الأعراف: الآية (205).

3- لماذا سمَّى الله تعالى الدّلالة التي جاء بها رسول الله ﷺ: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؟.

4- ورد بالدّرس عند تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ «أن الله تعالى يهديك لما فيه خيرك، ويدلُّك على ما فيه سعادتك، ويُحذِّرك مما فيه شقاوتك». فما الذي يترتَّبُ على الإنسان من بعد ذلك كلّه؟.

5- قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ ماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ ؟.





سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾

الدرس الرابع

تأويل سـورة الشمس (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾

أعزائـي الطـلاب: يُريـد الله تعـالى في هـذه السـورة أن يعظنـا ويحـذِّرنا مـن التكذيب بـالحق وأن يبيِّن لنا عاقبـة المكـذِّبين ومـا يحلُّ عليهم من العذاب الأليم.

وحيث إن النفس من قوانينها وسننها أنها لا تصغي إلى نصيحة الناصح إلا إذا عرفت محبته لها وعطفه عليها، كما أنها لا تخاف الإنذار ولا ترجع عن غيِّها إلا إذا أيقنت بقوة من ينذرها وقدرته عليها، ولذلك بـدأ تعـالى هـذه السـورة بآيات تعرِّف النفس عظمة خالقها من جهـة، ومـن جهـة ثانيـة تعرِّفهـا برأفتـه تعالى ورحمته بها وحنانه وفضله المتواصل عليها فقال تعالى:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾

الضحى: هو البيان والظهور، وكلمة: (**وَضُحَاهَا**) إنما تعني: ظهـور الشـمس وإطلالها علينا كل يوم بوجهها من بعد أن ودَّعتنا منصـرفة عنَّا في أمسها.

كما تعنـي أيضـاً مـا يظهـر عـن الشـمس مـن الخيرات، ومـا ينبعـث عنهـا مـن الفوائد مما أودعه الله فيها من الحرارة والضياء وغير ذلك من الخاصِّيات.

فالشمس وهي هـذه الكـرة الملتهبـة، لا بـل السـراج المنير التي أمـدَّت العـالم

بالحرارة والضياء منذ ألوف السنين والأجيال وهي ما تزال تمدُّه دون أن يعتريها ضعف أو نقصان.

الشمس وما في أشعتها من خاصِّيات يستعين بها الحيوان والإنسان والنبات على الحياة. الشمس في موضعها في الفضاء وبُعدها المناسب عن الأرض وعلاقتها البنَّاءة بها وتوليدها بذلك: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. الشمس التي لها فوائد لا تحصى ومنافع لا تستطيع إذا استقصيت في البحث أن تجد لها نهاية أو حدّاً، كل ذلك ينطوي تحت كلمة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ والله أعلم بما في الشمس من آيات، وأنه لولا الشمس لما نبَتَ نبتٌ ولا حُصد زرع، ولا نضجت ثمار، ولما عاش إنسان ولا حيوان. ولولا الشمس لما تبخَّر ماء البحر، ولما هبَّت الرياح، ولما تكوَّنت الغيوم، ونزلت الثلوج والأمطار.

ولولا الشمس لما تكوَّنت الفصول ولا تشكَّل الليل والنهار.

فانظر أيها الطالب إلى الشمس في خلقها وتكوينها فمن أين تستمد حرارتها وضياءها؟. ولو قربت الكرة الأرضية منها بما فيها من بحار وأنهار وسهول وجبال وأتربة ومعادن وأحجار لذابت في لحظة، لا بل لتبخَّرت جميعها ولأصبحت كالدخان، فمن أين تُوقد هذه الشمس؟. وما الذي يجري فيها.. فإذا هي تشع لك هذا الشعاع وتمدُّك بهذه الحرارة والضياء.

ثم انظر إلى تنظيم حرارتها واستمرار هذا التنظيم، فهي دوماً ثابتة الاشعاع ضمن نظامها الدوري السنوي الفصلي وحلولها في الأبراج فلا تعتريها زيادة ولا نقصان ضمن تنظيمها هذا، ولو أنها زادت حرارتها أو نقصت عن ذلك

لاختل نظام الأرض ولما أمكنت الحياة.

انظر أيها الطالب إلى هذا البعد المناسب الكائن بين الشمس والأرض، فلو أن الشمس كانت أقرب من الأرض ميلاً واحداً وذلك بخروجها عن مدارها لأحرقت بحرِّها ما في الأرض من حيوان وإنسان ونبات، ولو أنها كانت أبعد ميلاً أيضاً عن سماء أو سقف مدارها هذا أثناء دورتها السنوية على الأبراج وحول الأرض لكان وجه الأرض متجمِّداً لا تُمْكن عليه الحياة. فمن الذي وضعها في موضعها المناسب وجعلها على هذا الحال؟.

انظر إلى هذه الجاذبية وذلك الارتباط بين الشمس والأرض، ولولا ذلك لما كان هذا الدوران ولما أمكنت الحياة، ولما شاهدت هذه الفصول ولا الليل والنهار، ولما آتت الأرض أُكلَها من مختلف النبات والأثمار.

انظر إلى أشعة الشمس وحرارتها ونورها كيف تُنبت البقول، وتُنضج الحبوب وتُلوِّن الأثمار والأزهار، وتبعث فيها ما تبعثه من روائح وطعوم وخواص. ألا يليق بك أن تفكر بذلك كله ثم تسائل نفسك من الذي خلق هذه الشمس وأوجدها؟. من الذي قرنها بالأرض وربطهما معاً في سيرهما؟. من الذي يمد الشمس بتلك الحرارة والضياء دوماً؟.

من الذي جعلها على هذا البعد المناسب من الأرض؟.أليس ذلك المبدع بخبير حكيم؟. أليس ذلك الرب الممد الذي يمدُّها برب عظيم؟.

ألا تدل هذه الشمس على الله العليم القدير؟.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى الشمس، وفي الشمس مرتع خصيب للتفكير،

ومجال واسع للنظر والتأمُّل الدقيق، أراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى آية أخرى فقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾

وتلاها: بمعنى تبعها.

فالله تعالى يُريد بهذه الآية الكريمة أن يُلفت نظرنا إلى القمر إذا هو طلع علينا بوجهه وأشرق علينا بنوره.

فلنفكِّر في القمر...

لنفكر في هذه الكتلة العظيمة السابحة في الفضاء...

هذه الكتلة التي تفوق أكبر جبل في الأرض بأُلوف المرات. كيف هي تسبح، وما الذي يمسكها أن تسقط أو أن يصيبها في جريها خلل أو اضطراب؟!.

لنفكِّر في القمر هذا الكوكب المنير!.

ما الذي جعله مَبعثاً لهذا النور اللطيف ينير أرجاء الأرض في ظلام الليل فيطمئن قلب الخائف المرتاع ويبعث السلوة في قلب الحزين الملتاع ويؤنس المريض فيخفِّف عنه ما به من أوجاع؟.

من الذي ربطه بالأرض ليكون عاملاً من عوامل الحياة على الأرض بما له من تأثير على البحار والمحيطات وعلى حياة وجسم الإنسان والحيوان وحتى على أصغر المخلوقات من الحشرات؟.

من الذي جعل شعاعه في هذا اللطف من الإنارة فلا وهج ولا حرارة في وقت أشد ما يكون الإنسان فيه بحاجة إلى الراحة؟.

من الذي جعله يدور حول الأرض مرتبطاً بها لا يفارقها متنقلاً في منازله

واحداً فواحداً، آخذاً بالنماء لحظة فلحظة يوماً فيوماً، يولد أول ما يولد هلالاً ضئيلاً مقوَّساً فإذا انتصف الشهر وأصبح بدراً كاملاً عاد سيرته الأولى حتى ينمحق ويختفي فلا يعود يظهر ويُرى؟.

من الذي جعله يسير هذا السير المنظَّم، فلا يستقدم في سيره ولا يستأخر لحظة، ولا يخرج عن مداره المخصص به أنملة؟. فإذا ما أتمَّ دورته عاد وليداً وبدأ شهراً جديداً، فعرَّفنا عدد السنين والحساب، وجعلنا نفرِّق بين الأشهر والأيام، وكان في ذلك كله آية من أعجب الآيات!.

أليس في القمر ولن نحصي ما في القمر من آيات دالّة على خالقه العظيم الذي أوجده على هذا الحال من الإتقان والدقة والكمال؟.

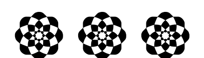
النشاط الذاتي:

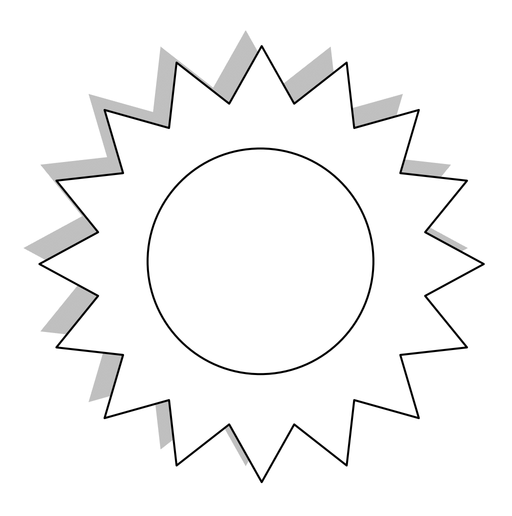
- احفظ سورة الشمس من أستاذك جيداً وتعاون أنت وأصدقاؤك وأهلك في البيت على حفظها وتسميعها غيباً.
- سورة الشمس سورة عظيمة يوصلك التفكر بها إلى ربك، فواصل التفكر بها.. فما ذكرها تعالى لك في القرآن الكريم إلا من أجل أن تفكر بها.. وكذلك القمر.. ذلك الكوكب المنير.. فلقد توصل سيدنا إبراهيم ﵇ إلى ربه وشهد أن **لا إلّه إلَّا الله** من خلال تفكره العميق بالكوكب والقمر والشمس.. وكذلك كل السادة الرسل والأنبياء عليهم السلام.. وأيضاً أصحابهم المؤمنون.. عن طريق هذا الكون توصلوا لمعرفة ربهم.. فلا تفرط

بالوقت الثمين فالعلم في الصغر كالنقش على الحجر يثبت ويدوم.

الأسئلة والتدريبات:

- اشـرح ووضِّح ماذا يحدث لو أن الشمس كانت أقرب مـن الأرض مـيلاً واحداً وذلك بخروجها عن مدارها الذي هي فيه الآن؟.
- اذكر بعض الفوائد التي يجنيها الإنسان من القمر.





الدرس الخامس

تتمة تأويل سورة الشمس (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ ﴾

طلابنا الأعزاء: رأينا بالدرس السابق كيف ذكر لنا ربنا الشمس والقمر لنعلم ما فيهما من آيات، وما ينبعث عنهما من خيرات، فنتوصل من خلالهما إلى معرفة الله تعالى، ثم لفت ربنا نظرنا إلى آيتي النهاروالليل..

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾

ونبدأ بآية: ﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** ﴾ فنقول:

ليس المراد بالنهار ذلك المعنى الضيِّق، وأعني به الوقت الذي به ينتشر ضوء الشمس.. لكن كلمة (**النَّهَارِ**) إنما تعني ذلك الخير الكثير المتوارد من كل شيء، ونفصِّل بعض التفصيل فنقول:

كلمة (**النهار**) إنما مأخوذة من كلمة:(**نَهَرَ**) ونَهَرَ بمعنى: سال بقوة واتِّساع، ومنه النهر: أي: الماء الكثير، والناقة النَّهيرة، أي: الغزيرة اللبن، وأنهَرَ الدمُ: إذا سال سيل النهر.

فإذا كانت كلمة: (**النهر**) إنما تعني الماء الكثير الجاري بقوة واتِّساع، فإن كلمة: (**النهار**) لا تعني شيئاً واحداً، إنما تشمل الأشياء الكثيرة المتوارد عليك

خيرها من الله تواردًا كثيراً متَّصلاً.

فالفواكه في تواردها صيفاً شتاءً، لا بل في الفصول كلها، والحبوب والخضر في جريها عليك من الله جرياً دائماً، والهواء في تجدده، والينابيع في إمدادها الأرض بالماء إمداداً مطرداً... الخ.

وبصورة عامة إذا أنت وسَّعت نظرك رأيت من كل شيء نهراً يفيض عليك بالخير من الله فيضاً عظيماً متواصلاً.. وعلى هذا فكلمة: **(النهار)** إنما تشمل ما تراه من كل شيء، في تواصل جريه، ودوام توارده وعدم انقطاع خيره.

فإذا أنت نظرت للأشياء نظرة شاملة من هذه الناحية أدركت طرفاً من معنى كلمة: **(النهار)** التي ليس يحصيها بيان على قرطاس ولا تعبير في كتاب وعرفت ما تعنيه تلك الكلمة مما ينهال عليك من الله من الخيرات.

فالله تعالى يريد أن ينبِّهك إلى ذلك الخير الكثير المتوارد عليك بصورة دائمية من كل صنف ونوع، لتعلم مصدر ذلك ولتتعرَّف إلى ربك، ولتقدِّر فضل خالقك.

وأما كلمة: ﴿**إِذَا جَلَّاهَا**﴾: فمأخوذة من جلَّى، وجلَّى: بمعنى كشف وأظهر وأخرج، ويعود الضمير **(ها)**.. في كلمة: **(جلاها)** إلى الخيرات التي شملتها كلمة: **(النهار)**.. في ظهورها وخروجها لك من عالم الغيب إلى عالم الظهور والرؤية، وفاعل جلاّها هو لفظ الجلالة **الله** تعالى.

وتدل كلمة: **(إذا)** على الكيفية التي يكون بها ظهور هذه الخيرات إلى الوجود.

فانظر إلى القمح كيف يخرجه لك ويجلّيه ربُّك، فهو ينبت ثم تخرج سنابلاً فتخرج شيئاً فشيئاً حتى يتم نماؤها ونضجها فتصبح لك طعاماً..

انظر إلى العنب كيف تخرج عناقيده من براعمها، فتنمو شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح طعمها سكَّرياً من بعد أن كان حامضاً.

وفي اللبن كيف يخرج من بين فرث ودم نقياً خالصاً.. وفي الأزهار كيف تنبعث روائحها العطرة وتتلوَّن بألوانها الزاهية، من بعد أن مرَّت في أدوارها ومراحلها، ومن بعد أن كانت لا لون لها ولا رائحة.

وهكذا كل ذلك توحيه لنا كلمة: ﴿**إِذَا جَلَّاهَا**﴾ ويكون مجمل ما نفهمه من الآية: أي: انظروا إلى هذه الخيرات المتواردة من كل شيء، وإلى تلك الكيفية التي يكون بها ظهورها إذا أخرجها الله تعالى لكم وجلاَّها.

وننتقل الآن إلى كلمة: (**وَاللَّيْلِ**).. فنقول: ليست كلمة: (**الليل**) قاصرة على ما يفهمه عامة الناس من أنه الوقت الذي تغيب فيه شمس النهار.. إنما تدلُّ على ذلك الحال الذي ينتاب الأرض من عدم رؤية الأشياء رؤية واضحة جليّة، وما يرافق ذلك من هدوء وسكون ورطوبة وبرودة في الجو وغير ذلك من العوامل العديدة.

ويغشاها: مأخوذة من غشى، بمعنى: غطَّى وأتى وحلّ. تقول: غشى الأمر فلاناً، أي: أتاه وحلَّ به، وغشيته بالسوط بمعنى: ضربته.

فالليل يغشى ما خلقه الله لك من الخيرات فيغطِّيها بظلمته، ويأتيها ببرودة جوِّه ورطوبته، ويكون سبباً في سريان ما ينطوي فيه من العوامل والمؤثرات

في أجسام الإنسان والحيوان والنبات، وإنه لولا الليل وما فيه لما نبت النبات، ولما نضجت الفواكه والثمرات، بل لاحترقت بحرارة الشمس ولما حصل النماء، فأنت ترى أن الثمرة المعرَّضة دوماً لأشعة الشمس والتي لم تُغطِّها الأوراق صغيرة الحجم متغيرة الطعم متأثرة من تواصل حرارة الشمس ولفح أشعتها.

وهكذا فالنباتات إذا لم يأتها الليل بما فيه من مؤثرات لما استطعت أن تتمتع بها وبما فيها من الخيرات. هذه ناحية من النواحي التي تجتذب نظرنا إلى الليل، وفي الليل ما فيه!.

أفلا تنظر إليه كيف هو سبب في انتظام الحياة!.أفلا تفكر في الليل فتستعظم ما فيه من الخير وتنتقل من ذلك إلى تعظيم خالقه وتقدير عنايته وعطفه عليك.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى النهار والليل انتقل بنا إلى السماء والأرض، وليلفت نظرنا إليهما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾

فالسماء هذه القبة الزرقاء المحيطة بالكون من جميع الجهات من الذي بناها هذا البناء؟.ما هذه القوة العظيمة التي نظَّمتها هذا التنظيم؟. ما هذه القدرة الحكيمة التي أوجدتها على هذا الحال التي هي عليه؟. ثُمَّ:

من الذي زيَّنها بالكواكب تلمع فيها ليلاً؟. من الذي قرن نجومها إلى بعضها وجعل منها بروجاً فإذا هي تسبح مترابطة لا تنفك عن بعضها بعضاً؟. من الذي جعل فيها سراجاً وهاجاً تضيء نهاراً، وقمراً منيراً يسطع ليلاً؟. من الذي يمسك

نجومها في هذا الفضاء الواسع، وكم من نجم أكبر من الأرض بملايين المرات!.

من الذي يسيِّر هذه الكواكب جميعها فلا يصدم كوكب كوكباً ولا يخرج نجم عن مجراه قيد أُنملة؟.

وهل يستطيع أحد أن يتصوَّر سعة هذه السماء؟. أم تراه عاجزاً عن أن يدرك لها نهاية أو حدّاً؟.

فانظر أيها الإنسان إلى السماء متأمِّلاً مفكِّراً لذلك قال تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾[1].

وهنالك تعلم أن للسماء خالقاً عظيماً، وإلّهاً قديراً، وربّاً ممداً بصيراً. وإذا كنت لا تستطيع أن تدرك سعة هذه السماء وهي من مخلوقاته تعالى، فكيف أنت إذا نظرت إلى عظمة ربك وجلاله الذي لا يتناهى!.

وما أعظم هذا الإلّه الذي خلق الأرض والسماوات العُلى!. ثم انظر ما حولك وما قوّتك!. وكم أنت مخلوق عاجز وضعيف، وكم هذا الإلّه الذي خلق السماء وما فيها وخلقك واسع عظيم!.

ثم انتقل تعالى بنا إلى الأرض فقال سبحانه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾.

وكلمة: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إنما تشير إلى الأرض في قيامها محمولة في هذا الفضاء، كما تشير إلى ما تحويه من جبال وبحار وسهول وأنهار ومعادن وأحجار وحيوان ونبات.

وأما كلمة: ﴿ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾.. فإنما تشير إلى حال الأرض، وما قامت به من

(1) سورة الملك: الآية (4).

تنظيم بديع، وما هي عليه من خَلْق عظيم، وما ألقاه لـك ربـك فيهـا مـن كـل شـيء.

تقول: طحا الحجر: ألقاه. وطحا الكرة: رماها.

طحا فلاناً على وجهه: طرحه في الأرض وألقاه.

ويكون ما نفهمه من كلمة: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: ما هذه القدرة العظيمـة التـي ألقـت في الأرض مـا ألقـت مـن جبـال!. مـا هـذه القـدرة العظيمـة التـي جعلـت في الأرض السهول والبحار!. من الذي أجرى في الأرض هـذه العيـون والأنهـار؟. مـن الـذي ألقى في البحر هذه الأملاح فـإذا هـي تحفـظ مياهـه مـن الفسـاد وتحـول دون انتشـار البعوض والحشرات؟..

من الذي جعل في بطن الأرض ما جعل من معـادن نسـتخدمها فيـما نقـوم بـه من الأعمال؟. من الذي جعـل لنـا في هـذه الأرض الأتربـة والأحجـار؟. مـن الذي جعل التراب حاوياً المواد الغذائية المختلفة التي تمتصُّها النباتات؟.

من الذي جعل مستودعات الماء في القطبين ثم في أعالي الجبال وجعـل لمنابعـه معايير مناسبة تستطيع معها أن تمدنا بالماء المخزون طوال السـنة دون أن ينفـد ماؤها أو يعتريها انقطاع[1]؟.

من الذي بثَّ في الأرض من كل دابة وجعلها كلها خدماً للإنسان فهي قائمـة بوظائفها التي يتأمَّن بها الخير ويطَّـرد معهـا النظـام وبقـاء الحيـاة؟. مـن الـذي جعل في الأرض أنواعاً مـن الـزروع وألوانـاً مـن الثمـرات، وجعلهـا متعـددة

(1) لطفاً انظر كتاب **مصادر مياه الينابيع في العالم** للعلاّمة محمد أمين شيخو.

المنافع، منوّعة الفواكه، ضرورية لحياة هذا الإنسان؟.

أفلا تنظر أيها الإنسان في الأرض وما قامت به من ترتيب وما هي عليه من نظام بديع وما ألقاه الله لك فيها من كل شيء فتعلم أن خالقك عظيم وربك رؤوف رحيم!.

النشاط الذاتي:

عَلَيَّ المثابرة على التأمّل والتفكير بآيات الله الكونية صباحاً قبل شروق الشمس ومساءً قبل الغروب مستعظماً خالقها مقدراً فضله لما ينتج من تبدل الليل والنهار من خيرات لاتعد ولا تحصى.

تهيئة نفسي وذلك بتدبّر وقراءة تأويل آية أو آيتين من القرآن الكريم لتصفو نفسي ولأتمكن من توجيهها إلى خالقها.



الأسئلة والتدريبات:

1- اذكر الحكمة المنطوية في أن يفتتح الله تعالى بعض السور بالآيات الكونية؟.

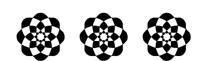
ما هو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾؟.

2- اكتب موضوعاً واذكر المراحل والأطوار التي يمر بها القمر في كل شهر من الأشهر، ولماذا نراه بهذه الأشكال المختلفة.. يكون هلالاً صغيراً ثم يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح بدراً كاملاً.. ومن ثم يصغر بعد ذلك شيئاً فشيئاً ليعود هلالاً صغيراً، كيف يمرّ القمر بتلك

المراحل التي نراه يحل فيها؟.ثم بين كيف تأتي ليلة على القمر ويختفي فيها، فلا يعود يراه أحد؟.

خذ وقتك.. وراقب القمر مراراً.. وحاول الإجابة على هذا السؤال وكتابته بمفردك دون مساعدة أحد ومن غير مراجعة أي بحث علمي.

فإن المعلومة التي يحصل عليها الإنسان بذاته من بعد تفكيره وبحثه المضني، تكون ذات قيمة كبيرة جداً في ذاته وأعظم من أن يقرأها أو يسمعها من أحد، فالقرآن الكريم يطالب الإنسان بالتحقق بنفسه من كل شيء.





الدرس السادس

تتمة تأويل سورة الشمس (3)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾

أعزائي الطلاب: بعد أن ذكَّرنا تعالى بالآيات الكونية في مطلع سورة الشمس الكريمة لنلتفت إليه تعالى ونعظمه ونقدره، انتقل بنا بالآيات إلى أنفسنا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

ولمعرفة النفس نقول: الإنسان مركب من عناصر ثلاثة:

نفس، وروح، وجسد.

فالنفس: هي الشيء النفيس في الإنسان..

يُقال:أَنْفَسَ الشيء، أي: كان نفيساً له شأن وقيمة تجعل الناس يتسابقون إليه.

ولذلك لا بدّ لنا من كلمة موجزة نتكلم فيها عن النفس فنقول:

النفس: هي ذات الإنسان الشاعرة.

ومركزها في الصدر وسارية أشعتها بواسطة الأعصاب في سائر أنحاء الجسم. وهذه النفس المسجونة في الجسم إنما تتعرَّف على ما يحيط بها من الأشياء بواسطة الحواس، فعن طريق العين تُبصر..

وعن طريق الأذن تسمع.. وبالأنف تشم.. وبواسطة الجلد تحس وتلمس، وباللسان تذوق طعوم الأشياء..كما تعبِّر به عما يجول فيها من الخواطر والأفكار وبشيء من التفصيل نقول:

إذا وقف أحدنا مثلاً على ساحل بحر فلا شك أن رؤيته للبحر تجعله يخشع أمام هذا المنظر ويستعظمه، وهذا الخشوع والاستعظام إنما هو خشوع النفس واستعظامها.

وإذا وقع نظرنا على شخص جرحت يده مثلاً جرحاً بليغاً وجعل الدم يتقاطر منها، فلا بدّ أننا نحزن لهذا المشهد ونتألم على صاحبه، فهذا الحزن والألم الذي نجده إنما هو حزن النفس وألمها.

وإذا كان أحد أقاربنا الذين نحبُّهم مسافراً سفراً بعيداً وسمعنا بعودته سالماً فهنالك نُسر ونفرح، وما ذاك إلا فرح النفس وسرورها.

وهكذا **فالنفس** هي العنصر الأساسي في الإنسان فهي التي تستعظم وتخشع.

وهي التي تحزن وتتكدَّر.. وهي التي تُسرُّ وتفرح.. وترضى وتغضب.. وتلتذ وتتألم وعليها المعوَّل.

و**النفس** هي المخاطبة دوماً في القرآن الكريم، وهي المكلَّفة بالسير في طريق الحق، وهي التي تتألم بالنار عندما تُعالج بها وتُداوى، وهي التي تتنعَّم في الجنان فلا تبغي عنها حولاً.

أما **الجسم**: هذا الجسم المركَّب من اللحم والعصب والعظام والدم فما هو إلاَّ

ثوب النفس ولباسها.

أما **الروح**: فهي مختلفة عن النفس.. **الروح**: هي الإمداد بالنور المنصب من الله تعالى بالحياة، ومركز الروح هو قلب الإنسان المادي الذي يضخ الدماء إلى كل أنحاء الجسم لتستمر به الحياة..

فالتجلي الإلٓهي المتوارد على قلب الإنسان المادي ليبقى هذا الإنسان على قيد الحياة هو ما نعنيه بالروح..

إذاً..الروح هي الإمداد بالتجلي الإلٓهي (الشعاع) المتوارد من الله تعالى على الجسم.. فالروح هي القوة المحركة التي تبعث الحياة في الجسم وتؤمِّن له القوة ليبقى على قيد الحياة..وحين يموت الإنسان تسحب الملائكة هذه الروح من الجسم فيتوقف القلب عن النبض وتتوقف أجهزة الجسم كلها عن العمل وعندها تغادر النفس جسدها عائدة إلى ربها لتحاسب على ما قدمت من أعمال في دنياها.

أما كلمة: ﴿**وَمَا سَوَّىٰهَا**﴾: فإنما تشير إلى ذلك الوضع الكامل الذي خُلقت عليه النفس. يُقال: سوَّى الشيء أي جعله سويّاً مستوي التركيب خالياً من كل عيب، ويُقال: رجلٌ سويٌّ، أي: كامل الخلق لا عيب فيه.

وأما كلمة: ﴿**وَمَا**﴾: فإنما تلفت نظرنا إلى تلك القدرة العظيمة واليد الحكيمة التي رتَّبت للنفس هذا الترتيب، وجعلت لها هذا الجسم على هذه الصورة الكاملة والتركيب البديع.

فالعين تُبصر، والأذن تسمع، واللسان يذوق ويتكلَّم، والأنف يشم، وهذه

الأجهزة إنما تستعين بها النفس على إدراك الأشياء، والمعدة تهضم الأطعمة، والكبد يفرز الصفراء ويخزِّن المواد الزلالية والسكَّر ثم يخرجها في أوقاتها بمعايير مناسبة، والكلية تصفّي الدم، والقلب يُنظِّم الدورة الدموية، والرئة تنظِّم التنفس، والكريات الحمراء في الدم كالعمَّال فهي تمتص من الجسم الغازات المضرة ثم تطرحها في الرئتين وتعود منها حاملة الأكسجين ذلك الغاز الضروري للاحتراق وبقاء الحياة، والكريات البيضاء في مراكزها كالجنْد المرابط في القلاع تصدُّ الجراثيم وما تفرزه من السموم القاتلة لها.. الخ.

وهكذا إذا ذهبت تفكِّر في الجسم وجدت تركيباً عظيماً وخلْقاً عجيباً وقد مررنا على ذلك مسرعين إذ إنّ شرْح ذلك يطول وكل عضو من هذه الأعضاء يحتاج في بيان أجزائه ووظائفه إلى صحف مطوّلة.

فمن الذي ربط هذه الأعضاء بعضها ببعض فإذا هي كلها ساهرة على قيام هذا الإنسان؟. من الذي جعلك أيها الإنسان على هذا الحال وصوَّرك هذه الصورة البالغة في الكمال؟.

من الذي جعل للنفس هذه الحواس تتعرَّف بها إلى ما يحيط بها من الأشياء؟. من الذي جهَّز النفس بتلك الملكات من تفكير وذاكرة وتخيُّل وإدراك؟. من الذي جعل لها ذلك العقل تعقل به الخير من الشر والنافع من الضار؟. من الذي جعل فيها تلك الغرائز والطباع من خوف وسرور وفرح وحزن ورضا وغضب وجعل لها الشعور باللذائذ والآلام؟.

من الذي أوجد النفس فأخرجها للوجود ولم تكن شيئاً مذكوراً، فإذا هي أكرم المخلوقات وأرفعها شأناً؟.

أليس يجدر بك أيها الإنسان أن تبحث عن ذلك كله، وتفكِّر في ذلك كله، ثم تتعرَّف على هذه اليد الحكيمة التي كوَّنتك والقدرة العظيمة التي خلقتك وأوجدتك؟.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى ما نراه في هذا الكون من الآيات، وبعد أن عرَّفنا تعالى بأنفسنا بيَّن لنا: أنه ما خلقنا عبثاً ولم يتركنا سدى بل بيَّن لنا طريق سعادتنا وفلاحنا وعرَّفنا بما فيه خيرنا وصلاح أمرنا فقال تعالى: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾

وألهم: مأخوذة من الإلهام، والإلهام هو أن يعرِّف الله النفس بالشيء. تقول: ألهمني الله الطريق، وألهمني الجواب.

والفجور: هو أن يقوم الإنسان بعمل يظهر منه الشر ويخرج الأذى والفساد تقول: فجر الماء، أي: ظهر وخرج من مستودعه.

والتقوى: هو أن يقوم الإنسان بعمل يقيه أذى شيء ويدفع ضرره عنه فإذا اشتدت علينا أشعة الشمس وحملنا بيدنا مظلة تقينا حرَّها فعملنا هذا تقوى.

وإذا أردنا النزول عن سطح البيت فنزلنا على السلّم فعملنا هذا تقوى..إذ إننا اتَّقينا الأذى الذي كان يصيبنا فيما لو ألقينا بأنفسنا مباشرة على الأرض.

وبناءً على ما قدَّمنا نقول:

إن الله تعالى لـمَّا خلق النفس البشرية خلق فيها الشهوة والذوق، وهذه

الشهوة هي من تمام نعمة الله على الإنسان وكمال فضله وإحسانه إليه، إذ إنه لولا الشهوة لما ذاق الإنسان لذة ولا عرف نعمة ولما وجد للحياة طعماً بل لكان أشبه بالجماد.

لكن هذه الشهوة إنما يكون الوصول إليها من طريقين:

طريق مؤذٍ مُضرٍّ يعود على صاحبه بالشقاء وعلى المجتمع الإنساني بالفساد وطريق مفيد نافع يعود على صاحبه بالسعادة والسرور وعلى المجتمع بالصلاح والخير.

وتقريباً لهذه الحقيقة من الأذهان نضرب على ذلك مثلاً فنقول:

هبْ أن أحدنا رأى شجرة صبَّار مثمرة فاشتهى ثمرة من ثمراتها، ومالت نفسه إليها، فهنا يصبح أمام أحد أمرين: إما أن يأتي إلى الثمرة من طريقها أي: يقطفها بعد أن يلبس القفاز الجلدي المخصص لذلك، ثم يغسلها ويقشرها ويجعلها في فمه وهنالك يهنأ بها ويتلذذ بطعمها ويكون وصوله إليها وتناوله لها خالياً من كل ألم وأذى.

وإما أن يمد يده كما يمدُّ طفل صغير لم يعقل بعدُ يده إليها من غير قفّاز، ثم يجعلها في فمه دون أن يقشِّرها وتكون لذته والحالة هذه مشوبة بالآلام كما يعقب تلك اللذة الآنية لذع الشوك المتواصل في أصابعه ويديه ولسانه وشفتيه، وينال حظَّه من الألم لقاء استعجاله وعدم اتقائه، لا بل جزاءً له على تفريطه وعدم سلوكه الطريق السوي إلى شهوته، وهكذا..

فالمال مثلاً: إما أن يتوصَّل الإنسان إليه عن طريق شريف كأن يحترف حرفة

عالية ويسير فيها بصدق وأمانة فتدر عليه بالمال، وإما أن يتوصل إليه من طرق ملتوية دنيئة فيختلس ويسرق أو يغش ويخدع ويعود ذلك عليه بالأذى وعلى المجتمع بالفساد.

وكذلك الأمر في الشهوة إلى النساء وحب الجاه والسلطان والتمتُّع بالطعام والشراب إلى غير ذلك من الشهوات. كل ذلك له طريقان: مفيدٌ نافع، وضارٌّ مُهلك.

على أن الله عندما خلق الأنفس لم يتركها وشأنها تضل طريقها ولا تهتدي إلى ما فيه خيرها وسعادتها بل طبَعَها بطابع الحق والفضيلة وفطرها على الفطرة الكاملة، وبذا أصبحت تُدرك الحق والفضيلة وتعرف الطريق السوي الذي تصل منه إلى شهوتها فتوقى كل أذى وشقاوة كما تدرك الطريق الملتوية التي تقودها إلى الفجور والرذيلة وذلك ما نستطيع أن نفهمه من آية: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾.

وبالحقيقة ما من إنسان إلاّ ولديه ذلك التمييز بين الحق والباطل والتفريق بين الفضيلة والرذيلة، وما من إنسان إلا وفي نفسه تلك المحكمة الداخلية المعنوية فهو يحكم على ما يصدر عنه وعلى ما يصدر عن غيره من الأعمال فيرى ما فيها من الخير أو الشر ويلحقها بزمرة الأعمال الفاضلة أو الرذيلة المنحطة.

وفي الحديث الشريف: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن**»[1].

(1) في الصحيح.

«والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطَّلِعَ عليه الناس»[1].

وإذاً فهذه الفطرة العالية التي فطر الله الناس عليها هي التي جعلت في الإنسان ذلك التمييز والإدراك فإذا هو يفرِّق بين الخير والشر، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة.

ويحكم لأول وهلة على سيره في أي عمل من الأعمال، فترى البائع الغاش مثلاً واجفاً قلبه في بيعه متخفِّياً عن الناس في غشّه خائفاً من اطِّلاعهم عليه.

وتجد الناصح الأمين مطمئن القلب لا يُبالي بشيء، وما ذاك إلاّ لعلم الأول بخروجه عن طريق الحق وإن شئت فقل بفجوره، وعلم الثاني بسمو سيره، وإن شئت فقل: بتقواه وتباعده عما فيه الأذى والإضرار بالناس.

وبعد أن عرض لنا تعالى في مطلع هذه السورة عدداً من الآيات الدالة على عظمته وجليل نعمته، وبعد أن بيَّن لنا أنه عرَّف النفس بما فيه خروجها عن الطريق السوي وبما فيه صلاح أمرها وتقواها، بعد ذلك كله ساق لنا تعالى الآية التالية ليعرِّفنا أن الظفر بالخير إنما يكون بتزكية النفس وتطهيرها فقال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾

والفلاح: هو أن يظفر الإنسان بالخير من بعد أن سعى له سعيه، وأن يصل إلى السعادة من بعد أن قدَّم لها الأعمال الطيِّبة. يُقال: أفلح القائد في ردِّ العدوِّ. وأفلح العمال في إزاحة الصخرة.. وأفلح المزارع في زراعته.

والتزكية: تطهير النفس من السوء، وتنقيتها من الشوائب. وتزكية النفس إنما

(1) في الصحيح.

تكون بالصلاة الصحيحة، أي: بصلة النفس بالله وإقبالها عليه.

فإذا أقبل الإنسان بنفسه على ربِّه فهنالك يسري النور الإلَهي إلى النفس ويتخلَّل هذا النور كل ذرَّة من ذراتها وبهذا النور ينمحي الخبث من القلب وتزول الشهوات الدنيئة وتتطهَّر النفس من الرذيلة فلا يبقى فيها شيء من المعاصي ولا يعود الإنسان يطلب إلاَّ الأشياء العالية، ولا يميل إلاَّ إلى الفضيلة.

فمن أقبل على الله بنفسه منذ حداثة سنِّه وُقيتْ نفسه وعُصمت فلم يتولَّد فيها خبث ولا شر ونشأ نشأة طاهرة لم يمازجها سوء ولا معصية، ومن حصلت له غفلة وميل عن ربه ثم عاد إلى التوبة والإقبال على الله عادت له طهارة نفسه ورجع إلى فطرته الطيبة، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾[1].

ومثل النفس والحالة هذه كمثل غرفة بَنَيْتَها وجعلت لها نوافذ وأبواباً تسمح بدخول النور، وتأذن بوصول أشعة الشمس، فإن أنت عرَّضت الغرفة لذلك النور ظلَّت طاهرة من العفونة نقية من الجراثيم، وإن أنت حرمتها من النور وأشعة الشمس تولَّدت فيها الجراثيم والعفونة، فإذا عدتَ لتعريضها للشمس أعدت لها طهارتها وتزكيتها، وهكذا فما دام الإنسان مقبلاً على ربِّه ظلَّ طاهراً نقياً، وكلما ازداد إقبالاً ازداد طهارة وزكاة.

وإذاً فما خلق الله إنساناً طاهراً وآخر شريراً، بل فطر الجميع فطرة واحدة

(1) سورة الأعراف: الآية (29).

طيبة، غير أن الإقبال والإدبار على الله ميَّز أناساً عن أناس. فمن كان أكثر إقبالاً كان أكثر طهارة، ومن كان أتقى كان أنقى، ومن زكّى نفسه فقد أفلح، أي فقد فاز بالسعادة وعادت أعماله جميعها عليه بالخير، فهو لا يقوم إلا بالأعمال الشريفة الفاضلة، وهو لا يعمل إلاَّ صالحاً ولا يرى في حياته إلا خيراً. ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾

والخيبة: هي عكس الفلاح وهي الخذلان وعدم الوصول إلى المطلوب.

ودسَّى: عكس زكّى. فالذي يُعرض عن الله يتولَّد الخبث في نفسه وتحدِّثه نفسه بالشرور والرذيلة، فإذا هو لم يُقبل على الله بل دسَّ نفسه، أي: غمسها في الرذيلة وأوقعها في الأفعال المنحطة فعاقبتُه الخيبة وعدم الظفر بالخير، فهو يحسب أنَّ في غشّه ربحاً، فإذا الغش ينفِّر الناس منه ويعود عليه بالخسارة، وهو يحسب أنَّ في الزنا سعادة، فإذا بالزنا يعود عليه بالأمراض الوبيلة والنتائج المخزية ويعقب له الفقر والفاقة، وهكذا تجد من يغمس نفسه في الرذيلة ولا يزكِّيها بالإقبال على الله، ينتقل من همّ إلى همّ ومن تعاسة إلى تعاسة، وليس له في الدنيا إلا الشقاء ولعذاب الآخرة أشق، والسعادة كل السعادة للمقبل على ربه والتعاسة والشقاء للمعرض.

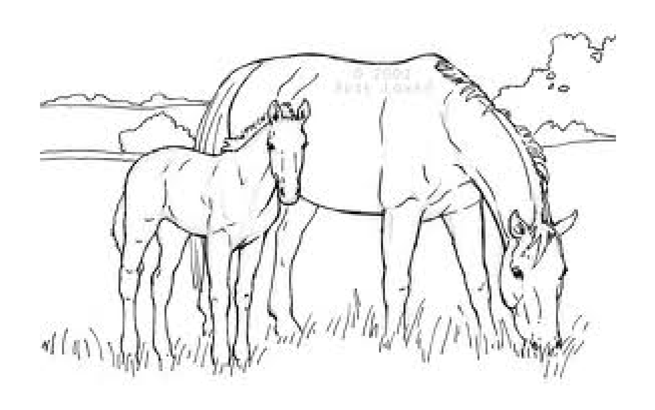
النشاط الذاتي:

احفظ سورة الشمس من أستاذك جيداً وتعاون أنت وأصدقاؤك وأهلك في البيت على حفظها وتسميعها غيباً.. ودراسة ما جاء في تأويل معانيها السامية.

الأسئلة والتدريبات:

1. قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ ما هو معنى كلمة: ﴿**وَمَا سَوَّاهَا**﴾؟. ولماذا أطلق تعالى على النفس تلك التسمية (**النفس**)؟.
2. اشرح وبيِّن الفرق بين النفس والروح.
3. اذكر بعض الأمثلة العملية التي تشرح بها معنى كلمة **التقوى**.
4. إن الله تعالى لـمَّا خلق النفس البشرية خلق فيها الشهوة والذوق، وهذه الشهوة هي من تمام نعمة الله على الإنسان وكمال فضله وإحسانه إليه، إذ إنه لولا الشهوة لما ذاق الإنسان لذةً ولا عرف نعمةً ولما وجد للحياة طعماً بل لكان أشبه بالجماد. فكيف هو السبيل كي لا تعصي النفس ربَّها بهذه الشهوة وما هو الطريق؟.





الدرس السابع

تتمة تأويل سورة الشمس (4)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

أعزائي الطلاب: بعد البيان العظيم الذي بيَّنه لنا تعالى في مطلع سورة الشمس أراد رحمة منه وحناناً علينا أن يحذرنا من تضيع عمرنا سدى، وأن يحذرنا من الطغي والفجور ومجاوزة الحد الإنساني، فوضع بين أيدينا مثالاً حقيقياً لقوم لم يفكروا بالكون ليتوصلوا من خلاله إلى معرفة الله تعالى، بل كان كل همهم ومبلغ علمهم الدنيا الدنيئة، فقال تعالى: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾**

والتكذيب: هو إنكار الشيء مع العلم به. **وثمود**: هم قوم سيدنا صالح عليه السلام، **والطغوى**: هي مجاوزة الحد، مأخوذة من طغى، أي: خرج عن حدِّه، تقول: طغى البحر على البر، وطغى السيل على المنازل، وتقول: طغى الرجل إذا جاوز الحد المشروع وخرج عن طريق الإنسانية.

(والباء) في كلمة: بطغواها إنما تبيِّن السبب في التكذيب. فثمود بسبب

طغواها: أي بفسقها وبانغماسها في شهواتها الخبيثة كذَّبت رسول الله ﷺ فردَّت قوله ولم تعبأ بإنذاره، ولم ترَ ما في أعمالها من الشر والهلاك. ومن هنا يتبيَّن أن الفاسق المنغمس في شهواته الخبيثة لا يستطيع أن يرى حقائق الأوامر الإلَهية وما ينطوي فيها من الخيرات، كما لا يستطيع أن يرى حقائق المنهيات وما فيها من الأذى والشرور، بل يظل محجوباً وراء الصورة، فهو يرى فسقه غير أنه لا يستطيع أن يرى الشر المستكنَّ فيه، ويرى استقامة المؤمنين ولكنه لا يشهد ما في أعمالهم من النفع، وإنه لا بدَّ له من الاستقامة على أمر الله حتى يشهد الحقائق.

ومن لم يستقم فمهما شهد من المعجزات ومهما رأى من الآيات فشأنه دوماً التكذيب، لأن الفسق حجاب بين النفس وبين الحقائق.

وقد ضرب لنا تعالى مثلاً من ثمود: فهؤلاء طلبوا من رسولهم الكريم أن يخرج لهم ناقة من الصخرة لتكون معجزة دالَّة على صدق رسالته فأخرج الله تعالى الناقة كما طلبوا، وجعل الماء قسمة بينهم وبينها.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1].

ومع أنهم رأوا هذه الآية الظاهرة كالشمس الساطعة لم يستعظموها ولم يعبؤوا بها، بل تقدَّم أخبث رجل منهم وأكثرهم شقاوة يريد الاعتداء على الناقة قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾

غير أنهم لم يروا ما ينشأ عن عملهم من الهلاك، وحذَّرهم الرسول الكريم

(1) سورة الشعراء: الآية (155).

فلم يصغوا إلى قوله، بل عقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربهم قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾

وهكذا نجد الفاسق المنغمس في شهواته المحرَّمة أجرأ الناس على حدود الله وأكثرهم استخفافاً بأوامره.

ولكن ماذا يعقب هذا الاستخفاف، وماذا يتبع ذلك الفسق والتجرُّؤ على حدود الله؟. لا شك أنه يتبعه الهلاك والدمار، قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: أذهب دمهم الذي به حياتهم، وكلمة: **(دَمْدَمَ)** مركبة من كلمتين: دمٌ: وهو السائل الذي تسري به الروح، ودَمَ: بمعنى ذهب وانقطع. فقد أرسل الله عليهم صيحة خرجت بها روحهم وجفَّ دمهم.

وكلمة: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يعود فيها الضمير وهو **(الهاء)** على قبيلة ثمود. فقد سوّى الله تلك القبيلة كلها بالأرض فأصبحوا أجساداً لا حِراكَ فيهم فهم والأرض سواء.

وبعد أن ساق لنا تعالى تلك القصة التي تبيِّن ما حلَّ بثمود وما كانت عليه عاقبة المكذِّبين، أراد تعالى أن ينذرنا بهذه الآية التالية فقال: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾

والعقبى: هي عاقبة الأعمال ونتيجتها.

ويكون ما نفهمه من آية ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾: أي ألا يخاف المجاوز طريق الحق والمنغمس في شهواته الخبيثة عقبى أعماله ونتيجة فسقه!. ألا يذكر ما حلَّ بثمود فيعلم أن الفسق والتجرُّؤ على حدود الله مقرون دوماً بالهلاك!.

الإستنتاج:

من فكَّر في الكون كما أرشدنا الله تعالى بمطلع هذه السورة، وتعرَّف إلى ربه بعد أن شاهد آياته، ثم زكّى نفسه وطهّرها بإقباله على الله تعالى فقد أفلح وفاز بالخيرات، ومن أعرض عن الله ودسَّ نفسه وغمسها في الفسق فنصيبه الشقاء ومآل ذلك عليه بالحسرات والخيبة.

❁ ❁ ❁

النشاط الذاتي:

1- عَلَيَّ محاسبة نفسي يومياً قبل النوم كما أوصى رسول الله ﷺ على ماقمت به من أعمال متلافياً ما بدر مني من تقصير.

2- الابتعاد عن مصاحبة رفاق السوء.

3- الامتناع عن ارتكاب المحرمات التي نهى الله تعالى عنها.

4- الاستقامة على أوامر الله وطاعته والمحافظة على صلواتي وأذكاري.

5- خدمة الخلق والإحسان إليهم قدر المستطاع.

الأسئلة والتدريبات:

1- ما هو سبب تكذيب (ثمود) قوم سيدنا صالح عليه السلام؟.

2- بماذا أهلك اللهُ تعالى قومَ ثمود؟.

3- من هو أجرأ الناس على حدود الله وأكثرهم استخفافاً بأوامره؟.

4- ماذا يريد الله تعالى أن يبيّن للإنسان بقوله الكريم بختام السورة: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾؟.

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾

الدرس الثامن

تأويل سورة البلد (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾

أعزائي الطلاب: في هذه السورة الكريمة يريد الله تعالى أن يبيِّن لنا أن الأعمال الصالحة هي طريق الوصول إلى الإيمان، وأن يعرِّفنا بأن الإيمان هو الوسيلة للتحلِّي بالأخلاق الفاضلة والصفات الإنسانية الكريمة، كما أن الكفر والإعراض سبب التدنّي والانحطاط، وطريق السقوط في مهاوي الشؤم والضلال، وقد بدأ تعالى السورة بطائفة من الآيات الدالة على عظمة الكون ودقة صنعه، لأن تعظيم الكون والتطلُّع إلى إحكام صنعه يسوقُنا إلى تعظيم خالق الكون وموجده، وهذا التعظيم للخالق تبارك وتعالى يحملنا إلى الإصغاء لكلامه والإذعان لهداه وعالي دلالته، ولذلك قال تعالى:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾

والبلد: هو المقر والمقام، وعلى هذا بلد كل إنسان مكان إقامته، وإذا نحن وسَّعنا النظر إلى أبعد من هذا ونظرنا نظرة تتناسب مع شمول كمال الله لما ينطوي عليه الكون من أشياء وما ضمَّه بين أرضه وسمائه من مخلوقات، وإذا نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة رأينا الكون كله بلداً واحداً ومقاماً لهذه المخلوقات، فلكل طائفة مقر ولكل فئة منها فيه مسكن.

فسطح الأرض اليابسة: مقام هذا الإنسان، وبطن الأرض مقام النمل والحشرات، والبحار مقام الأسماك، وهذا الفضاء الواسع الذي لا يتناهى موطن النجوم السابحات وهكذا فالكون كله بلد واحد. فإن نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة عظَّمنا خالقنا وأكبرْناه وعرفنا جلاله تعالى.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفنا بعظمته أكثر فقال سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾:

أي: إذا كنت أيها الإنسان قد شهدت ما شهدت من عظمة الكون فاعلم أن خالقك أعظم وأنه لا حدَّ ولا انتهاء لعظمته. فالله يقول لك: هذا الكون العظيم الذي تحار فيه العقول (**أنا لا أقسم به**) لأن القسم لا يكون إلاَّ بعظيم والكون كله في تدبير شؤونه وتأمين سيره لا بل في إبرازه لهذا الوجود وإحكام صنعه ذلك كله عندي هيِّن ويسير.

وبعد أن ذكر لنا تعالى الآية الأولى التي نتعرَّف منها إلى هذا الكون فنعرف قدر خالقنا، ذكر لنا أنه لم يحدِّثنا عن شيء لا نشهده ولا نراه، وإنما حدّثنا عما هو واقع تحت أعيننا ومشهود لكل إنسان فقال تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

والحلُّ: هو المقيم الساكن أي: وأنت أيها الإنسان مقيم وساكن بهذا البلد،

فأنت ترى ما فيه من آيات وتشهد ما يحيط بك من الكائنات، وتستطيع إذا أنت فكَّرت أن تتعرَّف إلى خالقك الذي أوجد هذا البلد، وجعله موطناً لهذه المخلوقات. ثم لفت تعالى نظرنا إلى ذلك النظام الذي بموجبه تتكاثر المخلوقات في هذا البلد فقال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

فالله تعالى لم يخرج الخلق إلى هذا العالم دفعة واحدة بل جعل خروجهم متتابعاً متتالياً، وجعل لذلك قوانين ونُظماً، وجعل ذلك على كيفية تبيِّن معها الحكمة والقدرة والرحمة الإلهية، ليكون لهذا الإنسان من ذلك كله عبرة وآية، فلعله إذا هو فكَّر في ذلك بعض التفكير اهتدى إلى خالقه وعرف موجده ومربِّيه.

وتشير آية: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ إلى ناحيتين اثنتين: فكلمة: ﴿وَوَالِدٍ﴾ تشير إلى الأبوين اللذين يتولَّد ويخرج منهما ولدهما، وكلمة: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ تشير إلى الولد كما تشير إلى النظام الذي بموجبه خرج من أبويه. وبالحقيقة ما من مخلوق حيّ إلا وله والدان ذكر وأنثى تولَّد منهما وخرج إلى هذا العالم بواسطتهما. فمن الذي خلق من كل شيء زوجين؟.من الذي جعل هذا ذكراً وهذه أنثى ثم جعل بينهما تعاطفاً وتآلفاً ومودّةً وتجاذباً؟. من الذي أوجد فيهما تلك الغرائز والخصائص وأودع فيهما ما أودع من رحمة وحنان وعواطف، فكان من أحدهما الوالدة وكان من الآخر الوالد؟.

ذلك بعض ما نستطيع أن نفهمه من كلمة: ﴿وَوَالِدٍ﴾.

فلننتقل إلى كلمة: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾: فنقول:

من الذي أودع الابن في صلب أبيه؟.أم من هذا الذي نقله إلى رحم أمه

وجعل يرعاه بعين عنايته ويربِّيه؟.

من الذي خلق النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، فكسا العظام لحماً، وجعل لهذا المخلوق الجديد معدة وأمعاء وكبداً وقلباً؟.

من الذي جعل له أعصاباً وعروقاً وأجهزة وأعضاء مناسبة؟. من الذي ركَّب الإنسان هذا التركيب البديع؟. أفنطفة من ماء مهين، أفجرثوم صغير يستطيع أن ينقلب بنفسه ويتطوّر فيصبح إنساناً سوياً دون أن يربّيه مربٌّ ويعنى به؟. أم هل خلقك أبوك؟.أم خلقتك أمك؟. أم أنّ خالقاً عظيماً خلقك وعُني بك حتى صرت بهذا الحال الذي أنت عليه؟. أفبعد أن بلَغتَ أشدَّك وصرت رجلاً نسيت خالقك وإحسانه إليك؟.

أفلا تفكِّر في أصلك ممَّ خُلقت، وقد أتى عليك حينٌ من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً؟.

أفلا تذكر ذلك اليوم الذي كنت فيه مخلوقاً ضعيفاً وجرثوماً ضئيلاً!.

أفلا تنظر إلى نفسك يوم كنت تسبح في النطفة مع ملايين الملايين من الجراثيم، ولا تستطيع العينُ أن تراك يومئذ لِدقَّتك!. أفلا تثوب إلى رشدك فتذكر تلك القدرة التي خلقتك، واليد الرحيمة الحكيمة التي عُنيت بك وربَّتك، فتعلم أن لك خالقاً عظيماً وإلهاً قديراً ومربّياً رحيماً.

وقد أراد تعالى أن يلفت نظر الإنسان إلى ذلك القرار المكين الذي رُبّي فيه يوم كان نطفة وليس له من عين ترعاه أو تُعنى به سوى عين خالقه وإمداد موجده، فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾

والكبد: هو المجْمع، والمراد به (**الرحم**) ذلك الوسط المناسب الجامع للشرائط الضرورية لحياة الجنين.

ففي الرحم يجد الجنين الحرارة المناسبة ويأتيه الغذاء اللازم، كما يأتيه الدم حاملاً الغازات الضرورية. وفي الرحم يعوم الطفل محمولاً على المشيمة محفوظاً من دخول الدم إلى فمه.

فمن الذي أوجد لك هذه الشرائط الضرورية للحياة، وجعل لك الرحم مستودعاً أميناً وقراراً مكيناً حتى أصبحت إنساناً سوياً كامل الخلقة؟.

أفتنسى إذا أنت بلغتَ أشُدَّك وصرت ذا قوة وشأن ذلك العطف كله وتلك العناية الإلَهية كلها، وتحسب أنه ليس في العالم أشد منك قوة؟. قال تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾:

وبالحقيقة لو أن الإنسان نظر إلى نشأته في رحم أمه، وفكَّر في أيام طفولته، ثم تابع النظر وساءل نفسه عن تلك العناية التي عُنيت به في ماضيه وما تزال تُعنى به في حاضره، لطأطأت نفسه خاشعة لربها خاضعة لخالقها ولعرف أنه ضعيف لولا ما يمدّه به ربه من قوة، فقير لولا ما يهبه تعالى من رزق ومتعة، ذليل لولا ما أعطاه ربه من مكانة فليس له سواه ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

غير أن عدم نظر الإنسان في نفسه وما خلق الله في هذا الكون من الآيات، واشتغاله دوماً بطعامه وشرابه، وانصرافه إلى دنياه وكسب معاشه جعله ينحط هذا الانحطاط ويتدنّى عن تلك المنزلة السامية فصار جحوداً كفوراً لا يقدِّر نعمة المنعم فهو يرى أنه بقوّته وتفكيره وبسعيه وجدِّه جمع من الدنيا ما

جمع ونال منها ما نال قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾

وأهلكت: بمعنى: صرفتُ، **ومالاً لبداً**: أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض وهذا حال أكثر الناس. فترى الرجل يقول: صرفت على هذا البناء كذا وكذا مالاً واشتريت هذا الثوب بكذا وكذا.. ولا يقول لولا أن ربي تفضَّل عليَّ لبتُّ جائعاً عرياناً، ولولا أنه وهبني ما وهبني من قدرة على الكسب لكنت محروماً أبيت في العراء لا أجد مسكناً ولا مأوى.

فما أبعدَ المعرض عن الله!. وما أشدَّ كفره بنعمة من يمدّه دوماً بنعمته ولا ينساه!.

وأراد تعالى أن يذكِّر الإنسان بعض التذكير بذلك فقال:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

أي: أيظن هذا الإنسان المترف أنه يعيش بذاته ويكسب ما يكسبه بقوته وسعيه وليس من أحد ينظر إليه بعين عنايته وليس من أحد يمدّه بالقوة والحياة.

ثم وجَّه تعالى نظر الإنسان إلى ما تفضّل به عليه من الأعضاء والحواس التي بها استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ويكسب ما كسب وينال ما نال فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

وبالحقيقة لو أن الإنسان كان أعمى لا يُبصر فكيف يسعى ويشتغل؟. ولو أنه كان محروماً من الشفتين واللسان فكيف ينطق ويتكلَّم؟. فبانضمام الشفتين تخرج الحروف المختلفة ويخرج الصوت بمعونة اللسان لهما فيتكلم

الإنسان بها يتكلم. ولولا هذه الأعضاء لكان الإنسان أشبه بالحيوان الأعجم يعوي عواءً، ويموء مواءً، لكن مرونة الشفتين في الإنسان وقدرتهما على الانقباض والانبساط، وحركات اللسان المختلفة إلى الأعلى والأسفل واليمين والشمال كل ذلك يساعد الإنسان على التكلُّم والتعبير عمَّا يجول في نفسه من الخواطر والأفكار كما يعينه على تناول الطعام ومضغه وابتلاعه والتمتُّع بهذه الصحة والنشاط.

ثم لفت تعالى نظرك إلى التغذية التي كان يغذيك بها أيام طفولتك يوم كنت ترضع الحليب السائغ من ثديَيْ أمك فقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

والنجد: هو المكان المرتفع الذي ينجد الإنسان فيعصمه من الغرق بالطوفان بعد هطول الأمطار الغزيرة وسيلان الوديان وهو المرتفع من الأرض، وتأتي في مساق الآية هنا المكان المرتفع من الصدر والذي ينجد الرضيع حين بكائه طلباً للغذاء فيعصمه من الجوع والحرمان، فالمراد به هنا ثدي الأم.

فالله تعالى من فضله عليك أن خلق لك الحليب في ثدي أمك، وجعل ينجدك به كلما احتجت إلى الطعام والشراب، ثم عرَّفك بالكيفية التي تتوصل بها لتناول هذا الغذاء.

وبعد أن قدّم تعالى لنا ما قدّم من الآيات التي تُعرِّفنا بأنفسنا وتُرينا فضل خالقنا علينا أراد تعالى أن يرشدنا إلى الطريق التي نصل منها إلى الإيمان فنكون ممن اتَّصف بالصفات التي تجعلنا حقاً من بني الإنسان فقال تعالى:

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

والعقبة: هي ممرٌّ وَعْر في الجبل يعترض الإنسان في طريقه فإذا اجتازه أعقبه اليسر والراحة. والمراد بكلمة: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ﴾ الحثّ والحض على الفعل.

والمراد بكلمة: ﴿ٱلۡعَقَبَةَ﴾: هنا العمل الصالح ففيه في بادئ الأمر صعوبة على النفس. فالنفس بطبيعتها تحب المال ولا تفرِّط في إنفاقه غير أنها إذا رأت أنه بإنفاقها مبلغاً من المال تربحُ من وراء ذلك ربحاً عظيماً فهنالك تستهين بما تبذله ولا تتأخر عن الإنفاق.

وكذلك النفس تحب الراحة ولا تميل إلى ما فيه صرف الجهد والمشقة، غير أنها إذا رأت أنَّ مشقَّتها وجهدها يعودان عليها بالراحة الدائمة فهنالك تُضحِّي براحتها العاجلة لقاء ما ستناله من الراحة الآجلة.

وهكذا جميع أعمال الخير تستصعبها النفس بادئ ذي بدء، غير أنها إذا قامت بها طاعة لله الذي لم يأمرها بما أمرها به إلاّ حُبّاً بها ونفعاً لها فهنالك يعود عليها عملها بالخير واليسر وتعقبه الراحة والسعادة الدائمة.

فالله تعالى الذي خلقك وأحلَّك في هذا البلد من بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، هذا الرب الرحيم الذي عُني بك وأنت جنين في بطن أمك ووالاك بإحسانه يوم كنت طفلاً صغيراً وما زال يمدّك بعنايته إلى أن صرت رجلاً... هذا الخالق الكريم الذي جعل لك عينين ولساناً وشفتين وهداك النجدين ينصحك ويحثك على فعل الخير ويدعوك إليه حبّاً بك وعطفاً عليك، فلعلك إن أطعته تكون من السعداء وتُحشر مع الصدّيقين والشهداء والصالحين، فإنه تعالى ربّ عادل لا يستوي عندهُ المحسن والمسيء، ولا يعطي أحداً إلاّ

بما استحق من عمل وبما قدَّم لنفسه من الخيرات، ذلك كله نستطيع أن نفهمه من آية: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفك بشأن هذه الكلمة فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾

ثم فصَّل لك تعالى المعنى بقوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾

والمراد **بالرقبة**: الإنسان لا بل كل مخلوق ذي روح.

والمراد **بالفك**: هو الإنقاذ وبذل المعونة.

ويكون ما نفهمه من آية ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾: هو أن يبذل الإنسان المعونة لكل مخلوق واقع في شدة، وأن يمدَّ يد المساعدة لكل من أحاطت به محنة أو وقع في مصيبة، فكأن الشدة حبل أحاط برقبة الواقع في المصيبة، فإذا أنت أنقذته فقد فككت رقبته من ذلك الحبل وخلَّصته من الغلِّ والقيد.

فإذا وجدت مهموماً وخلَّصته من همّه، وذا حاجة وسرت معه في حاجته، وأسيراً وأطلقته من ربقة أسره، ومديوناً وحططت عنه من دَيْنه، وغريقاً فأنقذته من غرقه، وعطشاناً فسقيته ودفعت عنه ألم عطشه، فتكون قد اقتحمت العقبة وفككت رقبة.

وهكذا كلمة: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ مجالها واسع تتناول كل عمل فيه إنقاذ ونجدة ومروءة، وتشمل كل مخلوق حيّ حتى ولو كان هرَّة أو نملة صغيرة، أو نبتة ذاوية.

غير أن أعلى عمل من هذه الأعمال هو أن تجد رجلاً ضالاًّ عن طريق الإيمان

واقعاً في الضلال الذي يجرّ إلى الشقاء والنار فتسعى جهدك وتبذل وسعك فتخلِّصه من الكفر، وتنقله إلى الإيمان بمعاملتك الحسنة وبدلالتك الرشيدة التي تبيِّن له فيها خيره من شره، فإن هو آمن واهتدى إلى طريق سعادته فقد فككت رقبته من حبائل الشيطان والشهوات الخبيثة، وجعلته ينطلق حُرّاً في طريق الإيمان، وتكون والحالة هذه قد فككت رقبته أيضاً، وخلَّصته من عذاب النار وجعلته ممن يرتع في مراتع الجنة والسعادة.

وذلك العمل إن وُفِّقت إليه فهنيئاً لك فهو من أعظم الأعمال عند الله، وذلك هو عمل الأنبياء والمرسلين والعلماء ورثة الأنبياء.



النشاط الذاتي:

احفظ سورة البلد من أستاذك جيداً وتعاون مع أصدقائك وأهلك بالبيت على حفظها وتسميعها غيباً ودراسة ما جاء في بيانها العظيم.

الأسئلة والتدريبات:

1- قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ما هو البلد، ولماذا لا يقسم الله تعالى به؟.

2- لماذا لم يخلق اللهُ تعالى الناسَ كلهم دفعة واحدة وما الحكمة أن جعل خروجهم على هذه الطريقة في التوالد؟.

3- إلى ماذا تُشير آية: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾؟.

4- ما الشيء الذي يشغل الإنسان المعرض ويبعده عن ربه ويجعله ينحط ذلك الانحطاط؟.

5- قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ما هما النجدان اللذان هدى الله تعالى الإنسان إليهما؟.





الدرس التاسع

تتمة تأويل سورة البلد (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾

طلابنا الأعزاء: بعد أن ذكر لنا الله تعالى أن على الإنسان أن يبذل المعونة لكل مخلوق واقع في شدة، وأن يمدَّ يد المساعدة لكل من أحاطت به محنة أو وقع في مصيبة، ودلنا على طريق هداية الناس وما فيها من الخير العميم، ذكر لنا تعالى عملاً آخر من الأعمال التي نقتحم بها العقبة وننتقل من بعدها إلى الخير والسعادة، وإن كان أدنى من الهداية منزلة. فقال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾

والمسغبة: هي المجاعة، و﴿يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذو مجاعة شديدة، وإطعام الطعام في أيام الحروب والمجاعات هو بعد فكِّ الرقبة من أفضل القُربات، إذْ به إحياء الناس وإنقاذهم من الهلاك..

قصة وعبرة...

ولتبيان هذه الأمر الإلهي الرحيم بإطعام الفقراء وعظيم ثوابه، إليكم هذه القصة الواقعية من أعمال العلَّامة محمد أمين شيخو قدَّس الله سرّه والذي كان طوره دائماً الجود والكرم ولو بأصعب الظروف والأوقات.

مأثرة خالدة

قال تعالى: ﴿..وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴾[1].

مالت الشمس كثيراً عن الزوال، واقترب الوقت من عصر اليوم ثم تعدَّاه..

حملت نسمات الهواء الخفيفة قليلاً من البرودة..

أثناءها كان العلَّامة الإنساني «الذي لا يتجاوز من العمر الستين عاماً» لا يزال جالساً في غرفته العلوية التي تتَّصل بممشى يؤدي إلى الباب الرئيسي لبيته العربي، أما زوجته الطاهرة فقد كانت تقوم بتنظيف هذا الممر..

بتلك الأثناء طرق الباب أحدهم..

نادت الزوجة: أبو فتحي.. إن الباب يُطرق..

قام العلَّامة الكبير واقفاً ومشى إلى باب غرفته المفتوح وتابع إلى الباب الرئيسي ففتحه..

كانت زوجته أم فتحي بالقرب من الباب إلى الخلف قليلاً، حيث غرفة الضيوف..

فتح السيد الرحيم الباب ونظر بالطارق فلم يعرفه..

إنه ولأول مرةٍ يراه..

عندها بادره الطارق متكلّماً بصعوبةٍ وتلعثم.. خَجِلاً لاستثقاله الأمر الذي جاء فيه..

لكن ضيق العيش والحاجة الماسّة ألجأته للسؤال..

---

(1) سورة الشعراء: الآية (155).

نظر به العلَّامة الحكيم فأراه الله حقيقة ما به من حاجة ومعاناة.. رأى بوجهه بؤساً وشقاءً ناشئاً من ضيق العيش وقلة الوارد، ﴿ ..تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ.. ﴾[1]: هؤلاء لهم الحق بالصدقة.

فما في قلب هذا العلَّامة من نور، وما هو عليه من قرب من الله تعالى جعله على رؤيا بصيرية قلبية يُعاين بها الحقيقة..

«اتَّقِ فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

سارع العلَّامة محمد أمين في إغاثة هذا الملهوف.. سارع في إعانة هذا الضعيف.. وهبَّ لنشله مما هو فيه من حاجةٍ وفاقة.. فمدَّ يده إلى جيبه، ولكن للأسف لم ينجده جيبه، إذ لم يتواجد فيه إلَّا القليل من القطع النقدية «فراطة» التي لا تُرضي ما في نفسه من خصالٍ حميدة وصفاتٍ إنسانيةٍ مجيدة لأن تكون لوحدها فقط نصيباً للمحروم.. فهو على يقين بأنها لوحدها لن ترفع عن المحروم حرمانه وتسدّ رمقه، ولن تمحو ما في حاله من بؤسٍ وفاقةٍ وشقاء.. والإنسان بين عسرٍ مادي ويسر ولو كان غنيّاً.

على كلِّ حالٍ أخلى جيبه من كلِّ ما كان فيه وناول ما حمله للسائل قائلاً بكلِّ رحمةٍ ولطف: خذ هذه النقود واذهب من فورك الآن لإحضار دابَّةً ريثما أُحضر لك كيساً من القمح تسدُّ به رمق عائلتك..

تناول السائل ما بيد هذا الإنسان الكريم من نقود.. وبدا بسماع كلماته اللطيفة كنبتةٍ كانت ذاويةً عطشى مشرفةً على الهلاك، والآن قد ارتوت ماءً

(1) سورة البقرة: الآية (273).

وانتعشت خضرتها بالحياة..

تناول النقود وانفتل بسرعة البرق بعد أن دبَّت به القوة والنشاط وملأ السرور قلبه.. غادر مسرعاً ليستأجر دابةً من السوق، تكاد أرجله تدق ظهره من شدة فرحه.. وأُبدل عجزه وضعفه قوة.

بقدر ما كانت كلمات العلَّامة محمد أمين برداً وسلاماً على قلب السائل المحروم، بقدر ما كانت تشكِّل صدمة قاسية على زوجته أم فتحي!.

وكانت قد سمعت هذا الحديث وهي على كثب من الباب تسقي أحواض الزروع ونباتات الزينة..

لم تكن تتوقَّع ما سمعت أبداً.. فبدون شعور منها وقفت مطرقةً مذهولةً تحبس أنفاسها للحظات متذكِّرة جهد ثلاثة أيامٍ مضت كدّاً وتعباً في تصويل(غسل) كيس القمح بالماء الذي يزن قرابة الـ (120كغ)..

ثم كيف فرشته بأرض الديار حتى جفَّ تمام الجفاف فعبأته بكلتا يديها بهذا الكيس الكبير، وقد أضحى جاهزاً ليُطحن.. والآن وبلحظة.. وبطرقة باب فقط يضيع ويذهب جهدها سُدىً!.

فلْيأخذ ما يريد ولْيعطِهِ ما يشاء ولكن كيس القمح هذا.. لا.. لقد صرفتُ عليه من روحي ودمي.. وَضَعْتُ فيه كل كدّي وجهدي.. جرى العرق مني مدراراً مدة أيامٍ ثلاثة..

لحظات وهي بهذا الموقف العسير، ثم صحت من ذكرياتها وتصوراتها لِمَا حدث سابقاً وسيحدث الآن.. وبتصميمٍ عظيم وإرادةٍ قوية انطلقت بأقصى

سرعتها إلى الطابق الأرضي حيث كيس القمح «في غرفة المؤونة»..

مضى القليل من الوقت لَمَّا حلَّ العلَّامة محمد أمين في غرفة المؤونة متجهاً لكيس القمح «المنظَّف المغسول»..

لـمَّا رأته متجهاً إلى الكيس وصَدَقَ ظنُّها أضحت أداةً بيد ثورتها الهائلة التي تفجَّرت آخر فتائلها في قلبها وظهر ذلك بردِّها العظيم على هذا الواقع الأليم المؤلم لها.. عندما وقفت أمام كيس القمح قبالة زوجها تُترجم إرادةً فولاذية جبَّارة وتصميماً عظيماً صامداً، ثم قالت وهي تكاد تنطق بكلِّ ذرة من ذرَّاتها فتتكلَّم رافضةً هذا الأمر: أبو فتحي كلُّ شيء إلاَّ كيس القمح هذا.. على روحي وكيس القمح لا.. «أي ولو كلَّفها حياتها لن تسمح لكيس القمح بمغادرة البيت».

لكن السيد الإنسان الرحيم الكريم.. لَمَّا رآها بهذا التصميم والممانعة لعمل الخير ثارت في نفسِه الإنسانيّةِ ما فيها من خيرات.

وانقضَّ كالأسد الهصور غير عابئٍ بما حوله أيّاً كان ولا بتأثير أيّة عواطف مهما بلغت...

انقضَّ مندفعاً بسرعةٍ قصوى وقوةٍ عظمى يُترجم عن صدق إرادةٍ لا تُقهر وتصميمٍ لا يُكسر..

اندفع للعمل الإنساني.. هذا الذي يُرضي اللهَ فيه ليُقيل عن ذاك البائس ما هو فيه من فاقةٍ وحرمان..

وما أن وصل إلى كيس القمح حتى انثنى عليه وضمّه إليه ولفَّه بكلتا ذراعيه

محيطاً به، ثم نهض واقفاً بقوةٍ لا تخور غير عابئٍ بكلِّ المؤثِّرات والعواطف كإعصارٍ قوي.. أو بحرٍ مائجٍ هائج.. كل حركة من حركاته تعبِّر عمَّا في نفسه من إنسانية وإيثار واندفاعٍ وحبٍّ للخير وللباهر من الأعمال..

نهض حاملاً حاضناً كيس القمح الكبير بين ذراعيه وصدره!. بهذه الطريقة يستحيل على أي مخلوق مهما كان قويّاً حمله، بل يُحملُ الكيسُ على الظهر.

كيس قمح يزن (120كغ) ويحمله بهذه الطريقة التي يستحيل على أقوى الأقوياء حمله بها، وهو الذي بلغ في عمره ما يقارب الستين عاماً!. لكنه بثورة رحمته العظمى حمله ونهض به وانطلق به صاعداً الدرج، غريبٌ ولكنّه واقعي.

هذا المشهد المجيد الخالد أذهل زوجته عن وجودها وجعلها تضيع جرَّاء ما شاهدته وتشاهده.. فلقد ضاع تصميمها كحفنة ماء وقد ابتلعها بحر تصميمه، فخار عزمها وأُخمدت قوّة إرادتها حتى أضحت كذرَّات صغيرة عصفت بها رياحُ إرادته القوية فنثرتها واختفت..

عندها أيقنت تماماً أن الأمر سيتم ولو كلَّفها دمها.. روحها.. حياتها.. إذ أنَّى لها أن تقف في وجه بحرٍ هائجٍ مائج ثائر.. فالسيد محمد أمين يحمل كيس القمح بوزن (120كغ) ويندفع فيه مسرعاً، فإن اعترضته ستصبح طريحة الأرض حتماً قتيلة.. ثقل مجموع وزنه ووزن كيس القمح معه..

عندها تراجعت ولاذت إلى جدار الغرفة مصعوقةً مذهولةً صامتة رغم إرادتها.

صعد العلَّامة محمد أمين أولى ثلاث درجات، ثم مشى قليلاً ليصعد عشر

درجات أخرى حتى أضحى بالطابق العلوي أمام باب الدار المفتوح.

خرج إلى الطريق.. وهنالك ألقى بكيس القمح أمام الباب بينما ظهر السائل قادماً ووراءه دابة «حمار» يجرُّها صاحبها..

وصل السائل فحمَّلا كيس القمح هو وصاحب الدابة حتى استوى على ظهرها، ثم انطلق المحروم بعد أن ودَّع أكرم إنسان صادفه بحياته..

عاد السيد الكريم إلى غرفته بغاية السرور بعد أن فجَّر هذا العمل البطولي تفجيراً ونفَّذ أمر الله تعالى غير عابئٍ برضاءٍ أو سخطٍ تجاه رضائه تعالى والإحسان..

عاد مستغرباً من نفسه كيف استطاع حمل كيس القمح بهذه الطريقة الغريبة المثيرة.. كيف صعد قرابة الثلاث عشرة درجةٍ وهو يحمله!.

إذ بعد مضي مدة من الزمن ولـمَّا جلب كيس قمح بعد أن توفَّر معه المال «كيساً منظَّفاً جاهزاً عوضاً عن السابق» حاول رفعه بنفس الطريقة.. حاول فقط أن يرفعه عن الأرض فلم يستطع تحريكه!.

فأيُّ محبةٍ للخير وإقدام لمرضاة الله تتصف بها نفسه الكريمة الشريفة!..

فقد نذر روحه وكل ما يملك في سبيل إرضاء الله تعالى، فكان الله يدبّر له أمر رزقه دائماً لأنه كان تقياً عظيماً.

قال تعالى: ﴿ ..لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1].

وقد عدَّد لنا تعالى من نطعمهم على وجه الترتيب فقال تعالى:

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾

(1) سورة طه: الآية (132).

وقد بدأ تعالى باليتيم لأنه ضعيف لا حول له، فلا أب يعطف عليه وهو أوْلى بالإحسان من الكبير. وأما تخصيصه بأن يكون ذا مقربة فذلك لأن الإنسان أعلم بحاجة أقاربه من غيره، وليس يعرف حاجة المحتاجين مثل أقاربهم المقرَّبين الأقربين.

على أن كلمة: ﴿يَتِيمًا﴾ الواردة في الآية لا يقتصر معناها على الطفل الصغير الذي مات أبوه، بل تشمل كما رأينا كل امرئ منقطع، وعلى هذا يكون الإطعام شاملاً كل منقطع لا ناصر له ولا معين.

وكلمة: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: لا يقتصر معناها على الأرحام، بل تشمل المؤمنين فهم كلهم ذوو قرابتك ومن أقرب الناس إليك، وبعد أن تبدأ بهؤلاء المذكورين تستطيع أن تنتقل بالإحسان إلى كل الناس والعطف على كل المحتاجين فقال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

والمسكين: هو المحتاج الذي لا حول له ولا قوة يستعين بها على دفع الفقر عنه والتخلُّص مما هو فيه، فهي تشمل المريض والفقير ذا العيال والعاجز والمسن الضعيف.

وتعني كلمة: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ كل من ليس لديه شيء من مال، تقول: أترب الرجل، أي: لصقت يده في التراب وأصبح لا شيء لديه. والآية هنا لا تُخصِّص العطف على المسكين بقريب أو بعيد، بل تشمل كل مسكين حتى

ولو كان ليس بمسلم، إذ: «**الخلقُ كلّهم عيالُ الله وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله**»[1].

الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء. ولكن ماذا يعقب فعل الخير؟. وماذا يكون عليه حال الإنسان بعد اقتحام العقبة؟.لقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله:

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾

فالإيمان على حسب ما تُشير إليه هذه الآية الكريمة هو ثمرة العمل الصالح. والوصول إلى الإيمان متوقِّف على الخيرات. وأنه لا بدّ لنا هنا من كلمةٍ نفصِّل فيها هذا المعنى فنقول:

إذا نظر الإنسان في هذا الكون نظرات المتأمِّل المستبصر قادَتْهُ نظراته وهداه تفكيره إلى شهود عظمة هذا الكون ورؤية ما فيه من إحكام الصنع ودقة التكوين، وهنالك تهديه فكرته وتصل به نظراته إلى أن لهذا الكون خالقاً عظيماً وربّاً حكيماً وإلهاً قديراً.

وهذا النوع من الإيمان الذي يتوصَّل إليه الإنسان عن طريق النظر والتأمُّل ويهتدي إليه بواسطة الفكر نستطيع أن نسمِّيه (**إيماناً فكرياً**).

غير أن هذا النوع من الإيمان لا يخلِّص صاحبه من النار ولا يصل به إلى الجنان ما لم يعقبه العمل الصالح من ترك المنكرات وفعل المأمورات والإحسان إلى الخلق جهد المستطاع، فإذا تلا ذلك الإيمان الفكري العمل

(1) رواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ انظر كنز العمال 6/ 2384/ الحديث رقم 16170.

الصالح الذي بيَّناه والذي يرضى به الله فهنالك تحصل للنفس الثقة بذاتها وتغدو مطمئنة من رضاء الله عنها، وبهذه الثقة والطمأنينة تقبل النفس على الله ويكون ذلك العمل الصالح جناحاً لها يصل بها إلى الدخول في حضرة الله تعالى.. فإذا هي أقبلت هذا الإقبال فهنالك ترى بذاتها حنان الله وعطفه وتشهد رحمته تعالى وإحسانه. وهذه الرؤية النفسية وذلك الشهود المعنوي الذي يحصل للنفس في هذه المرحلة يورث صاحبه الإيمان النفسي الذي تعنيه الآية الكريمة التي نحن بصددها آية: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النوع من الإيمان هو المطلوب والمعوّل عليه وهو وحده الإيمان الذي يخْلُص به صاحبه من النار ويكون سبباً في دخول الجنان.

وينتج هذا الإيمان لصاحبه حُبّاً وشغفاً بربه، وبحبه هذا ينطبع في النفس الكمالات الإلَهيّة وتصطبغ النفس بصبغة من الصفات العالية، فتشتق من الله الرحمة والحنان والعدل والإحسان، فلا يعود لسان الإنسان ينطق إلاّ بما فيه الخير والإصلاح ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ فهو يوصي الناس بالصبر، إذ يعرِّفهم بحنان الله وعطفه عليهم وإن ما يسوقه للإنسان من شدائد ومصائب إن هو إلاّ علاجات نفسية وأدوية معنوية تنتزع من النفس شوائبها وتخلِّصها من عللها وأمراضها، لتصبح خليقةً وأهلاً للتمتُّع بما أعدَّه لها ربها من الإكرام والإنعام. وتراه يوصيهم بالمرحمة فيبيِّن لهم أن الله تعالى إنما يحب الرحماء ويجزيهم إحساناً بإحسان.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أن اقتحام العقبة هو طريق الإيمان، ذلك الإيمان الذي يسمو بصاحبه ويجعله إنساناً كاملاً كريماً بالصفات، أراد تعالى أن يبيِّن لنا نتيجة هذا الإنسان الكريم وما يلقاه عند ربه من الجزاء على ما قدَّم من الأعمال فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾

والميمنة: مأخوذة من اليُمن: واليمن هو الخير والبركة والمراد بذلك الفضل الإلهي المتواصل الذي يجزيهم به ربهم على ما قدَّموه في دنياهم من الأعمال الصالحة.



التوجيه والتطبيق:

الكلمة الطيبة إن تكلّمت بها أعطاك الله عليها أجراً كبيراً.. فكيف ببذل الجهد وبذل المال لمساعدة الآخرين.. لا بد أن الأجر سيكون أعظم وأكبر من أن يتصوّره إنسان..

احرص أن يكون عملك خالصاً لوجه الله لأنّ هذا العمل هو العمل المقبول عند الله تعالى.

فما أكثر اليتامى والمساكين العاجزين والمسنّين الذين وضعهم الله تعالى أمانة في أعناقنا.

الأسئلة والتدريبات:

1- لماذا صمم العلَّامة محمد أمين على إعطاء كيس القمح الكبير للسائل الفقير بالرغم من معارضة زوجته؟.

2- قال تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ لماذا خصّص الله تعالى أن نبدأ بالإحسان لليتيم القريب، وهل تنحصر كلمة: (اليتيم) على الولد الصغير الذي فقد والديه فقط؟.

3- ما الذي يعقب أعمال الخير والإحسان التي يقوم بها الإنسان، وإلى أين توصله تلك الأعمال في النهاية؟.

4- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ما هو معنى كلمة: ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ الواردة في الآية الكريمة؟.





الدرس العاشر

تتمة تأويل سورة البلد (3)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

أعزائي الطلاب: أعمال الخير والصلاح التي ذكرها لنا تعالى بالآيات السابقة من سورة البلد هي التي تصل بالإنسان إلى السعادة والهناء، فالإنسان المؤمن بهذه الدنيا يتعب قليلاً ولكنه ينال عند الله تعالى خيراً عظيماً..أما الذين أرادوا الحياة الدنيا وحرموا أنفسهم من نعمة الإيمان وأعمال الخير فهم أهل الشؤم والبخل ولذلك قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾

والمشئمة: هي ضدّ الميمنة. فالذين أعرضوا عن ربهم فعموا ووقعوا في الشرور في الدنيا ستعود عليهم أعمالهم الخبيثة في آخرتهم وهنالك يتشاءمون منها لما تسبِّبه لهم من الشقاء وما تجرُّه عليهم من العذاب والتعاسة.

وعلى وجه المثال نقول:

التلميذ الذي يجدُّ ويكدُّ نراه يوم يرى النتيجة في فحصه متيمِّناً مسروراً إذ إن سعيه طوال السنة عاد عليه بالفوز والرفعة.

والكسول المتهاون نجده يوم إعلان النتائج متشائماً إذ إن تهاونه رجع عليه بالسقوط والخيبة.

فالأوَّل فرحٌ متيمِّن بما سينال، والثاني مُتكدِّر متشائم مما سيلقى.. وذلك ما

نستطيع أن نفهمه من الآية الأولى والثانية.

ثم بيَّن لنا تعالى ذلك العذاب الذي سيلقاه الذين كفروا في الآخرة فقال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾

والنار المؤصدة: هي النار المطبقة المحيطة بهم من كل جهة. نقول: أوصد الباب: أغلقه. فهؤلاء ستحيط بهم النار من كل الجهات وتوصد عليهم فلا يستطيعون منها خروجاً بل يظلُّون خالدين فيها أبداً. ولبيان سبب خلود الكافرين في النار وبشيء من التفصيل نقول:

الناس في هذه الدنيا أربعة أقسام:

1. فأناس: نظروا في آيات الكون منذ طفولتهم فاهتدوا إلى خالقهم وأقبلوا على ربهم منذ نشأتهم ولم ينقطعوا عنه طرفة عين طوال حياتهم، فهؤلاء بإقبالهم الدائم على خالقهم ظلَّت نفوسهم طاهرة لم يلوِّثوها بجرثوم الشهوات الخبيثة بل حُفظوا وعُصِموا، وتلك هي حال الأنبياء الذين نشؤوا على الإيمان وترعرعوا في الإقبال المتواصل ولم ينقطعوا لحظةً من اللحظات، فكان النور الإلَهي متوارداً على قلوبهم وسبباً في طهارة نفوسهم قبل بعثتهم وبعد رسالتهم.

وهذا هو المراد بالعصمة كما وصف تعالى أنبياءه المعصومين بآية:

﴿...بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2].

(1) سورة الأنبياء: الآية (26-27).

(2) سورة الفتح: الآية (1-2).

أي: بإقبالك العالي على ربِّك منذ نشأتك، تجلّى عليك ربك بنوره، فكان ذلك النور مبيِّناً حقائق الأشياء، وبذلك غفر لك الله أي: سترك بنوره فلم تقع في ذنب قبل البعثة ولا بعدها بل كنت بهذا طاهراً معصوماً.

ولهذا فالأنبياء والمرسلون لا تحتاج نفوسهم الطاهرة إلى مداواة، بل تجدهم محفوظين من العذاب في الدنيا والآخرة. وكل ما يعرض لهم من المصائب في الدنيا وكل ما يلقونه من أذى أقوامهم هو باللسان فقط ومعارضتهم بصد الناس عن الهدى إن هو إلا سبب لظهور شرف نفوسهم وكمال حنانهم ورحمتهم ورفيع صفاتهم وإنسانيتهم.

2. وأما القسم الثاني: فهم الذين آمنوا بربهم وكان لهم إقبال عليه تعالى وصلة، غير أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه أصحاب القسم الأول من دوام الإقبال والصلة، بل كان إقبالهم متقطِّعاً ساعة وساعة.

فهؤلاء ما داموا مُقبلين يبقون محفوظين من المعاصي والوقوع في الشهوات، فإن هم انقطعوا عثروا ووقعوا، وهنالك يجازيهم الله على أعمالهم، ويسوق لهم من المصائب والشدائد ما يتناسب مع عملهم، وما يكون سبباً في رجوعهم إلى خالقهم واتجاههم إليه وجهة صادقة، وبهذه الوجهة تطهر نفوسهم مما علق بها وتُشفى من عللها.

فإذا ماتوا ماتوا طيِّبين، ويكون ما أصابهم من الشدائد في الدنيا فضلاً من الله ورحمة، وتكون أمراضهم الجسمية سبباً في شفاء نفوسهم من عللها المعنوية وجراثيمهم المهلكة ليكونوا أهلاً لدخول الجنّة والتمتُّع بما أعدَّه لهم ربهم من

فضل ونعمة.

3. أما القسم الثالث: وهم الذين آمنوا وكانت لهم بربهم صلة وكانت لهم وجهة، غير أن صلتهم كانت ضعيفة، وكانت ساعات انقطاعهم أكثر من ساعات إقبالهم، وبذلك لم تنمحِ من نفوسهم جراثيم الشهوة، ولم تطهر نفوسهم الطهارة التامة، بل ماتوا ودَرنُ المعاصي عالق في نفوسهم، ولم يتوبوا إلى الله التوبة الصحيحة. فهؤلاء وهذا حالهم لا يمكن أن يدخلوا الجنّة ما لم يخلصوا من عللهم، وتطهر نفوسهم من شهواتهم الخبيثة، ولا بدّ لهم من النار، فهي خير علاج ودواء، فإذا أُلقوا فيها واشتدَّ عليهم حريقها فهنالك يستجيرون بخالقهم، ويكون لهم من إيمانهم وصِلَتهم السابقة التي اكتسبوها في دنياهم طريقٌ للإقبال على الله تعالى. وبهذا الإقبال تُشفى نفوسهم وتزكوا، ويخلصون من خبثهم الذي كان سبباً في عذابهم وحريقهم، وعندها يساقون إلى الجنة، وفي الحديث الشريف:

«يخرجُ منَ النارِ منْ كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان»[1].

4. أما أصحاب القسم الرابع: فهم الكافرون، الذين أعرضوا عن ربهم في دنياهم إعراضاً كلِّياً، فهؤلاء إذا ماتوا ولم تحصل لهم صلة بربهم طوال حياتهم يخرجون من قبورهم وقد اشتدت عليهم آلامهم النفسية ويصيحون مستجيرين بربِّهم، وهناك يساقون إلى النار فيصطلون بحريقها ويسلون ما يجدونه من الآلام النفسية التي لا تطاق، ويغيبون بعذاب الحريق عن ألمهم

(1) مسند الإمام أحمد ج3 ص116.

النفسي الشديد.

وحيث إن هؤلاء لم تكن لهم سابقة إيمان في دنياهم تجدهم لا يعرفون طريق الإقبال على الله تعالى، ولذلك فهذه الاستجارة المجرّدة من الإقبال لا تستطيع أن تشفي نفوسهم ممَّا بها، ولذلك يظلُّون خالدين في النار أبداً.

وهنا لا بدّ لنا من بيان معنى الإقبال الذي يكون به شفاء النفس مما فيها من علل وأمراض فنقول:

يتطلّب الإقبال على الله علماً برحمة الله، أي: شهوداً لتلك الرحمة الإلّهية والعطف والحنان، أو ذَوْقاً نفسياً.

فالمؤمن الذي صار له في دنياه علمٌ، أي: شهود لتلك الرحمة الإلّهية أو ذوق نفسي تراه لا يحجبه في الآخرة خجل من ذنب أو معصية، بل تتعاظم تلك الرحمة الإلّهية يومئذ لديه ويزداد بها شهوداً، فيرى كل ذنب مهما عظم حقيراً صغيراً أمامها. وبهذه الرؤية لتلك الرحمة التي لا تتناهى تغلب على العبد الثقة بعطف الله وحنانه، ويحصل له الإقبال على الله. وهنالك وبهذا الإقبال على الله تطهر النفس وتخلص ممَّا بها.

أما الكافر فلم يحصل له في دنياه ذوق نفسي ولا علم «أي شهود» لرحمة ربه، وكل ما يحصل له في الآخرة إن هو إلاَّ مجرَّد عُرْفٍ، إذ تعرِّفه وقائع الأحوال والسّوْق إلى المداواة في النار برحمة ربه.

لكن ذلك العرف الذي لم يشهد الإنسان معه الرحمة الإلّهية شهوداً نفسياً ولم يذقها ذوقاً، ذلك العرف المجرَّد عن الشهود والذوق لا يستطيع أن يحول بين

خجل النفس من ذنوبها وبين إقبالها على ربها. وحيث إنه ليس لهذا الكافر في دنياه سابقة عمل صالح يستند إليه فيكون سبباً في إقبال نفسه يومئذ على خالقها تجده محبوساً في خجله مشغولاً بألمه، ولهذا لا يستطيع الإقبال على ربه ذلك الإقبال الذي يشفي نفسه ممَّا بها من أمراض بل يبقى خالداً في ذلك العذاب أبداً.

وإذاً فالوجهة الصادقة إلى الله تعالى وإن شئت فقل الصلاة الطيبة التي يُصلِّيها المؤمن في دنياه، تُورث النفس ذوقاً أو علماً، أي شهوداً لرحمة الله وأسمائه الحسنى وبذلك تكون سبباً في شفاء النفس من عللها.

وكلما كان الإنسان أحسن صلاة وأتقى كان أكثر طهارة وأنقى، ومن استطاع أن يحصل له ذلك العلم أو الذوق لرحمة ربه وكماله في دنياه فقد أفلح وفاز، ومن أخذ بيدك إلى الله تعالى وعرَّفك بهذا فأنت مدين له مدى الحياة ولست تستطيع أن تجزيه على إحسانه بإحسان، ولكن سل الله أن يجزيه عنك خيراً فهو خير من يجزي وخير من يكافئ على الإحسان بإحسان.



النشاط الذاتي:

- احفظ سورة البلد من أستاذك جيداً وثابر على قراءتها في صلاتك، واطلب من الله تعالى دائماً أن يرزقك أعمال الخير والصلاح، وأن يصرف عنك عذاب النار.

الأسئلة والتدريبات:

1. لماذا السادة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام محفوظون من العذاب في الدنيا والآخرة؟.
2. اكتب موضوعاً إنشائياً تذكر فيه سبب دخول العصاة النار يوم القيامة.





سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ

ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى
﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ
﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً
﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

صدق الله العظيم

الدرس الحادي عشر

تأويل سورة الفجر (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥)﴾

أعزائي الطلاب: في هذه السورة الكريمة يُريد الله تعالى أن ينبِّه الإنسان إلى عواقب سيره ونتائج أعماله، وأن يبيِّن له أنه إن لم يثب إلى رشده ولم ينته عن غيِّه فنصيبه الهلاك والشقاء، كما حلَّ بمن ضرب الله تعالى بهم الأمثال. وإن هو استفاق من غفلته وتلافى أمره قبل موته عاش في راحة واطمئنان، ورجعت نفسه عند فراقها هذه الحياة إلى ربها فرحة مغتبطة بما قدَّمت من أعمال.

وحيث إن الاعتبار بما حلَّ بمن هلك من الأقوام لا يكون إلا بعد الإيمان، وبما أن الإيمان بيوم الحساب مرتبط ومتوقِّف على الإيمان بالله تعالى، لذلك بدأ تعالى هذه السورة بآيات تُعرِّف الإنسان بخالقه وموجده موجد هذا الكون كله ومسيِّره، فلعلّه إذا فكَّر فيما يراه من الآيات الكونية توصَّل منها إلى الإيمان بربِّه، وهنالك يستقيم على أمره وينتهي عن طغيانه وضلاله، ويخلع هذا الثوب الحيواني الذي تلبَّس به، فينقلب إنساناً إنسانياً في صفاته وأعماله، وبذلك يجرُّ الخير لنفسه ويدفع الخسارة التي كانت لاحقة به،

ولذلك وحُبّاً بك أيها الإنسان خاطبك ربّك بقوله:

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

ونبدأ بالآية الأولى فنقول:

الْفَجْر: هو الظهور بصورة متلاحقة تدريجية، وهو أيضاً كل شيء يظهر من الخفاء إلى العيان متلاحقاً متتالياً، وعلى هذا فليست كلمة (**الْفَجْرِ**) قاصرة على الضياء الذي يظهر آخر الليل، بل تشمل كل ما يظهره الله تعالى لك ومن أجل حياتك من ظلمة الغيب والخفاء إلى حيِّز الوجود والعيان.

فالبراعم التي تظهر على الأشجار والأزهار والأثمار والنبات المنبعث عن الحبِّ المدفون تحت طيّات التراب، وكل ما يظهر منه من أوراق وسنابل وخيرات وإن شئت فقل:

كل ما فيه حياتك ودوام بقائك مما يظهر بصورة تدريجيّة شيئاً فشيئاً وآناً بعد آن متنقّلاً من عالم الغيب إلى عالم الشهود والعيَان ينطوي تحت كلمة (**الْفَجْرِ**).

أما (**الواو**) التي تجدها في كلمة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ فإنما تلفت نظرك إلى عظمة هذا الشيء، إلى دقَّة تكوينه، إلى حسن تنظيمه، إلى حكمة خالقه، إلى كل ما يتبدَّى فيه من الآيات الدالة على خالقه وموجده، فهذه الآية تقول:

انظر أيها الإنسان إلى كل ما يظهر ويخرج بصورة متتالية من المواد والأثمار التي بها حياتك وبقاؤك، ثم فكِّر ودقِّق وتعمَّق في التفكير في ذلك، فكِّر في هذه الحركة الدائمة والنظام القائم الذي بموجبه تخرج النباتات وتتولَّد

الثمرات فترة بعد فترة وآناً بعد آن، إنه لو لم يكن خالق يخلق ومُوجِد يُوجِد لما استمر السير ولانقطع الظهور والخلق، بل لصار العالم كله إلى الاضمحلال، فكِّر في ذلك كله تهتدِ منه إلى خالقه!.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى تلك الخيرات التي يفجِّرها لنا، أراد تعالى أن يعرِّفنا أن ذلك إنما هو مبني على نظام يستحق أيضاً النظر ويستدعي التأمُّل ويعرِّف بالبارئ الذي أبدع الأشياء حتى جاءت على هذا الكمال، ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

أي: إن ظهور الخيرات والثمرات إنما هو مرتبطٌ وقائم على نظام الليالي العشر، ومن دون هذه الليالي العشر لا ينبت نبت، ولا يفجَّر زرع، ولا يفوح عطر، ولا ينضج ثمر.

فكلمة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ تقول: إنه بواسطة هذه الليالي العشر يتمُّ الإظهار، ويطَّرد ذلك السيْر والخلْق على أكمل وجه وأبدع حال.

ولقد سأل أحد الطلاب العلَّامة محمد أمين شيخو قدّس الله سره عن معنى قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وكان ذلك قبل تدوين هذا التأويل المبارك الذي تدرسونه الآن، فقال له العلَّامة: سأجيبك على سؤالك هذا بالأسبوع القادم إن شاء الله تعالى.

وأصبح العلَّامة يفكر ويلتجئ إلى الله تعالى بصدق عظيم وشوق كبير كي يشهده معاني تلك الآيات الكريمة، وبعد مضي أسبوع عاد الطالب وسأل العلَّامة مرة أخرى عن معاني تلك الآيات الكريمة، فأجابه العلَّامة بأن الله

تعالى لم يفتح عليه بعد وأنه بإذن الله تعالى سيجيبه على سؤاله في الأسبوع القادم، وهكـذا بقـي العلَّامـة الجليـل يلتجـئ إلى الله تعـالى وبكـل قـوة وصـدق طيلـة الأسبوع إلى أن جاء الموعد المحدد وأعاد ذلك الطالـب سـؤاله، فأجابـه العلَّامـة الجليل بأن الله تعالى لم يفـتح عليـه بعـد، ووعـده بالأسـبوع القـادم أن يجيبـه عـلى سؤاله، وهكـذا مـرت ثلاثـة أسـابيع والعلَّامـة الجليـل يفكـر بالآيـات الكريمـة وبتضـرع والتجاء أوسع من رحابة الكون الفسيح، وبصـدق وحـب لله العظـيم وإقبال عال متسامٍ إلى الفتاح العليم جل جلاله، إلى أن كشف الله تعـالى النقـاب عن معاني تلك الآيات الكريمة، وأشهده بالحق حقائقهـا كاملـة وأنـزل معانيهـا السامية في قلبه الشـريف، وعندما جاء الموعد واجتمع بذلك الطالب قال له: يـا بني لو أتيت بكأس ماء فارغ لامتلأ من دموعي في تلك الليلة التـي أشـهدني الله تعالى فيها معاني هذه الآيات الكريمة، ثـم شــرح لـه مـا كنـا ذكرنـاه سـابقاً عـن معنى كلمة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وتمم تأويله عن ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ مبيناً:

من المشاهد أن الليل لا يثبت عـلى حـال، بـل إنـه يختلـف في السـنة الواحـدة مـن زيادة إلى نقصان. فتجد الليل ينتقل مختلفاً يوماً عن يوم، وفي يوم واحد مـن أيـام الربيع تجد الليـل مسـاوياً للنهـار **22 آذار ـ مـارس** أي أن كـل واحـد مـنهما اثنتـا عشـرة ساعة.

ثم إن الليل يأخـذ بالتنـاقص دقيقـة أو دقيقتـين أو أكثـر أو أقـل وهكـذا حتـى يصل في يوم مـن أيـام الصـيف إلى حـد أصـغري مـن النقصـان **22 حزيـران ـ يونيو** فترى ليل الصيف قصيراً جداً.

فإذا بلغ هذا الحد الأصغري أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً حتى يعود مرة ثانية في يوم من أيام الخريف إلى الاعتدال فيتساوى الليل مع النهار **22 أيلول- سبتمبر**

ثم إنه يتصاعد في الزيادة حتى يصل في الشتاء إلى حدٍّ أعظمي من الطول **22 كانون أول ـ ديسمبر** فترى ليل الشتاء طويلاً جداً ثم ينحدر متناقصاً حتى يصل في الربيع إلى نقطة الاعتدال التي كان فيها من قبل متساوياً مع النهار وهكذا...

إذا أنت جمعت هذه الدقائق والثواني التي يتزايد فيها الليل، إلى جانب الدقائق التي يتناقص فيها خلال سيره في العام الواحد، وجدتَ مجموع دقائق النقصان مع دقائق الزيادة مئة وعشرين ساعة أي عشر ليالٍ، وبهذا التبدُّل في الليل تتمتع النباتات نهاراً بنور الشمس، كل ثمرة ونبات بما يناسب طبيعته، وبذلك تتولَّد وتظهر ظهوراً منظَّماً بالغاً في الكمال وتنتظم الحياة على وجه الكرة الأرضية. ولولا ذلك النظام المحكم الذي بموجبه تتولَّد الفصول لاختلفت المناطق ولاضطربت الحياة ولما أمكنت.

فمن الذي جعل للأرض هذا السير وأوجدها على هذا النظام؟.

أليس ذلك دليلاً على خالق حكيم ورب قدير؟.

وبما أن ظهور هذه الأشياء التي بها حياة الإنسان والتي تنطوي تحت كلمة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ يتوقف على عوامل أُخرى غير الفصول الأربعة التي عبَّرت عنها كلمة ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ لذلك أراد تعالى أن يُلفت نظرنا إلى هذه العوامل، لنفكِّر

وندقِّق فيها أيضاً فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾

والشفع: في الأصل: هو المزدوج من الأشياء، **والوتر**: هو المنفرد، وتشير كلمة (**الشفع**) هنا إلى الكرة الأرضية مقترنة بالقمر، فالقمر مرتبط بالأرض يسير معها أينما سارت، وهو أبداً ملازم لها طائف حولها لا يفارقها ولذلك سمّاه الله تعالى شفعاً، أما كلمة (**الوتر**) فهي تشير هنا إلى الشمس هذه الكتلة الملتهبة التي تمد الأرض مع قمرها بالضياء، وترسل عليها من نورها الوهَّاج. فهذه الآية تقول:

انظر أيها الإنسان إلى القمر في ارتباطه مع الأرض!. من الذي قرنه إليها وجعله ملازماً لها لا يفارقها. انظر إلى دورانه حولها!. انظر إلى منازله التي يمرُّ بها في شهر كامل!. انظر إلى تأثيراته في البحر وأمواجه، وارتفاعه وانخفاضه في مدِّه وجزره، انظر إلى أثره في نمو النبات والزرع.

ابحث ودقق في فائدة هذا الكوكب، وفي هذه القوة الحاملة له في الفضاء!. وانظر إلى تلك القدرة العظيمة التي ربطته وقرنته بالأرض، ثم انظر إلى الشمس في إمدادها الكون بالضياء والحرارة، وما تقوم به من تأثيرات في تبخير مياه البحار وهطول الأمطار ونمو المزروعات، أليس ذلك دليلاً واضحاً على وجود منظِّم نظَّم، وخالق أبدع وأوجد. ثم إن الله تعالى أراد أن يعرِّفنا بدورة الأرض التي ينشأ عنها الليل، لنعلم أن للَّيل أيضاً أثره في تولُّد هذه الخيرات، فلعلنا إذا نحن فكَّرنا بها أيضاً ازداد إيماننا، وسلَّمنا لخالقنا تسليماً ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾

ويسر: مأخوذة من سرى بمعنى جرى برفق، فالليل إنما يطوف حول الكرة الأرضية دائراً حولها في / **24**/ ساعة متنقِّلاً بلطف وهدوء تنقُّلاً غير منقطع.

فمن الذي خلق هذا الظلام وجعله دائب الدوران وأرفقه بما أرفقه من مؤثرات؟.

أليس هذا النظام الذي نشهده قائماً الآن على هذا الكمال بدليل ساطع على إلّه قدير وخبير حكيم؟.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى هذه الآيات الكونية التي لا يختلف في نظامها وعظيم ترتيبها اثنان قال تعالى: ﴿ **هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ** ﴾

والقسم: مأخوذة من أقسم بمعنى: حَلَفَ وقضى في الأمر قضاءً لا شك معه.

والحجر: مأخوذة من حَجَرَ بمعنى: مَنَعَ، لأن الإنسان إذا هو استفاد من تفكيره فإنه يحجره ويمنعه من الوقوع في الخطأ والزيغ والضلال فهذه الآية تقول:

أبعد أن قدَّمتُ ما قدَّمتُ من الآيات الدالة على هذا الكون العظيم، هل تستطيع أيها الإنسان إذا كان عندك ذرَّة من فكر أن تُقسم وتقول: إن هذا الكون ليس له خالق منظِّم وربّ قدير خبير؟.

وإذاً، فالفكر هذه الجوهرة الثمينة التي زيَّن الله تعالى بها الإنسان، هو أساس المعرفة، وهو وحده الموصل إلى الإيمان، ومن ترك تفكيره جامداً خامداً، ومن

لحق شهوته وألقى بتفكيره جانباً، ظلّ كالحيوان الأعجم لا يعرف إلا الطعام والشراب وهو عن المرتبة الإنسانية في معزل، وبينه وبينها حجاب، ففكِّر أيُّها الإنسان وتعمَّق بالتفكير فيما تراه حولك فلعلك تهتدي إلى خالقك وعندئذٍ تستنير بنوره تعالى في ظلماء حياتك فترى سبيل سعادتك وتميِّز خيرك من شرك.

النشاط الذاتي:

1- عَلَيَّ أن أفكر دوماً بالآيات الكونية فهي الطريق للإيمان بالله تعالى، كما أنه عَلَيَّ أن ألتجئ إلى الله تعالى قبل التفكير وأثناءه وأتضرع إليه بكل ما أملك من صدق وحب له عزَّ وجل، حتى يبين لي ويشهدني الحقائق ويكون بذلك العلَّامة الجليل نبراساً لي في طريقي وتعليمي.. فالإنسان كائن مفكر، فالذي لا يفكر يكون قد حرم نفسه وتركها جاهلة وأقعدها عن السمو والعلو، والله تعالى خلقنا ومنحنا الفكر لنسمو ونعلو ونعمل الصالحات كي نزداد قرباً منه تبارك وتعالى، فرسول الله ﷺ فكر بالشمس والقمر.. فكر بالليل والنهار.. فكر بكل ما في الكون من آيات دالة على حكمة وعظمة الله تعالى، وهذا هو طريق الإيمان.. قم بمراقبة الشمس ولاحظ كيف تشرق وتغرب في كلّ يوم وليلة بمكان يختلف عن اليوم السابق وهكذا بدقة لا متناهية.. وتأمل كيف يتغير طول النهار والليل بانتظام طولاً وقصراً من يوم لآخر لتدرك من خلال ذلك أنّ هناك يداً عليمة وقدرة حكيمة تهيمن

وتشرف على سير هذا الكون، وتضع نتاجه لخدمة الإنسان حبّاً وعطفاً ورحمة.

2 - احفظ سورة الفجر من أستاذك جيداً وتعاون مع أصدقائك على حفظها وتسميعها غيباً، ثم تحاور معهم ومع من تحب بما ورد من تأويل معانيها السامية.

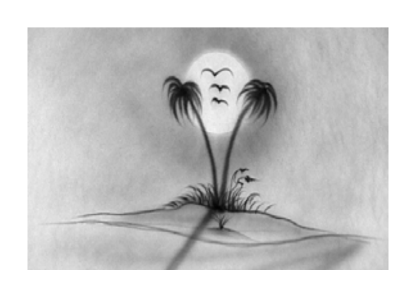
الأسئلة والتدريبات:

1- قال تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ**﴾ إلى ماذا تُشير هذه الآية الكريمة؟.

2- بماذا أجاب العلَّامة الجليل ذلك الطالب إثر مشاهدته الكبرى لحقائق الآيات الأولى لسورة الفجر؟.

3- قال تعالى: ﴿**هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ**﴾ ما هو معنى هذه الآية الكريمة؟.





الدرس الثاني عشر

تتمة تأويل سورة الفجر (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

عزيزي الطالب: الفكر هو الجوهرة الثمينة التي زيَّن الله تعالى بها الإنسان، وهو وحده الموصل إلى الإيمان، ومن ترك تفكيره جامداً خامداً، ومن لحق شهوته وألقى بتفكيره جانباً، ظلّ كالحيوان الأعجم لا يعرف إلا الطعام والشراب وهو عن المرتبة الإنسانية في معزل.. فإذا أنت ألْقيت بتفكيرك جانباً، وركنتَ إلى هذه الدنيا ولم تتعرَّف إلى خالقك الذي أوجدك على هذه الأرض، لم تتبع نصحه وبيانه، ولم تخش تحذيره وإنذاره، فانظر إلى ما حلَّ بمن طغوْا في البلاد!.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾.

وليس المراد من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الاستفهام.. إنما المراد التذكير بهذه الحادثة وتقريرها في ذهن الإنسان وتحذيره من متابعة مسير أولئك القوم.

وعاد: هم قوم من الأوَّلين سكنوا شمالي الجزيرة العربية في بلاد الشام، وعَمَروا الأرض وبذلوا في عمارتها كل ما أوتوه من قوة، فلمَّا جاءهم سيدنا هود ﷺ رسولاً إليهم من ربهم، عارضوه:

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ذهبت بأرواحهم وتركتهم صرعى على الأرض كأنهم أعجاز نخل منقعر.

وقد أراد تعالى أن يعرِّفك بما كانوا عليه من القوة والمهارة في البناء فقال تعالى:

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾

أي: إذا أردت أن تعرف موقع إقامتهم وما كانوا عليه من القوة فانظر إلى إرمَ ذات العماد.

وإرمَ: هي مدينة **دمشق** سُمِّيت إرم لأنها كانت مركز هؤلاء وعاصمة مُلكهم مأخوذة من الأرومة، وهي: أصل الشيء ومنبته، فمن دمشق كان ينبعث سلطانهم وسيطرتهم على سائر البلدان التي تحت نفوذهم. أقول:

وقد سمَّاها الله تعالى بإرمَ أيضاً لأن المسلمين سيؤمُّونها، بسبب ظهور السيد المسيح ﷺ فيها، وقد اقترب زمانه ﷺ كثيراً، فقد وقعت كل العلامات الدالة على ظهوره، وسيجمع المؤمنين وستكون دمشق مركزاً لهم في يوم المعركة الكبرى التي أخبر عنها ﷺ بقوله:

(1) سورة هود: الآية (53).

«فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها: الغوطة، فيها مدينة يُقال لها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذٍ»[1].

وذَاتِ الْعِمَادِ: أي: ذات الأعمدة الضخمة الشاهقة. وإنك إذا نظرت إلى الأعمدة الضخمة التي تظهرها الحفريات بين الحين والحين في دمشق عرفت ما كانت عليه هذه المدينة من الشأن العظيم في البناء والضخامة، وعرفتَ ما كان عليه هؤلاء من القوة. وقد أراد تعالى أن يعرِّفك بما كانوا فيه من النعيم قال تعالى: ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾

فدمشق في هوائها اللطيف، ومياهها الغزيرة، وإقليمها المعتدل، وفصولها المتنوعة، وهي في أرضها الطيبة ومنابتها الخصبة وأشجارها المنوَّعة تُعدُّ جنة العالم، إذ ليس في الكرة الأرضية موضع جمعَ المحاسن التي جمعتها دمشق من كلِّ الأوجه. فمهما كنت أيها الإنسان في نعيم وبسطة من العيش، فقد سبقك أقوام فرحوا بالحياة كما فرحت، وتمتعوا أكثر مما تمتعت، فلمَّا عصوا رسول ربهم وعتوْا عما نُهُوا عنه، لم تُغْنِ عنهم عماراتهم ومدينتهم ولا حدائقهم وقصورهم من شيء بل تركوا ذلك كله وأورثه الله تعالى قوماً آخرين.

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بما حلَّ بهؤلاء، ذكَّرنا بقوم ثمود فقال تعالى:

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾

(1) الجامع الصغير / 5875/ (حم) عن أبي الدرداء. وفي رواية «فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها الغوطة، فيها مدينة يُقال لها دمشق هي خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذٍ، طوبى لمن له فيها مربط شاة».

وَثَمُودَ: هم أيضاً قوم من الأقدمين الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية بين الحجاز والشام، وقد أرسل الله تعالى إليهم سيدنا صالحاً رسولاً يُنذرهم ويدعوهم لعبادة الله وطاعته، فطلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة من جبل تكون آية على رسالته، فما كان منهم تجاه هذه المعجزة إلاَّ أن عقروا الناقة كما رأينا في (سورة الشمس) وعَتوْا عن أمر ربهم ثم ائتمروا برسول الله ليقتلوه، فأنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه، وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

وقد جاءت هذه الآية لتذكِّر الإنسان بما حلَّ بأولئك القوم، فكلمة (**وَثَمُودَ**) تقول: وانظر أيها الإنسان إلى ما حلَّ بقوم ثمود.

وأما كلمة (**الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ**): فهي بمعنى قطعوه وجاؤوا به.

والصخر: جمع صخرة وهي الحجر العظيم الصلب.

والواد: هو منفرج بين جبال أو آكام يكون مسيلاً للماء ومجرى للأنهار. وكلمة ﴿**جَابُواْ ٱلصَّخْرَ**﴾ إنَّما أوردها الله تعالى ليبيِّن لك قوة أولئك القوم وشدَّتهم: وكلمة ﴿**ٱلصَّخْرَ**﴾ إنما تُشير إلى عظمة أبنيتهم وضخامتها. أما (**الباء**) المتصلة بكلمة ﴿**بِٱلْوَادِ**﴾ فإنما تُشير لك إلى الموضع الذي بنوا فيه أبنيتهم العظيمة إنما كان بِالْوَادِ، أي: بالمكان ذي الهواء اللطيف والشجر الكثير والماء الجاري الغزير، فهؤلاء مع ما كانوا عليه من القوة وشدة البأس لـمَّا عصوا رسول ربهم وحقَّ عليهم الهلاك لم تُغنِ عنهم قوَّتهم، ولم تُفِدْهم أبنيتهم الرائعة ولا قصورهم الشامخة. ثمّ ضرب لنا تعالى مثلاً آخر فقال:

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾

والأوتاد: جمع وتد، وهو كل ما غُرز في الأرض فكان سبباً في تثبيت شيء آخر وتمكينه. والذي نفهمه من كلمة ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ الواردة في هذه الآية: أُصول تلك الأبنية العظيمة التي كان يقيمها فرعون في مصر، والتي يسمُّونها بالأهرامات، فهذه الأهرامات الشامخة الذاهبة في السماء، هذه الأهرامات ذات الصخور العظيمة التي يبلغ حجم كل منها تقريباً حجم غرفة من الغرف التي تسكنها الآن، لا بدّ لها حتى تقوم ثابتة من أصول راسخة في الأرض تكون لها بمثابة الأوتاد.

فهذا الملك العظيم المتمكّن في الأرض وصاحب هذه الأبنية لـمَّا حقَّ عليه العذاب جذَبه الموت إليه جذبةً لم تُبقِ له أثراً ولم يجد له منها ناصراً، فإذا ذكرتَ أيها الإنسان ما أصاب عاداً وثمود فاذكر إلى جانبهم ما حلَّ بفرعون فلعلَّك تتَّخذ من هؤلاء عبرة، ولعل ما حلَّ بهم يكون لك موعظة وذكراً.

وبعد أن ذكر الله تعالى هلاك الأقوام السابقة، قوم عاد وثمود وفرعون، أراد تعالى أن يبيِّن لك أعمالهم التي جرَّت لهم الهلاك فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾

وطغوا: أي: جاوزوا الحدود الإنسانية في سيرهم.

﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾: فأكثروا، أي: جعلوه كثيراً.

والفساد: مأخوذة من فسد، وهو ضد صَلُحَ، يُقال: فسد الطعام وفسد الماء، أي: أصبح غير صالح. ولا بدّ لفهم معنى كلمة ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ الواردة في هذه

الآية من التفريق بينها وبين كلمة (**الأذى**) فنقول:

الأذى: هو أن يضر الإنسان بعمله الآخرين، فالجار الذي يدَع الماء ينصبُّ من ميزابه على جدار جاره إنما يؤذي بعمله هذا جاره، والذي يبني بناءً عالياً يكشف أرباب البيوت المجاورة ويحجب الشمس والنور والهواء عنهم إنما يضرُّ بعمله جيرانه، وهكذا كل عمل من شأنه الإضرار بالنفس أو بالآخرين هو أذى.

وكذلك التحدث عن الآخرين بالسوء بدون حق هو من الأذى أيضاً.

أما **الفساد**: فهو كل عمل يقوم به الإنسان فيكون من ورائه جرُّ الناس إلى القيام بالأعمال التي تضرُّهم وتؤذيهم، وبالوقت نفسه تضرُّ الآخرين.

وعلى وجه المثال نقول:

الرجل الذي يسمح لامرأته أن تخرج سافرة متزيِّنة كاشفة عن وجهها فعمله هذا فساد لأنه إنما يجرُّ بعمله هذا الناس إلى الوقوع في الزنى، وفي الزنى ما فيه من إيذاء المرأة والرجل والأولاد، بل المجتمع الإنساني بأسره من الوجهة الاجتماعية والصحية والخُلقية.

فالمرأة مثلاً لا تلبث حيناً حتى تقع في شباك الانحطاط الأخلاقي كما تغدو مصيبة لا يرغب أن يقترن بها إنسان، وفي ذلك ما فيه من إضرار بها وإلقائها في أحضان البؤس والفَاقة، وتركها في أيام كبرها فريدة لا تجد إلى جانبها ابناً يرحمها أو بنتاً تعطف عليها وكذلك حال الرجل.

ولا تسأل عن حال الأولاد «إنْ قُدِّرتْ لهم الحياة» ناهيك عمَّا في كشف

الحجاب من تقطيع لروابط أسرٍ كانت آمنة مطمئنة وإلقاء بذور البغضاء بين الزوج وزوجته وتفكيك وهدم العلائق الزوجية القائمة، وكذلك لبس الذهب والحرير وإشادة القصور والأبنية الفخمة إنما هو فساد، لأن الغني بعمله هذا إنما يستثير رغبة الفقراء إلى تقليده، وحيث إنهم ليس لديهم المال الكافي للقيام بمثل هذه المشاريع ينطلقون في إيذاء الخلق بالغش والتلاعب والكذب والخداع في المعاملة، ويسلكون السبل غير المشروعة في كسب المال، وكثيراً ما يقعون في الشح والبخل وحرمان ذوي القُربى وأصحاب الحقوق حقوقهم، وما جرَّهم لهذا كله إلاّ الغني المُفسِد.

ونعود الآن إلى الآية التي نحن بصددها فنقول: هذه الأمم التي ضرب الله تعالى بها الأمثال، ما جرَّ لها الهلاك والعذاب إلاَّ سيرها في طريق الفساد، لقد انطلق المترفون في الحياة الدنيا يقومون بالأعمال التي من شأنها إثارة سائر الطبقات، فأخرجوا النساء متزيِّنات مُتبرِّجات، وأشادوا القصور الشامخات، وبنوا الملاهي والمنتزهات، وقاموا بكل ما من شأنه أن يُثير الناس، وبذلك نشروا الفساد في البلاد، وذلك بعض ما نفهمه من كلمة:

﴿ **فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ** ﴾ أي: جعلوه كثيراً، ولذلك أهلكهم الله تعالى قَطْعاً لأذاهم وتطهيراً للأرض منهم. قال تعالى: ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ **وصب** الشيء، أي: أنزله من أعلى إلى أسفل بقوة.

يُقال: صبَّ فلان الماء، ويُقال: انصبَّ الصقر على العصفور، أي: انقضَّ عليه من أعالي الجو انقضاضاً قوياً. وكذلك هؤلاء لـمَّا صبَّ الله تعالى عليهم

العذاب لم يجدوا للخلاص طريقاً ولا إلى النجاة سبيلاً.

أما **السَوْط**: فهو المَقْرَعَة، أي: آلة الضرب، يُقال: ضرب فلانٌ الدابة بالسوط، والمراد بكلمة (**السَّوْط**) في هذه الآية الإشارة إلى ضعف الإنسان، وعدم احتماله ولو قليلاً من العذاب، فهؤلاء صبَّ الله عليهم سوطاً واحداً وشيئاً بسيطاً من العذاب، ومع ذلك فقد هلكوا عن آخرهم ولم يستطيعوا تحمُّل ما نزل بهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

أفتظن بعد ذلك أيها الإنسان المعرض أنك إذا قمت بالطغيان وأفسدت في الأرض أنَّك تُعجز الله هرباً، أو أنك تجد إلى الخلاص سبيلاً؟.

ثم بيَّن لنا تعالى أنه دوماً في مراقبة هذا الإنسان فقال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾

والمرصاد: مصدر من فعل رَصَدَ، بمعنى راقب. فهذه الآية تقول:

إن مربِّيك أيها الإنسان ومُمِدُّك بالحياة هو دوماً معك بصير بك، مراقب أحوالك المراقبة التامة، فهو يسوق لك في كلِّ لحظة ما يناسب حالك، فإذا انتهى بك الأمر بأن وصلتَ إلى درجة لا تُفيدك معها الإنذارات ولم يبقَ لك طريق للشفاء، فعند ذلك يحلُّ بك الهلاك ويحيق بك سوء العذاب.



(1) سورة هود: الآية (102).

النشاط الذاتي:

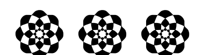
- اجلب بعض الصور للآثار التي خلفتها الأقوام السابقة مثل الأهرامات في مصر التي بناها الفراعنة أو منطقة البتراء التي بنتها ثمود في جنوب بلاد الشام، لترى كيف سخر هؤلاء السابقون إمكانياتهم وتفكيرهم فقط من أجل الدنيا والتفاني فيها، وأنهم جاؤوا لهذه الدنيا ورحلوا عنها دون أن يحققوا الغاية التي خُلِقوا من أجلها.. فالغاية هي الإيمان بالله تعالى ومن ثم العمل الصالح لتكون النتيجة جنات تجري من تحتها الأنهار.. أما هذه الأقوام فبنوا ما بنوا دون أن يخطر الموت على بالهم..

لقد طُرِدوا من هذه المدرسة (الدنيا) وأبقى الله تعالى بعض آثارهم للعبرة والموعظة



الأسئلة والتدريبات:

1. قال رسول الله ﷺ: «**فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يُقال لها الغوطة فيها مدينة يُقال لها دمشق هي خير منازل المسلمين يومئذٍ**».
   لماذا سمَّى الرسول ﷺ مدينة دمشق في آخر الزمان «**بفسطاط المسلمين**»؟.
2. ما هي الأسباب الرئيسية لهلاك الأمم السابقة من عاد وثمود وفرعون؟.
3. اشرح وبين الفرق بين معنى كلمة (**الأذى**) وكلمة (**الفساد**).



الدرس الثالث عشر

تتمة تأويل سورة الفجر (3)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا﴾

أعزائي الطلاب: أراد تعالى أن يبيِّن لنا سبب إعراض الإنسان عن خالقه، وعدم معرفته بربه، تلك المعرفة التي تخلع عنه هذه الصفة الحيوانية، وتجعله إنساناً حقاً، مُصلحاً غير مفسد، سعيداً غير شقي، ولذلك قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾

ولفهم هذه الآية لا بدَّ من شرح مفرداتها فنقول:

ابتلاه: مأخوذة من الابتلاء، وهو الاختبار وإظهار حقيقة الشيء، نقول: ابتلى الله فلاناً بهذا المال، أي: أعطاه إيَّاه ليُظهر حاله وما انطوى في نفسه من بخل وشحّ وحرص على الدنيا، أو سخاء وحب للبذل والمعروف والإحسان، ونقول: ابتلى الله هذا الرجل بهذه الوظيفة، أي: ولاَّه إيّاها ليُظهر ما في نفسه من حبٍّ للجاه والسيطرة والشهوات الكمينة أو ما استقر فيها من

عواطف الرحمة والإنسانية والغيرة على مصالح الخلق، واغتنامها فرصة لنصرة من لا ناصر له ولا معين، وهكذا فالله تعالى إنما يبتلي الإنسان بهذه الدنيا، وكل امرئ مهما أخفى وأبطنَ لا بدّ له من ساعة تظهر فيها حقيقته وتبدو كوامن نفسه.

أما كلمة (**أكرمه**): الواردة في هذه الآية فهي مأخوذة من الإكرام، وهو العطاء الكامل الخالي من الشوائب من صحة ومال وطعام وشراب ومسكن إلى غير ذلك من أنواع العطاء.

وكلمة (**نعَّمه**): أي جعل فيه قابلية التذوُّق والتلذُّذ بما أكرمه به ربُّه.

فالله تعالى خلقَ الفواكه اللذيذة، وأعطى الإنسان لساناً يتنعَّمُ به بطعوم تلك الفواكه، وخلق الأزهار العطرة وأعطاه شمّاً يتعرَّف به إلى هذه النعمة، وهكذا أكرم الله تعالى الإنسان بأشياء لا تعدُّ ولا تحصى، وجعل فيه ذوقاً ليتمتَّع ويتنعَّم بها، وقد أراد تعالى بهذه الآية الكريمة أن يلوم الإنسان المُعرض على عدم تقديره ذلك الإكرام وتلك العناية الإلهية، فأورد الآية في صيغة الاستفهام ليتساءل الإنسان بنفسه ويختبر ذاته بذاته فيعرف حاله ودرجته من تقديره لإحسان ربه، فهذه الآية تقول: انظر أيها الإنسان لنفسك إذا ما ابتلاك ربك بأن ساق لك الإكرام والنعمة فهل أنت ممَّن يقدِّر نعمة هذا الرب الكريم!. وهل تعرف أن مصدر هذا العطاء كله من الله تعالى؟.وهل أنت حين تشرب الماء، هل أنت حين تتناول الفاكهة والغذاء، هل أنت حين تدخل الدار وتأوي إلى الفراش. هل أنت حين ترى حولك

الأهل والأصحاب، هل أنت حين تسير بالطريق وترى العاجزين والفقراء ومن هم دونك منزلة في هذه الحياة. هل أنت في جميع هذه الأحوال وما شاكلها ممَّن يذكرُ نعمة الله عليه ويقدِّر إكرام ربه وإحسانه إليه، هل تقول: ربي أكرَمني بهذا!.وما ذلك إلاَّ من رحمته بي وفضله عليَّ. وبعد أن بيَّن لنا تعالى أنه إنما يبتلي الإنسان في الدنيا وما فيها من المتعة والنعيم، أراد أن يبيِّن لنا أنّه إنما يبتليه أيضاً بما يسوقه له من الشدائد التي تكون سبباً في طهارة نفسه، فقال تعالى:

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾

وقَدَرَ عَلَيْهِ: أي: ضيَّق عليه. **ورِزْقَهُ**: أي ما تفضَّل به عليه من العطاء: فالصحة والمال والجاه والسلطان كل ذلك رزق من الله، فهذه الآية تقول: فإذا ما ابتلاك الله بأن زوى عنك شيئاً من عطائه فأنزل بك المرض أو الفقر أو الذل أو سلب السلطان أو غير ذلك من صنوف التضييق والبلاء الذي يكون سبباً في رجوعك إلى الحق وخروج ما استقر في نفسك من الخبث والشهوة المُهلِكة، هل أنت ممَّن يتعرَّف إلى المصدر الذي جاءت منه هذه الشدة ويستيقظ من غفلته؟. هل أنت في هذا الحال ممّن يرجع إلى ربه فيقول: ربي أهانني ليبعدني عن هذا الضلال الذي أنا فيه، ويردَّني عن ذلك الطريق المنحرف الذي يعود عليَّ بالشرِّ والهلاك؟.

وهكذا، فالله تعالى إنما يبتلي الإنسان بالعطاء والإكرام تارة، كما يبتليه بالتضييق والمنع تارة أخرى، فإذا أنت اختبرت نفسك وطبَّقت هاتين الآيتين السابقتين عليها فوجدتها في حالة النعمة ممّن لا تقول: ربي أكرمني، وفي حال الشدة

والتضييق ممّن لا تقول ربي أهانني، أي: إذا كنت لا تعرف المعطي والمانع ولم تُشارف نفسك بعد منازل الإيمان الصحيح، ذلك الإيمان الذي يرى معه المؤمن أن السير كله بيد الله تعالى، وأن **لا إله إلّا الله**، فاعلم أن السبب في عدم وصولك لهذا الإيمان إنما هو قصور همَّتك وتقاعسك عن فعل الخير. وقد أراد تعالى أن يبيِّن لك ذلك فقال: ﴿**كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ**﴾

وكلمة ﴿**كَلَّا ۖ**﴾ هنا تفيد النفي، أي: إنكم لا تقولون ذلك، ثم بيَّن لنا تعالى السبب الباعث إلى عدم الإيمان فقال تعالى: ﴿**بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ**﴾.

واليتيم: كل منقطع لا ناصر له ولا مُعين، أي: أنكم لا تفعلون الخير فلا تساعدون ولا تعطفون على اليتيم. ﴿**وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ**﴾ أي: لا تُحمِّلون أنفسكم ولا تحثُّونها على طعام المسكين، **والمسكين**: هو الفقير العاجز الذي أقعده المرض أو الشيخوخة عن الكسب، فهذه الآية والتي قبلها تُبيِّنان لنا أن عدم فعل الخير هو السبب في عدم الوصول إلى الإيمان الذي يتعرَّف به الإنسان إلى المانع المعطي المتصرِّف في هذا الكون، فالنفس إذا عُرِض لها عمل من أعمال الخير وأحجمت عنه، ولم تُضحِّ بالمال الذي هو في نظرها غالٍ وثمين، لا تستطيع التوجُّه إليه تعالى، بل تجدها خجلى من ربها، محجمة عن الإقبال عليه. ثم بيَّن لنا تعالى أن عدم التضحية بالمال وعدم فعل الخير لا يقف بالإنسان عند هذا الحد من الشح والبخل، بل ينتقل به إلى حدٍّ أدنى وأحطّ، إذ يصبح متهالكاً على الدنيا، أكبر همّه جمعها ومنعها، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا**﴾

والتراث: هو ما نراه من الثروة المتبادلة التي يتداولها الناس جيلاً عن جيل. وأما كلمة ﴿لَّمًّا﴾ فبمعنى: الجمع، تقول: لمَّ الله شعثَ بني فلان، أي: جمعهم، ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿لَّمًّا﴾ الواردة في هذه الآية أنها تُفيد وصف الحالة النفسية لذلك الشخص المُعرض الذي لم يطوِّع نفسه في عمل الخير، فقد أصبح في حرصه على الدنيا يودُّ جمع المال كله، والثروة المتبادلة بين أيدي الناس وضمّها إليه، فلو استطاع وأمكنته الظروف لانتزع ما في أيدي الناس جميعاً، ولما أبقى في يد أحد منهم شيئاً. أقول: وهذا الحال أصبح من المشاهد المألوف في أيامنا الحاضرة، فالبائع يُريد أكل مال المشتري كله، والوارث القوي يسعى لأكل مال شركائه القاصرين، وكل امرئ يبذل جهده في أن يبتز من أموال الناس أكبر حدٍّ ممكن، سواء أكان ذلك من حلالٍ أم من حرام، وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا أن ذلك المعرض عن ربه المتهالك على جمع الدنيا لا يُشبع نهمه شيء، فمهما لمَّ ومهما جمع فهو يريد أن يجمع مثله، وفي نفسه لو يستطيع لما أبقى في يد أحد شيئاً ولذلك قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾

والجمُّ: هو أخذ الشيء بكلِّيته أخذاً لا يدع منه للآخرين قليلاً ولا كثيراً، فهذه الآية تقول: وقد أصبحتم بسبب إعراضكم عن الله في حال تُحبُّون معها المال حبّاً يجعلكم تجمعون ما بأيدي الناس، وتتمنّون ألاَّ تبقوا في يد أحد منهم شيئاً، وإذاً فعدم فعل الخير يصل بأصحابه إلى الإعراض عن الله، ويجعلهم بمعزل عن الإيمان وهذا الإعراض يُشرِّب قلوبهم حب الدنيا والتهالك عليها. ثمّ إن الله تعالى أراد أن ينكر على هذا الإنسان عمله، وأن

يردعه عن ذلك السير الدنيء الذي ينحطّ به ويصرفه عن تلك المنزلة التي هو جدير بها، وتلك المرتبة العالية التي خُلق من أجلها، ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾: **وكلا**: كلمة ردع يُراد بها زجر المخاطب وردعه عن خطئه، فهذه الكلمة تقول: تجنَّب أيها الإنسان هذا السير المنحرف، وعُدْ عن خطئك فما خُلقت لتكون كالحيوان لا يهمُّك إلاّ أمر نفسك والاستئثار بما في أيدي الناس. فالإنسان الصحيح ليس هذا سيره، وما خُلق الإنسان في هذه الدنيا إلا ليفعل الخير ويكتسب حياته في خدمة أخيه الإنسان، ليكون في الآخرة من السعداء.

الأسئلة:

1- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾
ما هو معنى كلمة: ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾؟.
وإلى ماذا تُشير كلمة: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؟.

2- قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لماذا لم يورد تعالى كلمة ﴿رَبُّهُۥ﴾ بهذه الآية الكريمة على غرار الآية السابقة؟.

3- إلى أين يصل ويسمو الإنسان الذي يُضحِّي بحب المال ويبذله في سبيل الله تعالى؟.



الدرس الرابع عشر

تتمة تأويل سورة الفجر (4)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴾

عزيزي الطالب: بدأت سورة الفجر بالآيات الكونية لتعرفنا بخالقنا، ثم بينت لنا نتائج الأقوام السابقة التي لم تفكر بهذا الكون فخسرت خسارة كبرى، ثم بينت لنا السورة الكريمة سبب إعراض الإنسان عن خالقه، وعدم معرفته بربه، تلك المعرفة التي تخلع عنه هذه الصفة الحيوانية، وتجعله إنساناً حقاً، مُصلحاً غير مفسد، سعيداً غير شقي، والآن إذا لم يُصغِ الإنسان إلى نصيحة ربِّه وأمره، وإذا لم يسلك الطريق التي رسمها له، وبيَّنها على لسان رسوله الكريم، وإن لم يُصدِّق ولم يُؤمن بذلك كله، فسيندم حين لا ينفعه الندم وسيرى عظيم خسارته في ذلك اليوم الذي سيقف فيه للحساب بين يديه تعالى، ولذلك قال عز وجل:

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

ولفهم معنى ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ نقول: دكُّ الأرض: هو جمع أجزائها فوق بعضها بعضاً مأخوذة من الدكِّ، وهو تسوية الشيء وخلطه ببعضه، فبعد أن تُزلزل الأرض زلزالها، وبعد أن تبسط وتخرج أثقالها، وبعد أن يتم خروج الناس منها وتنتهي وظيفتها، تُدكُّ أي: تُجمع على بعضها بعضاً.

دكّاً: أي: جمعاً تامّاً، **دكّاً**: أي لا رجعة لها بعده أبداً.

ثم ذكر لنا تعالى ما يعقب ذلك فقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: مجيئاً لا زمانياً ولا مكانياً، فإنه تعالى منزَّه عن المكان والزمان، لكن هذه الكلمة تعني: أنه تعالى شهيد عليك وعلى كل عمل تعمله الآن، فإذا كان ذلك اليوم فعندئذٍ يأتيك ربك بأعمالك ويُطلعك على ما كسبتْ يداك في دنياك، وهي من جهة ثانية تعني أنه يجيئك بما يلزمك من ضروريات المداواة ومن ذلك قولهم: جاءنا الرسول بالهدى، وجاء الطبيب بدواء مفيد.

أما كلمة ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾: فإنما تعني أن الملائكة على أقسام ولكل قسم منهم وظيفة ومهمة فإذا جاء ربك بعملك، وأطلعك عليه، وجاءك بما يكون دواءً لعللك وأمراضك. كانت الملائكة ساعتئذٍ صفوفاً، كل صف مخصّص بأمر من أمور مداواتك وناحية من نواحي معالجتك. ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾

وجهنم هي دار المداواة في الآخرة، والمجيء بها كناية عن أن المجرم يومئذٍ يرى نفسه في حال لا مناص له عن الدخول إلى جهنم والتداوي فيها، وحاله في ذلك اليوم كحال المريض إذا رأى المستشفى، علم ما سيكون عليه حاله فيها. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾

ويَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ: أي: أنه إذا رأى الحال المزري الذي وصل إليه والخسران الأبدي والعار، ورأى النار.. فعندئذٍ يتذكر ما كان أخبره الرسول الكريم ﷺ عنها، ويتذكر نصيحة الله وما أرسله له من آيات بيِّنات.

وأما كلمة ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾: فإنما تعني أنه لا يفيده يومئذٍ تذكُّره شيئاً، فقد خسر هذا المسكين حياته وأضاع عمره الثمين سدى، وانقضت تلك الفترة التي كان يستطيع فيها أن يكتسب الخيرات، فلا فائدة له من هذه الذكرى. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾: وأنه يومئذٍ ليندم أشد الندم، ويتقطَّع قلبه حسرةً، إذ يرى أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، غير أنه خسرها وما قدَّم لها شيئاً. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾

أي: أنه في ذلك اليوم لا يعذِّبه أحد ذلك العذاب الذي يقع عليه، وإنما هو ذاته جرَّ العذاب لنفسه، فحسرته وخجله وأعماله الخبيثة التي تتراءى له تلذعه في قرارة نفسه لذعاً لا يطيقه ولا يستطيع أن يتحمَّله، ولذلك تراه يفرُّ إلى النار لينطرح فيها ليكون له من حريقها وعذابها سِتْرٌ عن آلامه النفسية.

أقول: وما مثل هذا الإنسان في ذلك اليوم إلا كمثل طفل نهاه والده عن مس شفرةٍ حادة مرهفة فعتا عن أمر والده وخالفه فيما نهاه عنه، وجعل يبري بها قلمه

ظناً أن تلك الشفرة خير من المبراة التي نصحه والده أن يبري بها، وفيما هو على هذا الحال أخطأت الشفرة القلم على حين غفلة منه وذهب بأصبعه، فجعل يصيح ويستغيث ويستجير بوالده ليضمِّد له جرحه ويسعفه مما حلَّ به. أفتظن أن ذلك العذاب الذي حلَّ به في تلك الساعة أنزله به أحد؟. إنه لم يعذبه أحد ذلك العذاب، إنما هو وحده الذي جرَّ هذا الألم لنفسه، وما الألم الذي يشعر به ساعة التضميد والإسعاف إلاَّ مداواة، أقول: وهذا المثال الذي قدّمناه إنما قرَّبنا به وجه الحقيقة من الأذهان والواقع أبلغ من ذلك بكثير، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

وقد أراد تعالى أن يفصِّل لنا في وصف حالة ذلك التعيس الشقي فقال تعالى:

﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾

والوثاق: هو ما يُشدُّ به من قيد وحبل ونحوهما، تقول أوثق الشرطي المجرم، وأوثق البيطريُّ الدابَّة ليتمكن من مداواتها، ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أنه في ذلك اليوم لا يشد الوثاق على ذلك المسكين في النار أحد بل هو ذاته يُوثق نفسه بنفسه، إذ يصبر على ألم الحرق ويُرغم نفسه على تحمُّل العذاب ليتخلَّص مما هو فيه، وبعد أن وصف لنا تعالى حال العاصي يوم القيامة وما سيكون عليه وضْعه في النار، أراد تعالى أنْ يذكِّر الإنسان بالتوبة والرجوع وأن يحثه على اغتنام هذه الفرصة التي هو فيها الآن، فلعلّه يتخلّص مما سيحل به من شقاء، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾

لنستطيع أن ندرك المراد من كلمة (**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**)

نقول: إذا نظر الإنسان إلى الناس الآن وجدهم منصرفين إلى الدنيا انصرافاً كليّاً، مطمئنين بهذه الحياة طمأنينة لا مثيل لها، يبنون الأبنية الفاخرة والقصور الشامخة، ويجمعون المال الكثير، ويؤسِّسون المصانع الضخمة، ولا يخطر لأحدهم على بال أن الموت واقف بالقرب من دارهم، وسرعان ما يطرق الباب، فهذه الآية ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ تقول:

يا أيتها النفس المطمئنة بهذه الحياة الدنيا وملذَّاتها المنصرفة إلى شهواتها ومسرَّاتها اعلمي بعد هذه الدنيا أنك ستلقين يوماً ثقيلاً لا ينفعك فيه مال ولا بنون، وليس لك بعد هذه الدنيا من دار إلا الجنة أو النار فانتبهي من رقدتك، وأفيقي من نومك، وارجعي إلى ربِّك راضية مرضية.

والمراد بكلمة ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: ارجعي إلى دلالة مُمدّك بالحياة القائم عليك بالتربية، فإذا رجع الإنسان إلى دلالة ربه بأن نظر في نفسه وتركيب أعضائه وفكَّر في الكون ومخلوقاته فعندئذٍ تستعظم نفسه خالقها وموجدها، واستعظامها هذا يحملها على أن تستقيم على أوامره تعالى فلا تعود تفعل سوءاً، وتغدو محسنةً للمخلوقات كلها، وبذلك تصبح راضية عن أعمالها وذلك ما نفهمه من كلمة ﴿رَاضِيَةً﴾ كما تحصل لها الثقة بأن الله تعالى راضٍ عنها فتُقبل عليه، وذلك ما نفهمه من كلمة ﴿مَّرْضِيَّةً﴾. ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾

فإذا سلكت النفس هذا السبيل وأقبلت على ربها واثقةً بأنها مرضية لديه اصطبغت منه تعالى بصبغة الكمال، وغدت رفيعة الصفات، وعندئذٍ تجدها تُحب أهل الكمال فتُحبّ مرشدها ودليلها إلى الله حبّاً حقيقياً لما تراه فيه من

كمال، وتدخل هذه النفس بتلك النفس وتشتبك بها اشتباكاً رابطته المحبة والتقدير، وبدخول هذه النفس في نفس مرشدها يحصل لها بالتبعية ارتباطٌ بنفس رسول الله ﷺ، وذلك ما نفهمه من آية: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1].

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾

فإذا وصلت النفس لهذا الحال وارتبطت هذا الارتباط، فعندئذٍ يُوصلها ارتباطها إلى حضرة الله تعالى، وهناك تصبح مغمورة في جنة من النعيم بهذا القرب الإلهي، وذلك ما نفهمه من آية: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾. ويمتد بها هذا النعيم إلى الدار الآخرة فتدخل جنة الخلد، وتخلد في ذلك النعيم الأبدي.

وإذاً فالرجوع إلى دلالة الله يُصلح عمل النفس ويجعلها راضية مرضية، وصلاح العمل وما يتبعه من الإقبال على الله يُوصل إلى الارتباط بأهل الكمال، والارتباط بأهل الكمال يُوصل صاحبه إلى الارتباط برسول الله ﷺ، والارتباط برسول الله يُوصل بصاحبه إلى حضرة الله، ومن دخل في حضرة الله فقد وصل إلى السعادة والنعيم، وذلك هو مراد الله تعالى من خلقه.



(1) سورة الأحزاب: الآية (56).

النشاط الذاتي:

- احفظ سورة الفجر جيداً وتمرَّن على تسميعها غيباً، وثابر على تلاوتها وتدبر معانيها السامية، فالله تعالى أنزل القرآن الكريم كي تفكر فيه وتطبق ما أمرك به وتنتهي عما نهاك عنه لتعيش حياة سعيدة.

الأسئلة والتدريبات:

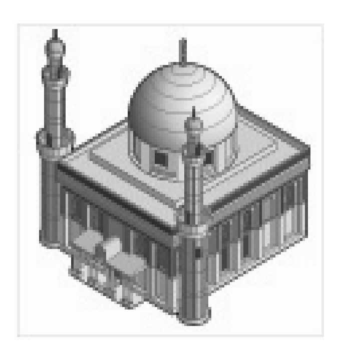
1- ما الذي يتذكره الإنسان المعرض حين تُحيط به خسارته وحين يرى النار، وهل تنفعه تلك الذكريات؟.

2- ما معنى قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؟

3- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ بأي شيء كانت النفس مطمئنة، وما هو معنى كلمة: ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾؟.

4- ماذا تستنتج من هذه السورة الكريمة؟.





سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾

الدرس الخامس عشر

تأويل سورة الغاشية (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

أعزائي الطلاب: هذه السورة الكريمة تُريد أن تُذكِّر الإنسان بيوم القيامة، وأن تُبيِّن ما يكون عليه يومئذٍ حال الناس.

فالإنسان لا شك راجع إلى ربِّه، فإن كان مُسيئاً وقف يومئذٍ ذليلاً خاشعاً لما سيحلُّ به من العذاب، وإن كان مُحسناً وقف فَرِحاً ومستبشراً بما سينال من النعيم والإكرام، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾

والْغَاشِيَة: مأخوذة من غشى بمعنى: غطَّى. تقول: غشيت المريض بالثوب، أي: غطَّيته به، وهي مأخوذة من غشي، بمعنى حلَّ ونزل، تقول: غشيَنا البرد، وغشيَنا الخوف، أي: حلَّ بنا وأصابنا، ومنه أيضاً: أُغشي عليه، أي:

فقدَ صوابه، تقول: أُغشي عليه من الألم فأصبح لا يعي شيئاً.

وعلى هذا **الْغَاشِيَة**: كل ما يحلُّ بالناس من الأمور المهمة العظيمة التي تُغطي النفس وتحيط بها فلا تكاد تفكِّر في شيء سواها، فالعاصفة في البحر تُنذر المسافرين بالغرق غاشية، والطوفان في البر وهجوم الأعداء على البلاد كل ذلك غاشية لأنه إذا حلَّ بالإنسان غطَّى النفس همُّه وشملها كربُه فأصبحت لا تكاد تفكِّر فيما سواه.

والمراد **بالغاشية** هنا: البعث والقيامة فهي غاشية لأنها تغشى الخلائق جميعاً من بدء الخليقة إلى آخر الدنيا فلا تغادر منهم أحداً.

وهي تغشى الناس بهولها فيذهل الإنسان وينسى كل شيء غيرها. وجاءت الآية ﴿**هَلْ أَتَىٰكَ**﴾؟ في صيغة الاستفهام تأكيداً للمعنى وتقريراً للواقع في نفس الإنسان وبياناً لشأن ذلك اليوم العظيم.

ويكون ما نفهمه من آية: ﴿**هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ**﴾: أما علمت بخبر ذلك اليوم، أما جاءك حديث الغاشية (الواقعة) التي تشمل الخلْق جميعاً فتذهل لها نفوسهم، أفلا تفكِّر في ذلك اليوم الذي لا مفرَّ منه فتستعدّ له منذ الآن.

ثم بيَّن تعالى حال الناس في ذلك اليوم، وذكر لنا أولاً حال أهل الأعمال الرديئة فقال تعالى:

﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ**﴾

ونبدأ بآية: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ**﴾ فنقول:

الخاشعة: هي الذليلة الخاضعة، تقول: خشع بصر فلان، أي: ذلَّ وانكسر، وخشع صوته أي انخفض. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

والناصبة: مأخوذة من نَصَبَ، أي: رفع وأقام. نقول: نصب الشجرة، ونصب الجدار، أي: أقامه.

فهذه الأنفس عملت أعمالاً في الدنيا، وهي الآن ناصبة أعمالها أمامها لا تغيب عنها، ولكن لماذا تقف خاشعة منكسرة، إنها تقف في هذا الحال لأنها ترى ما سيحلُّ بها وما هو معدّ لها، فهنالك النار تنتظرها والماء الحار الشديد الغليان شرابها، والضريع طعامها، ومن كانت هذه الأشياء أمامه أفلا يقف خاشعاً ذليلاً وخاضعاً منكسراً. فهي إذاً خاشعة لأنها ستصلى ناراً حامية ولذلك قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾

وتصلى ناراً: أي: ستُحرق وستُشعل بنار حامية. ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾

والعين الآنية: هي الحارَّة الشديدة الغليان. ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾

والضريع: فيها معْنيان اثنان: الضرُّ: وهو التألُّم، والضراعة: وهي الدنو من الشيء والنزول إليه.

فذلك الطعام الذي يتناوله أهل النار مؤلم كريه تعافه الأنفس، لكنهم مع ذلك الألم وتلك الكراهية نازلون بنفوسهم إليه لأنهم مضطرون إلى تناوله ومثلهم في ذلك مثل المريض المضطر إلى تناول العلاج الكريه. ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

إذ السِّمَنُ لا يكون إلا بعد ذهاب العلَّة والتخلُّص منها، وذهاب العلّة

والشفاء منها لا يكون إلا بالإقبال على الله، إذ إن نوره تعالى هو وحده الذي يشفي النفوس المريضة من العلل، ولذلك تجد هذا الطعام لا يُسمن لأنه لا شفاء فيه وما هو إلا تسلية يتسلَّى به أهل النار عما يجدونه من الآلام.

﴿...وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

ولا يغني: أي: لا يدفع ولا يُخلِّص من الجوع ذلك لأنه لا غذاء فيه. ثم بيَّن تعالى حال أهل الجنة في ذلك الموقف العظيم فقال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾

أي: مُتنعِّمة. ولكن ما السبب في ذلك؟!. لقد بيَّن لنا تعالى السبب بقوله:

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾

أي: لما قدَّمته في دنياها من الأعمال الصالحة أصبحت راضية. إذ إن ذلك العمل سيعود عليها بالجنة العالية. قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

لا بدّ لنا من أن نبيِّن حال أهل الجنة ونعيمهم فيها لنتعرَّف إلى كبير فضل الله تعالى على الإنسان وعظيم نعمته فنقول:

الإنسان كما ذكرنا من قبل مؤلَّف من **نفس وروح وجسم** وقد بيَّنا في تأويل سورة الشمس أن **النفس** هي العنصر الأساسي في الإنسان وأنها هي التي تتنعَّم وتتألَّم وهي التي تتذوَّق الأشياء وتتمتَّع بما فيها من ملاذّ.

والروح: هي الإمداد بالحياة، وهذا الإمداد منصب على قلب الإنسان (القلب المادي الموجود بالصدر) فالروح تجري بدم الإنسان، مثال تقريبي: إذا تصورنا أن السيارة (المركبة) هي الإنسان فإن الروح هي الوقود والطاقة

التي تمد السيارة بالحركة، وهيكل السيارة هو الجسم، أما النفس فهي السائق الجالس وراء مقعد القيادة يأخذ السيارة ذات اليمين وذات اليسار.

النفس في هذه الدنيا محبوسة إذاً في الجسم محاطة به فلا تدرك من الأشياء إلاّ صورها ولا تتمتع بلذائذها إلا بواسطة الحواس ومن وراء حجاب بخلاف ما هي عليه الحال في الآخرة.

ففي الآخرة تصبح النفس لابسة للجسم محيطة به من جميع جهاته كما يحيط لهب الشمعة بفتيلها من كل جهة، فإذا تصوَّرنا فتيل الشمعة جسماً كان اللهب والنور نفساً آنذاك.

فقد كنا نفوساً مجردة عن الأجسام قبل خروجنا لهذه الحياة، وسنعود نفوساً كذلك، قال تعالى: ﴿ ..كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[1].

والنفس في الدار الآخرة لا تعود تُبصر بواسطة العين، وإنما تصبح كلها عيون، وهي لا تعود تسمع بواسطة الأذن، بل كلها آذان، وكلها ذوق، وكلها شمّ، وكلها نطق، ذلك هو حال النفس يومئذ، وهي في مثل هذا الحال أكبر نعيماً مما هي عليه في الدنيا، فإدراكها الآن جزئي ومن وراء حجاب (أي: بواسطة الجسم) وإدراكها يومئذ بصورة مباشرة.

فإذا أرادت النفس أن تنظر إلى شيء فلا تحتاج إذ ذاك إلى عين، وإذا أرادت أن تتناول طعاماً فلا تحتاج إلى فم ومضغ وأسنان، بل تسري أشعتها إلى الشيء، فتتذوَّق ما فيه، وتتمتَّع بما يحويه من اللذائذ، وتتوصل إلى ما انطوى

(1) سورة الأعراف: الآية (29).

عليه من ذوق من غير ما حاجة إلى مضغه وتقطيعه بالأسنان، ونعيمُها والحالة هذه أوسع من نعيم الدنيا ولا يماثله.

ففي الدنيا سرعان ما يشبع الإنسان، أما في الآخرة فليس يمنع النفس مانع من التمتُّع والتلذذ بالشيء بصورة مستمرة قال تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا .. ﴾[1]

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[2].

وكذلك تمتُّع الإنسان بزوجته في الجنة إنما هو تمتُّع نفسي، فنفس الإنسان تسري إلى نفس زوجته وتتمتع بها تمتُّعاً دائمياً في شهود وهي دوماً في لقاء.

وحتى الأشياء الموجودة في الدنيا تعود لطبيعتها الأصلية نفوساً مجردة عن الوظائف التي كانت تقوم بها بالدنيا. فكل شيء كنَّا نراه في الحياة الدنيا يتبدَّل أو يرجع إلى حالته الأصلية، فلا الأرض هي الأرض، ولا الأنهار أنهار ولا الأساور ولا الذهب ولا الفضة ولا الأرائك، ولا غيرها يبقى على حاله الذي كان عليه في الحياة الدنيا، لأن الوظائف التي كانت تقوم بها قد تبدَّلت. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

وما هذه الأشياء التي ذكرها تعالى عن الجنة في هذه السورة الكريمة بل بكل كتابه الكريم إلاَّ أسماء لمسميات تختلف بالدرجة في أصلها عن الأشياء التي

---

(1) سورة الرعد: الآية (35).

(2) سورة الواقعة: الآية (32-33).

(3) سورة إبراهيم: الآية (48).

كنا نراها في الحياة الدنيا، لأن حقائقها متشابهة لكنها أجمل بكثير وأرفع وأرقُّ وأحلى.

وبناءً على ما قدَّمنا لا يحتاج الإنسان في الجنة إلى سرير ينام عليه إذ إن جسمه لا يتعب ولا يحتاج إلى نوم، وهو لا يحتاج إلى كوب يشرب فيه، إذ الجسم لا يشرب، ولا إلى وسادة يتكئ عليها، وكل ما في القرآن الكريم من آيات وردت بهذا المعنى إنما تدلُّك على خصائص الأشياء وحقائقها وما يتوصَّل الإنسان إليه من النعيم بواسطتها.

ونعود الآن إلى قوله تعالى: ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ فنقول:

إن كلمة «**جنَّة**» مأخوذة من جنَّ بمعنى ستر وأخفى. تقول: جنَّ الليل، ومنه المجنّ وهو الترس يستر به المحارب جسمه من ضربة عدوه، ومنه الجنين وهو الطفل ما دام مستوراً في بطن أمه.

وبناء على ما قدَّمناه نقول: إن كلمة «**جنَّة**» إنما تعني النعيم الخفي المستور الذي يجده الإنسان في قرارة نفسه ولا يطَّلع عليه أحد سواه.

فلكل امرئ في الجنة نعيم خاص به «على حسب ما قدَّم في دنياه من أعمال» مستور عن غيره فلا يطَّلع عليه أحد.

والعالية: هي الرفيعة الشأن التي ليس لها نهاية. ﴿ **لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً** ﴾

أي: لا تسمع فيها كلاماً باطلاً. ﴿ **فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** ﴾

والمراد **بالعين** هنا: النفس. فالنفس في الجنة كلها كما ذكرنا عين، وهي دوماً جارية متنقلة في النعيم لا تتوقف لحظة، بل تنتقل من حسن إلى أحسن ومن

جميل إلى أجمل. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾

والسرر: جمع سرير وهو ما يستلقي عليه الإنسان ابتغاء الراحة. وليس المراد بالسرير هنا ذلك السرير المعروف الآن، إنما المراد به الأشياء السارَّة التي تتكئ عليها الأنفس في الوصول إلى النعيم.

والمرفوعة: هي العالية الشأن التي ترفع النفس من حسن إلى أحسن. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾

والكوب: هو الإناء فيه الشراب اللذيذ يشربه الإنسان، والمراد به هنا الأشياء التي تنكب عليها النفس لما فيها من لذة.

وكلمة **موضوعة**: تعني: الاشتهاء الدائم. **فالكوب الموضوع** يعني: أن الإنسان في الجنة متمتع بصحته يستطيع التمتُّع الدائم بما يوضع بين يديه من الأشياء السارَّة. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾

والنمارق: مأخوذة من النَّمِرة، وهي الرداء والشملة المخططة الجميلة، ومن النمير أيضاً وهو الماء الطيب. والمراد **بالنمارق** هنا: الأشياء الحسنة الطيبة المشتهاة.

والمصفوفة تعني: المتتالية واحدة بعد واحدة، فالنفس تمر إليها وتسير متنقلة من واحدة إلى واحدة أحسن. ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

وزرابي: مأخوذة من زَرَبَ، أي: جمع، ومنه زريبة الغنم، ولكن المراد بها هنا الأشياء الجامعة للملذات والسرور.

والمبثوثة: هي المنتشرة. فسرور هذه الأشياء يسري في جميع النفس، وينبثُّ

فيها فلا يفارقها، وبكلمة موجزة نقول:

نعيم الإنسان في الجنة كله حقائق، فالرمَّان الذي يُقدَّم لأهل الجنة يشمله الوصف المذكور في الآيات السابقة كلها: السرور والأكواب والنمارق والزرابي. ففيه **سرر**، أي: سرور، **وأكواب**، أي: تنكب النفس عليه، **ونمارق**، أي: هو طيب حسن تمرُّ إليه النفس، **وزرابي**، أي: جامع للذائذ وتجتمع لذائذه في النفس وتنبث، وغير ذلك كله حقائق تشهد النفس بذاتها، والتمتُّع فيها دائم لا ينقطع فسبحان الكريم المتفضل وما أسعد حال أهل الجنة في الجنة.



التوجيه والتطبيق:

طالما أن الموت لابدّ من أن يطرق باب أي إنسان شاء أم أبى فليفكّر الإنسان ماذا أعدّ لهذا اليوم، وكلام الله جَدٌّ وليس بالهزل فقد بيّن طريق الجنّة وأحوال أهلها وطريق النار وأحوال أهلها، فما عليك إلا أن تقرر أي طريق تسلك.

الأسئلة والتدريبات:

1- لماذا سُمِّيَ يوم البعث والقيامة **بالغاشية**؟.

2- رأينا في الدرس أن الأنفس التي عملت أعمالاً سيّئة في الدنيا تكون أعمالها ناصبةً أمامها لا تغيب عنها فتصبح خاشعة، لماذا تقف خاشعةً منكسرة؟.

3- عَلِمنا بتأويل السورة الكريمة أن الطعام الذي يتناوله أهل النار مؤلم

كريه تعافه الأنفس، لكنهم مع ذلك الألم وتلك الكراهيّة نازلون بنفوسهم إليه ويتناولونه، فلماذا؟. وضِّح ذلك.

4- هل يحتاج الإنسان في الجنّة لسرير ينام عليه وأكواب ليشرب بها أم ماذا؟.

5- ما الفرق بين نعيم النفس في الدنيا ونعيمها في الآخرة وأيّهما أكبر؟.

6- عرّف الجنَّة، واذكر لماذا سمّيت النفس في الآخرة بأنها ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؟.

7- حدّد المعنى المراد في السورة لكلّ من الكلمات التالية:

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

❁ ❁ ❁



الدرس السادس عشر

تتمة تأويل سورة الغاشية (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

أعزائي الطلاب: بعد درس التأويل السابق الذي ذكر لنا تعالى فيه حديث الغاشية وعرَّفنا بما يكون عليه حال أهل الشقاوة وحال أهل الخير والسعادة، أراد تعالى أن يقرِّر ذلك في نفوسنا وأن يثبت هذه الحقائق في قلوبنا، فساق لنا طائفة من الآيات الدالّة على عظمته وبديع خلقه.. فلعلنا إذا نحن فكَّرنا بها ونظرنا فيها نظرة تدقيق وإمعان اهتدينا منها إلى خالقنا فعظَّمناه وقدَّرناه وأذْعنَّا لكلامه فسِرْنا في الطريق التي نصِلُ منها إلى السعادة، وذلك كل ما يريده الله لنا وفي ذلك وحده رضاه ولذلك قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

ونبدأ بآية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فنقول:

الإبل: هي الجمال، والمراد بالنظر إلى الإبل النظر المقْرون بالتفكير والتقدير وبهذا النظر يتميَّز الإنسان عن الحيوان.

فالحيوان ينظر، والإنسان ينظر، لكن نظرة الحيوان لا تعدو ظاهر الشيء، ولا تنفذ إلى معرفة خصائصه ولا تنتقل إلى كيفية خلْقه. فإذا نظر الدب لعنقود العنب نظر إليه نظرة سطحية، فهو لا يفكِّر في كيفية خروجه من جذع أمه الخشبي الصلب ولا في نمائه التدريجي، وهو لا ينظر إلى تلك الكيفية التي تمَّ بها تلقيح أزهاره ولا إلى تحوُّل طعمه من حامض إلى حلو ولا إلى ذلك التلوين الذي يدل على استوائه ونضجه، وهو لا يفكِّر في ترتيب حياته ولا في ذلك الورق الذي يحيط به ليساعد على نضجه ولا في غير ذلك من العوامل التي تعمل كلها على تهيئته وتحضيره، وكل ما في الأمر أنه ينقضُّ على كروم العنب ويفتك بها ولا ينظر إلى العنقود إلا أنه مادة تُؤكل.

ذلك هو الفرق بين نظر الإنسان ونظر الحيوان، ولذلك تجد الحيوان بعدم تفكيره لا يستطيع أن يتوسَّع في معرفة ربه ولا أن يُدرك من جلاله وعظمته ما يدركه الإنسان، ولذا تجده ثابتاً على طور واحد لا يتعدَّاه، وهو لا يخرج عن أنه حيوان.

وإذاً فالنظرة إلى الأشياء تختلف من شخص إلى شخص، وكلما كان الإنسان أكثر تفكيراً كان أكثر تعظيماً لخالقه وتقديراً.

وإذا نظر الإنسان إلى الأشياء نظرة سطحية كنظرة الحيوان الأعجم فهو أشبه

به لا بل يكون أحطَّ منه، قال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1].

وقد جلب الله نظر أولئك المعارضين لرسوله إلى الإبل فلعلَّهم إن فكَّروا قدَّروا وعرفوا.

وبالحقيقة لو نظر الإنسان إلى الجمل لوجد فيه من حكمة الخلْق ودقّة الصنع ما يدلّه على خالقه العظيم وموجده الحكيم.

فالإنسان لا يستطيع أن يحمل متاعه على الجمل وهو واقف لعلوِّ جثة الجمل وقصر الإنسان عنها، ولذلك تجد الجمل يقْعُد على الأرض خلافاً لغيره من حيوانات الحمل. ثم إن الجمل لو لم تكن له تلك الثفينات في صدره وقوائمه لمالَ جسمه ولما توازن على الأرض أثناء قعوده، ولو كان للجمل حوافر كحوافر الخيل بدلاً عن الأخفاف لما استطاع النهوض بحمله الثقيل، ولما تمكَّنت قوائمه من الأرض عند النهوض والقعود.

أما الرقبة الطويلة المنحنية فبها يستطيع النهوض والقعود، وهي له أشبه بذراع القبَّان، ورأسه الثقيل أشبه ببيضة القبَّان يقرِّبه نحو جسمه أو يمدُّه إلى الأمام فيحصل التوازن ويتمّ له النهوض والقعود حسبما يريد.

وإذا نظرتَ إلى أخفاف الجمل الواسعة المستديرة تجلَّت لك حكمة الله في خلقه فهي تساعده على السير في الرمال، وهي خير معين له على حمل جسمه الثقيل، ولو أنها كانت صغيرة كأرجل الخيل لما تمكَّنت قوائمه من حمل جسمه

(1) سورة الأنفال: الآية (22).

ولتعثَّر في سيره فسقط على الأرض.

أما سنامه ففضلاً عن كونه سبباً لتوازن الحمل على ظهره فهو يخزِّن فيه شحماً يساعده على السير في الصحراء كما تساعد بعض الأجواف التي في بطنه على خزن الماء أياماً عديدة، ولذا تجده صبوراً على الجوع والعطش.

على أن هذه النواحي التي تكلَّمنا عنها ليست إلا طرفاً يسيراً من حكمة الخلق في هذا الحيوان. فإذا نظرت فيها نظرة تفكير وتبصُّر استدللت على خالق عظيم ومدبِّر حكيم وإلّه قدير.

ثم لفت تعالى نظرنا إلى آية أخرى فقال: ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾

والسماء: هي ذلك السقف الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات وما تشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم وجاذبيات.

فانظر أيها الإنسان إلى هذه السماء، ما الذي يحملها وأنت ترى أنه لا يمسكها عمد ولا جدار، ثم انظر إلى النجوم اللامعة فيها والتي يفوق حجم كل واحد منها حجم الأرض بآلاف المرات، كيف هي تسبح في هذا الفضاء وليس يربطها ببعضها سلاسل ولا أسلاك. فكِّر في هذه القوى والجاذبيات التي تربط بعض النجوم ببعض فإذا هي متماسكة مترابطة وبين كل نجم ونجم آلاف السنين الضوئية والأعوام.

فكِّر أيها الإنسان في السماء، هل تستطيع أن تقوم بذاتها؟.أليس لها خالق عظيم أوجدها ورفعها. ثم فكِّر في النجوم أليس لها من إلّه نظَّمها أليس لها من ممدٍّ يمدُّها بالنور والقوة والحياة، فإذا هي تسطع لا يطفئها مرور السنين

ولا يضعف من نورها وقوَّتها كرُّ العصور والأجيال.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾

ونصب الشيء: رفعه وأقامه ووضعه وضعاً ثابتاً. فانظر أيها الإنسان إلى الجبال من الذي وضع فيها ما وضع من أتربة ورمال وأحجار. من الذي جمع كتلتها بعضها إلى بعض فإذا هي متماسكة الأجزاء والذرات!.من الذي رفعها عن سطح الأرض فإذا هي عالية ذاهبة في الفضاء!. من الذي أرساها في الأرض ووضعها هذا الوضع الثابت فلا تتحرك ولا تضطرب ولا يؤثِّر عليها سير الأرض ولا دورانها!. أفلا تفكِّر في الجبال وعظَمتها وشموخها وتُعظِّم خالقها الذي أوجدها على هذا الحال ومنحها هذه العظَمة؟!.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

وسَطَحَ الشيء: بسطه. يُقال: سَطَحَ الناقة، أي: أناخها، وسَطَحَ التمر أي: بسطه على الأرض. فمن الذي بسط لك الأرض وجعل لها هذا السطح الممهَّد، من الذي نظَّم هذه الطبقات الترابية بعضها إلى جانب بعض فإذا هي قابلة للفلاحة والزراعة؟!

من الذي خلق لك هذا التراب وجعل فيه ما جعل من مواد، من الذي نظَّم لك ينابيع الماء ووزَّعها بكل قرية وجزيرة وبلدة ومكان فلم ينسَ من فضله أحداً، وجهَّز الأرض بكل ما تحتاج إليه في الحياة. أفليس في الإبل والسماء، أليس في الجبال والأرض آيات دالَّة على خالق عظيم خلقك وتفضَّل عليك!. أفلا تفكِّر في قدرته وعظمته، أفلا تفكِّر وتتذكر شيئاً من فضله

وإحسانه فتصغي إلى قوله وتستمع إلى نصحه؟!.

وبعد أن ذكر تعالى لنا ما ذكر من الآيات الدالّة على خالق الأرض والسموات خاطب رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾

والتذكير: هو أن يرى الإنسان شيئاً أو يسمع قولاً فيتذكر شيئاً آخر كان عرفه من قبل.

فقد ترى الأم شخصاً مشابهاً لولدها الغائب وهنالك تتذكر ولدها. وقد يمر شخص أمام مستشفى كان قد أجرى فيها عملية فتذكِّره رؤيته لهذه المستشفى بالعمليّة التي كان أجراها، أو يَسْمعُ قولَ متحدثٍ يربط نفس الإنسان بمشهد من رؤية كان قد شاهدها أثناء نومه فتكُرُّ سلسلةُ مشاهدةِ الرؤيا التي كان قد طواها النسيان وما كان ليتذكَّرها أبداً، فإذا به قد تسلْسَلت الرؤيا بأكملها بنفسه وانطبعت بذاكرته «والشيء بالشيء يُذكر» ولولا ورود هذه الكلمة المتعلِّقة بجزء من الرؤيا لما تذكرها أبداً.

وهكذا فالله تعالى يأمر رسوله الكريم ﷺ أن يذكِّر الناس، أي: أن يذكِّرهم بما رأوا من المخلوقات كالنظر إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت فلعلَّهم إذا نظروا إليها نظرة مقرونة بالتفكير الدقيق قادهم ذلك إلى الإيمان بالخالق وعظمته وتقدير نعمته وإحسانه. ولكن ماذا يولِّد هذا الإيمان بالخالق؟.

إنه يولِّد الخشية من الله، ويصل بالإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر، يوم الجزاء على الأعمال. وبهذا الإيمان يستسلم الإنسان إلى خالقه، ويُذعن لأوامره،

فيصبح مسلماً حقّاً، وبهذا الإسلام تطمئن النفس بعملها وتثق برضاء الله عنها، فتُقبل على الله في صلاتها، وبهذا الإقبال تتذوق الرحمة والعدل الإلهي، كما تتذوق العظمة الإلهية التي كانت آمنت بها إيماناً فكرياً، وهنالك تتذكَّر ما كان انطبع فيها من قبل.

وهكذا تتنقَّل النفس من تذكُّر إلى تذكُّر أعلى والفضل في ذلك كله يعود إلى ذلك الرسول الكريم ﷺ وما يتذكَّر إلا من يُرجع البصر إلى الأشياء بالتفكير والتدقيق، وما يتذكَّر إلا من يُنيب. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

وسيطر: مأخوذة من سَطَرَ، بمعنى قطع، تقول: سطر بالسيف، أي: قطع به، وسطر فلان فلاناً، أي: صرعه وسيطر عليه، أي تسلَّط وقطعه عما هو فيه. فنفس الإنسان مطلقة والله تعالى منحها حرية الاختيار، فلا يستطيع أحد أن يسيطر عليها، أي: أن يقطعها عما هي فيه، فإذا هي لم تفكِّر من تلقاء ذاتها بآيات الكون، وإذا لم تهتدِ بتفكيرها إلى خالقها العظيم، فلا يمكن أن تخشاه ولا أن تخافه، وليس يستطيع أحد أن يسيطر عليها فيمنعها ويقطعها عما هي متعلِّقة به ومنصرفة إليه.

فائدة: وإذاً فما الأنبياء والمرسلون ولا العلماء والمرشدون بقادرين على هداية أحد ما لم يصغِ هو بذاته ويفكِّر فيما يسمعه من آيات الله، ولو ذكَّروه مئات السنين قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

كل من يشاء الهداية فالله تعالى يهديه، فالذي يصدق ويفكر في الكون باحثاً

(1) سورة القصص: الآية (56).

مدققاً مفكراً ويسعى لآخرته.. هذا يهديه الله تعالى:

﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾.

فإذا فكَّرت أيها الإنسان وشِئتَ الهداية توصَّلت إلى الإيمان واهتديت بنور الله، وإن لم تشأ ذلك لنفسك فليس أحد بقادر على هدايتك.

ثم بيَّن الله لرسوله ما يجب أن يقوم به تجاه أولئك المعرضين، فقال تعالى:

﴿ **إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ** ﴾

وتولَّى: أي: أعرض عن الله، **وكفر**: أي: أنكر نعمة الله تعالى. فالذي تولَّى وكفر لا بدّ وأن يوقعه عماه وإعراضه في المهالك وسيُسبِّب له كفره الوقوع في الأعمال الخبيثة.

والرسول وإن كان لا يستطيع أن يحوِّل نفس المعرض عن غيِّها لكنه مأمور بأن يمنعه من إيذاء غيره، وذلك بأن يضرب على يديه ويقيم الحدَّ عليه.

أقول:

وهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا مشروعية الجهاد وسبب الاسترقاق وفرضه ﷺ الجزية، إلى غير ذلك من الوسائل التي تحدُّ من أذى المعرضين وفسادهم في الأرض، فالأخ الرشيد العاقل له الولاية على أخيه الجاهل، وله أن يُغلظ عليه حبّاً به ونفعاً له وحرصاً على مصالحه، ثم بيَّن تعالى مصير ذلك المعرض بعد موته إذا هو استمرَّ على عناده فقال تعالى: ﴿ **فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ** ﴾ أي: أنه سيلقى بعد دنياه هذه عذاب الآخرة ذلك العذاب الأكبر الذي لا نهاية لشدته. ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ** ﴾

والإياب: هو العودة. تقول: آب من السفر، أي: رجع. فالله تعالى وهب الإنسان الاختيار وأرسله إلى الدنيا يختار ما يريد فإذا هو مات عاد إلى ربه فأخذ منه ذلك الاختيار وساقه إلى ما يناسب حاله النفسي إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾

والحساب: هو إعطاء الحق وتوفية الجزاء والأجر على العمل. فالله تعالى يعطي يوم القيامة كل إنسان حقّه ولا يظلم مثقال ذرة. فاعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

النشاط الذاتي:

حتّى لا أكون ممن ينظر إلى الأشياء ولايرى في الحقيقة شيئاً، عَلَيَّ أن أفكر جيداً بما يقع نظري عليه، فقبل تناول الفاكهة أو الطعام أُسمي بالله تعالى وأفكّر في خصائص هذه المأكولات التي خلقها الله تعالى لي لأستفيد منها وأتلذّذ بها، وإذا نظرت إلى السماء أو الجبال أو البحار أو الأشجار أو البراري عَلَيَّ أن أتأمّل فيها جيداً وأستعظم خالقها وموجدها وقدرته وقوته وسعته ولطفه ورحمته. عَلَيَّ ألا أمرُّ على آيات الله في هذا الكون بفكرٍ خامل ونظرٍ جامد بل أعتبر بكل ما أمر عليه وأتوصل من خلاله إلى بارئه وموجده ومسيّره.



(1) سورة الزلزلة: الآية (7-8).

التوجيه والتطبيق:

انظر إلى حيوانٍ غير الإبل موجود في محيطك، ودقِّق فيه وبالكيفيّة التي خلقه الله عليها، وكمال خَلْقِه، وما أودعه تعالى فيه من صفات وخصائص مناسبة له ولأداء وظيفته في هذه الحياة، وانظر كَمْ هو هذا الخالق العظيم سبحانه وتعالى حكيم خبير عليم.



الأسئلة والتدريبات:

1- ما الفرق بين نظر الإنسان ونظر الحيوان؟ ولماذا يحثُّ الله تعالى الإنسان أن ينظر لما حوله من الكون؟.

2- اشرح قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

3- لماذا وصف تعالى عذاب الآخرة بالعذاب الأكبر؟.

4- كيف يصل الإنسان للإيمان بيوم الحساب؟.



سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

الدرس السابع عشر

تأويل سورة الأعلى (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾

طلابنا الأعزاء: يريد الله تعالى في هذه السورة الكريمة أن يبيِّن للإنسان أنه إذا لم تحصل له الخشية من الله تعالى فلا يتذكَّر ولا تنفعه الذكرى، ثم لا يُفلح ولا ينال ما أعدَّ الله له من الخير، بل تراه يؤثر الحياة الدنيا غير مُبالٍ بما سيحلُّ به بعدها.

ولذلك ومن رأفة هذا الإلّه الرحيم بنا، العطوف علينا ساق لنا في مطلع هذه السورة بعض الآيات التي تولِّد في نفوسنا الخشية فلعلَّنا إذا نحن فكَّرنا بها خشينا ربنا فتذكَّرنا وأفلحنا ولذلك قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾

ونبدأ بآية: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فنقول:

سبِّح: مأخوذة من سَبَحَ بمعنى عام وانبسط وجرى جرياً شديداً، تقول: تسبح النجوم في الفضاء، وتسبح الأسماك في الماء، وسبحت الفرس في الفلاة. وكما يكون السبح جسدياً يكون نفسياً معنوياً. فالإنسان إذا رأى

الشمس هذه الكرة الملتهبة ثم عرف أنها لم تزل مشتعلة متوهِّجة منذ آلاف السنين، فهنالك تستعظم نفسه الشمس وتسبح في عظمتها مفكِّرة مُتعجِّبة.

وإذا عرف أن النجوم اللامعة في الفضاء بين كل نجم ونجم منها ملايين السنين، وأنها على كبر حجمها وبعدها العظيم عن بعضها متجاذبة متماسكة، فإنه أيضاً يسْبح في هذه العظمة ويستغرق في التفكير بتلك القوة.

وإذا عرف أن النجم الذي يشغل من السماء نقطة صغيرة لو أمكن واستطاع إنسان أن يمشي عليه لما كفاه خمسة ملايين سنة من الزمن، فهنالك يسبح في عظمة هذه السماء التي لا تستطيع النفس أن تدرك لها نهاية أو حدّاً وهكذا...

فالسبح النفسي يكون عن طريق التأمُّل الدقيق في الأشياء، والله تعالى في هذه الآية إنما يأمر رسوله الكريم ﷺ أن يسبِّح الناس باسم ربه، أي يعرِّفهم بعظمة هذا الخالق وكبير شأنه لتسبح نفوسهم في تلك العظمة التي لا تتناهى، وتستغرق في تلك القدرة التي لا يستطيع الإنسان أن يحيط بها علماً أبداً.

وأما كلمة (**اسم**): فإنما تشير إلى أسمائه تعالى من: عظمة وقدرة ورحمة ورأفة وحكمة وعلم وغير ذلك من الأسماء الحسنى.

وكلمة (**ربك**): تعني مربِّيك أي: ممدُّك بالحياة والوجود والقوة.

والأعلى: أي العالي الذي مهما أدركت من عظمته فهو أعظم وأعظم، ومهما أدركت من رحمته فهو أرحم وأرحم، ومهما عرفت من قوَّته فهو أقوى وأقوى، وهو في كل ما تدركه من أسمائه تعالى أكبر وأكبر، وأعلى وأعلى، ولا نهاية لكماله تعالى.

ويكون مجمل ما نفهمه من آية: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: عرِّف عبادي بما

عرفته أنت من كمالات ربك تعالى ليُقبلوا على ذلك المربي العالي فتسبح نفوسهم في كمالاته التي لا تتناهى.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا الطريق إلى معرفة كماله فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

فإذا أنت أيها الإنسان عرفت كمال الخلق انتقلت منه إلى معرفة كمال الخالق، وكلما ازداد تفكيرك واستعظامك للمخلوقات ازداد على هذه النسبة استعظامك للخالق وتقديرك لجلاله وكماله. فالمخلوقات تهدي إلى الخالق، والكون يعرِّف بالمكوِّن.

وخلق: بمعنى أخرج إلى الوجود. **وسوَّى**: أي: جعل الشيء مستوياً لا نقص ولا خلل فيه.

وهكذا فكل ما في الكون جاء كاملاً تامّاً خالياً من النقص، وإنك إذا ذهبت تفكِّر في الكون: أرضه وسمائه، شمسه وقمره، جباله وأنهاره، بحاره وبحيراته حيوانه ونباته، وحوشه وحشراته رأيت كل ما فيه كاملاً، ومهما أرجعت البصر ودقَّقت لِتَجِدَ نقصاً، انقلب إليك البصر خاسئاً حسيراً.

ونقرِّب المعنى بمثال فنقول:

لو أن دوران الأرض حول نفسها كان سريعاً جداً بصورة يتجدد معها الليل ساعة بعد ساعة لما كفتنا ساعة نوم كما لم تكفنا ساعة العمل. ولو كان دورانها بطيئاً بصورة يستمر معها الليل خمسة أيام ثم يأتينا من بعده النهار فيدوم خمسة أيام أيضاً، لو كان ذلك لمللنا النوم والراحة في ليلنا كما مللنا العمل

وأدركنا التعب في نهارنا. وإذاً فدوران الأرض جاء منظَّماً والذي خلق الليل والنهار هو الذي سوّى ذلك النظام فجاء كاملاً مناسباً.

وإذا أراد الإنسان أن يسرح فكره في الأشياء كلها وجد كل شيء من حيوان ونبات أُعطيَ مناسباته، وإن هو فكَّر في نفسه وجد كل عضو في موضعه وبقدره المناسب، فلو زاد إبهام اليد في الطول عما هو عليه لما أمكنتك الأعمال، ولو قصُر عن وضعه الحالي للاقيت في أعمالك صعوبات، ولو لم تكن لك هذه الأصابع والسلاميات لما قمت بما تقوم به من أعمال.

وهكذا كل شيء جاء كاملاً، والذي خلق وأوجد الأشياء هو الذي سوّاها فجاءت كاملة دالة على كماله تعالى. ففكِّر في الأشياء دوماً تُهدَ إلى خالقك وتتعرَّف إلى كمالات ربك. ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

وقدَّرَ: أي: جعل لكل شيء قدراً مناسباً. تقول: قدَّر التاجر ثمن البضاعة، وقدَّر الرجل ما يلزمه من القمح للمؤونة.

والتقدير كما نرى لا يكون إلا من ذي خبرة ودراية، فالله تعالى الذي خلق المخلوقات المختلفة الأنواع قدَّر لكل نوع رزقه المناسب له وجعله بالقدْر الذي يحتاجه، وبالحقيقة ما من أمطار تهطل ولا نبات ينبت ولا رزق يخرج إلاّ بقدر معلوم، قال تعالى: **﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾**[1].

ثم إن الله تعالى خلق المخلوقات وخلق لها أرزاقها المناسبة وعرَّف كل مخلوق

(1) سورة الحجر: الآية (21).

برزقه وهداه إليه.

فالنحلة بمجرد ما تخرج من الخلية تجدها تسرع إلى الأزهار فتمتص ما هو مودع فيها من الرحيق، ونقف الدجاج[1] لا يلبث أن يخرج من البيضة حتى يفتِّش في التراب باحثاً عن غذائه فيه، والمهر منذ خروجه من بطن أمه تراه يقفز إلى ثدييها فيمتص اللبن منها، وقد كان من قبل مغيَّباً عنه ولم يطَّلع عليه. فمن الذي هدى النحلة والنقف؟.أم من هدى المهر، لا بل من الذي علَّم الطفل الصغير الرضاع من ثدي أمه وامتصاص اللبن المودع فيه؟.

ذلك هو الله تعالى الذي قدَّر لكل مخلوق رزقه المناسب له ثم أوجده ودلَّه عليه وهداه إليه. ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾

المرعى: هو كل ما يرعاه الحيوان ويتغذى به من الكلأ والنبات. فالله تعالى الذي قدَّر لك رزقك، والذي خلق الحيوان ليخدمك ويؤمِّن لك ما تحتاجه من غذائك تكفَّل الله لك أيضاً برزق هذا الحيوان عناية منه تعالى بك وتماماً لفضله عليك.

على أن هذه الآية إلى جانب ما تُذكِّرنا به من فضل الله علينا تُلفت نظرنا أيضاً إلى ذلك النظام الذي بموجبه يُخرِجُ الله تعالى المرعى.

فانظر أيها الإنسان إلى الرياح في عصفها وهبوبها، وإلى السحب في سيرها وتلبُّدها، وإلى الأمطار في هطولها، ثم انظر إلى الشمس في أشعتها وحرارتها، كل هذه العوامل إلى غيرها من العوامل الأخرى تكون سبباً في إحياء

(1) نقف الدجاج: الصوص.

الأرض بعد موتها وخروج المرعى منها، وذلك بعض ما نفهمه من آيتنا السابقة. ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾

والغثاء: هو الجاف اليابس الذي ذهبت خضرته ونضارته. **والأحوى**: هو الحاوي للمواد اللازمة للتغذية.

فهذا المرعى الذي ينبته الله تعالى للحيوان إذا تمّ نضجه واجتذب المواد اللازمة واحتواها تراه يجفّ وييبس وفي ذلك ما يجعل الحيوان يستفيد منه أيام الصيف ويتغذى به. ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾

واقرأ: مأخوذة من قرأ، وقرأ بمعنى: ألقى النظر في الكتاب وطالعه. وأقرأه: جعله يرى ويشاهد ما في الشيء أو الكتاب من الحقائق.

والمراد بكلمة (**سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى**): أي: إنك أيها الإنسان إذا نظرت في هذا الكون نظرات المستبصر المتفكِّر وقدَّرت خالقك فهنالك تُقبل نفسك عليه مستعظمة، وبهذا الاستعظام والإقبال يُقرئك ربُّك أي يُشهدك بنوره تلك الآيات الدالّة على عظمته تعالى فترى حقائقها ولا تعود تنساها. ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾

فأنت لا تنسى ما رأيته ويظل ظاهراً لنفسك ما دامت مقبلة على ربها، فإن أنت انقطعت عنه تعالى عميت نفسك ولم تعد ترى شيئاً، فأنت مفتقر إلى ربك دوماً فلا تنقطعنَّ عنه أبداً.

والمراد بكلمة: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾: أي: أنه تعالى مطَّلع على علانيتك وسرّك فاجعل سرّك مطابقاً لعلانيتك فإن كنت صادقاً في طلبك أشهدك ربك ما تريد

معرفته. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾

وَنُيَسِّرُكَ: مأخوذة من يسَّر. تقول: يسَّر الطريق لفلان أي: سهَّله له ووفَّقه له. **واليسرى**: مؤنث الأيسر. والمراد به الأسهل والأهون الذي فيه اليسر.

ويكون مجمل ما نفهمه من هذه الآية:

أي أنك بإقبالك على ربك ترى الأعمال الطيبة التي تعود عليك باليسر والخير فتسعى إليها وتطلبها فيوفِّقك الله إليها ويهوِّن عليك فعلها.

قصة وعبرة...

تماماً كما كان يجري مع العلَّامة الإنساني محمد أمين شيخو إذ كان الله تعالى يُيسر للعلامة مطلبه قبل أن يطلبه لما في قلبه من الرحمة والحنان على الخلق، ففي إحدى هذه المرات بعد أن تقاعد العلَّامة من وظيفته كضابط أمن كبير يرعى الحقوق وينصر المظلوم ويقيم دعائم الحق ويبطش بالإجرام والمجرمين، تفرغ للتدريس وتلاوة الآيات على المريدين وتعليمهم الكتاب والحكمة وطريق الهداية والرشاد، فاشترى منزلاً كبيراً لأجل هذه القضية المهمة، وكان في المنزل باحة كبيرة تتسع لمعظم المريدين ولكنها لم تكن مبلطة بل ما زالت على وضعها الطبيعي كلها تراب، وفي غضون أشهر تحلَّق حول العلَّامة أكثر من ثلاثمئة شاب ينهلون من علومه القدسية، وكانوا يحضرون جميعاً في وقت واحد أيام الجُمع، عدا عن الأعداد القليلة المترددة على مدار الأسبوع، وبرزت المشكلة في بداية فصل الشتاء، إذ معظم الطلاب يجتمعون لأخذ الدروس بهذه الباحة الترابية، وما أن بدأ المطر بالتساقط، حتى غدت

تلك الباحة كلها وحلاً. ولا تصلح لجلوس المريدين فيها، كما أن الغرف الداخلية للمنزل لا تتسع لهذه الأعداد، وكان العلّامة حينها يمرّ بضائقة مالية، وما بحوزته من المال لا يكفي إلا للطعام والشراب، عدا عن أن يده مبسوطة دائماً بالخير والإحسان للفقراء المستحقين.

لقد شعر لحظة هطول الأمطار بالعبء وعليه أن ينجز هذا العمل بسرعة إذ لو أن الأمر يخصّه هو وأسرته لكان الأمر محلولاً، ولكنه يخصّ المريدين الذين اعتادوا على تلك الدروس المباركة والتي تجعلهم في الجنة لِـمَا يشعرون بالقرب الإلهي بمعيّة هذا الإنسان الكريم. ومعظم هؤلاء المريدين شباب في أول أعمارهم، ولا يملكون مالاً لسد نفقات تبليط تلك الباحة الكبيرة وتجهيزها لإلقاء الدروس فيها، في تلك اللحظات العصيبة التي كان يمرّ بها المرشد الكبير، وهو يفكر بضرورة تبليط تلك الباحة وإكسائها طُرق باب بيته..

سار نحو الباب بخطىً موزونة وفتحه... كان الوقت لا يزال باكراً.. يا لها من مفاجأة.. إنها امرأة عجوز من ريف دمشق!..

لكنها تبدو قوية وذات همّة، يعرفها تماماً إنها المرأة المشهورة بالتجارة وحبها الجم للمال ليس في منطقتها التي كان يشغل منصب مدير ناحية فيها فحسب، بل في الشام ككل.

امرأةٌ وحيدة تعيش بمنزلها بمفردها، تُعرَفُ بغناها الفائق، وكذا نفوذها، إنها بنك متحرك، وهي الآن تقف أمام باب داره تحمل بيدها كيساً ثقيلاً، قالت بصوت متقطع: صباح الخير سيدي أبو فتحي...

أجاب: صباح الخير.

كانت تعرفه حقَّ المعرفة، تعرف صدقه وأمانته وشهدت من باهر أعماله الإنسانية ما جعلها تثق به كلّ الثقة فهو اسم على مُسمَّى (أمين).

تابعت كلامها: هل تسمح لي بالدخول؟.

قال: أهلاً وسهلاً.. تفضلي.

دخلت مثقلةً بحملها.. ولما أصبحت داخل البيت أنزلت الكيس من يديها على الأرض، وقد بدا العرق متصبّباً منها.

قالت وأنفاسها تتلاحق متسارعة والعلَّامة يستمع إلى طلبها:

يا سيدي.. ليلة البارحة لم أستطع النوم، وبكل لحظة أتوقع أنهم سيهبطون عليّ، وأظن أنهم سيقفزون من فوق جدران الدار وينزلون من كل جهة من الجهات الأربع.. إنهم اللصوص يا سيدي، لقد أدركت أنني لا بد مسروقة، وسأفقد في تلك الليلة الكثير من جنى العمر.. آه..آه.. يا لها من ليلةٍ قاسية، لم أصدِّق متى ينكشف الظلام حتى آتيك ملتجئةً وأحمي نفسي ومالي من النهب والسلب، فإن مرَّت الليلة الماضية على خير..فمن يدري ماذا سيحصل معي في الليالي التالية.. حتماً لن تمر الليلة القادمة أو ما يليها على خير، لذلك بحثت على من أثق به وبأمانته فلم أجد سواك يا صادق يا أمين.. لقد شاهدت أمانتك وسمّو أخلاقك الكريمة لما كنت عندنا مدير ناحية، ورأيت سيرك المستقيم فلم يطمئنّ قلبي إلا إليك، وها أنذا جئتك بهذا الذهب لتحفظه لي عندك بأمانتك، ولك حقّ التصرف الكامل فيما تشاء بما

تحتاج منه، خذ حاجتك من هذه الأموال بشـرطٍ واحد، وهو أني في الوقت الذي أطلب فيه هذه الأموال منك فيجب أن أجدها كاملة لا تنقص ليرة ذهبية واحدة، فإن ناسبك هذا الشـرط فخذ منها ما تحتاج ولكن يجب أن أجدهم كما هم حين أطلبهم، خذها.. خذها.. وضعها عندك، وأنا ذاهبة الآن ومتى جئتك لآخذها سأجدها كما وضعتها الآن.. كاملة.

تناولها العلَّامة محمد أمين قائلاً: كما تريدين.. ولكن ألا تريدين ورقة بهذه الأموال (عقد أمانة) تثبت بأنك وَضعْتِها بأمانتي لحين الطلب.

قالت: لا.. لا أريد منك شيئاً، فأنت من مثلك؟.. أنت تؤتمن على الروح.

لكنه رفض الاحتفاظ بالأموال حتى سلَّمها وصلَ أمانةٍ بكامل الذهب بخط يده الشـريفة وتوقيعه تماماً كما أمر الله تعالى بالقرآن الكريم.

غادرت تلك العجوز المنزل مطمئنة النفس تخطو بخطوات مثقلة (فلقد أثقلها سهر الليلة الماضية إذ إنها لم تنم بعد، خوفاً من اللصوص).

إذن لقد بعثها الله تعالى بالوقت المناسب، فقبل أن يتضـرع العلَّامة طالباً المعونة من ربِّه آتاه الله بالفرج لنواياه الإنسانية العالية، وجعل تحت تصـرفه أضعاف أضعاف ما كان يريد ويحتاج، إذ قرر أن يستعين بمبلغ من أموال تلك العجوز حيث أنها سمحت له بذلك.

وفعلاً تمّ إنجاز العمل وانحلت المشكلة، وحمد الله تعالى على ما أجراه وأسداه، وانشـرح صدره الشـريف فسوف تستمر دروس الدعوة إلى الله بكلّ يسرٍ وسلام.

وما هي إلا أيام قلائل حتى بيع حانوت من وراثة والده المرحوم، فحمل من المبلغ الذي وصله بمقدار ما استدان من أموال العجوز وأعاده إلى صرتها الذهبية.

وفي مساء ذلك اليوم نام مطمئناً مرتاح البال حامداً الله تعالى على ما أولاه وهيّأ له من الخير.. حيث أنه أنجز ما أنجزه وأعاد الأموال لكيس الذهب ولـمّا تأتي تلك المرأة بعد، انقضت هذه الليلة وأذن أذان الفجر، وما أن أنهى العلّامة صلاة الفجر وجلس يذكر الله تعالى، حتى سمع صدى صوتٍ بعيد كان قد دوَّى بكل المنطقة (اشْتَقْتُ لهم.. اشْتَقْتُ لهم.. اشْتَقْتُ لهم..) يا للعجب فما هذا الصوت بعد طلوع الفجر من الصباح الباكر.. ترى من يصرخ هذه الأصوات بالمنطقة وبهذه القوَّة؟. اللهم اجعله خيراً.

كانت المنطقة التي يسكن بها العلّامة بمدينة دمشق مشهورةً بهدوئها، فالهدوء والسكون دائماً فيها وتُسمّى (منطقة المهاجرين) إذاً ما هذه الأصوات العجيبة؟. ما هي إلا لحظات حتى ضُرب باب منزله بضربات قوية، وانطلق الصوت ثانية (اشْتَقْتُ لهم.. اشْتَقْتُ لهم..) فنهض وأسرع باتجاه الباب وكأنه عَرَف من يطرقه.. ويصيح هذا الصياح في هذه المنطقة الهادئة، فتح الباب فوجدها المرأة العجوز البدوية، فقالت له على الفور بلهجتها البدوية:

أموالي.. كيس ذهبي.. ذهباتي.. اشْتَقْتُ لهم...

فقال لها العلّامة: لك ما تريدين.. الذهب كامل ولا ينقص شيئاً.

أجابته: الآن.. اطمأننت.

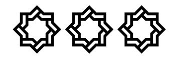
هنالك دخلت معه فأعطاها كيس الذهب، وشربت فنجاناً من القهوة ثم غادرت مسرورة.

إذاً لم يرسلها الله تعالى إلا لحظة الضيق والعسر حتى يُفرِّج عن حبيبه، فقد ضيَّق الله عليها وبث فيها الرعب من اللصوص والمجرمين خوفاً على ذهبها فجاءت بالفرج غصباً عنها، ولم يرسلها تعالى ثانية إلا بعد أن اكتملت أموالها في نفس الليلة.

فما أعظم شأن العلَّامة محمد أمين عند الله وكم له من الكرامة الكبيرة عنده تعالى، وما أعظم نواياه العالية حتى دبَّر الله تعالى أمره فوراً وهكذا دائماً، فالله تعالى يفرِّج عنك ويمدّك طالما أنت مؤمن وسائر بأمره تبارك وتعالى.. وهذا ما أرادت الآية الكريمة التي نحن بصددها أن تبينه للإنسان. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

النشاط الذاتي:

بعد أن فهمت المعاني القدسية للآيات الواردة في هذه السورة فقد أحببت الله على فضله وكرمه.. عطفه ورحمته.. عظمته وقدرته.. وبعد أن قرأت قصة العلَّامة محمد أمين شيخو قدّس الله سره وكيف فرَّج الله تعالى عنه وحقق مطلبه ويسَّره لليسرى.. أحببت أن أطبّق كل ما أتى به من دلالة وما جاء به من الهدى في تأويل آيات القرآن الكريم والأعمال الإنسانية الكبرى لأن في تطبيقها سعادتي وقربي من الله تعالى.



الأسئلة والتدريبات:

1- قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

ما هو معنى كلمة: ﴿سَبِّحِ﴾ ومن هو الذي يُسبِّح نفوس العباد؟.

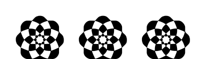
2- إلى ماذا تُشير آية: ﴿..ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؟.

3- ما هو معنى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾؟.

4- ما هو سبب قدوم تلك المرأة العجوز في صباح ذلك اليوم الذي أراد فيه العلّامة الجليل محمد أمين أن (يبلّط) الباحة ويكسوها في منزله؟.

5- لماذا وثقت تلك العجوز بالعلّامة وأرادت أن تخبّئ أموالها عنده؟.

6- ماذا تستنتج من قصة تلك المرأة العجوز وحكمة قدومها ملتجئة للعلّامة الإنساني محمد أمين شيخو قدّس الله سره؟.





الدرس الثامن عشر

تتمة تأويل سورة الأعلى (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

أعزائي الطلاب: بعد أن بيَّن لنا تعالى ما ينتجه النظر في الكون من الإقبال على الله والمعرفة وطلب النفس من بعد ذلك لصالح الأعمال وأن الله تعالى يُيسر للإنسان كل أنواع اليسر والخير، ويوفقه للأعمال العالية ويجعلها على يديه، خاطب تعالى رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾

﴿ فَذَكِّرْ ﴾: أي ذكِّر عبادي بفضلي ونِعَمي، وذكِّرهم بعظمتي. والمراد بكلمة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي: إن نفعت أم لم تنفع لا تنقطع عن تذكيرهم، وقد أراد تعالى أن يبيِّن للإنسان الطريق التي إذا هو سلكها نفعته الذكرى فقال تعالى:

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾

أي: أن الخشية هي الطريق الوحيد للانتفاع بتذكير الرسول ﷺ، وهذه

الخشية لا تكون إلا بالنظر والتفكير.

فإذا نظر الإنسان في الكون وفكَّر في تلك الآيات الدالّة على الله، فهنالك تستعظم نفسه ذلك الخالق وتُقدِّره، وبهذا تحصل لها الخشية فتذعن لأمر الله وتستسلم إليه. فهداية الإنسان كما نرى متوقفة عليه، فإن هو نظر في الكون مفكِّراً، وتأمَّل متدبِّراً، توصَّل إلى التعظيم والخشية، وهنالك تنفعه الذكرى.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾

والأشقى: هو الذي أشقى نفسه، أي: لوَّثها وأتعبها بالشهوات الخبيثة.

فالذي لا يفكِّر ولا ينظر بل يظل مندفعاً وراء شهواته تجده معذَّب النفس، وهو دوماً في ضنك وشدة، لا يجد معنى للراحة ولا يذوق طعماً للسعادة، وذلك هو المراد بالأشقى.

فالتذكُّر متوقِّف على التفكُّر، وما دام الإنسان تابعاً لشهوته لا يفكِّر فليس يمكن أن يتذكَّر أو يهتدي. فإذا أردت الهداية والرجوع إلى الله فاكفف عن شهواتك المحرَّمة وآثامك، ثم انظر في آيات الكون فهنالك تخشى ربك وترى قبح الفسق والعصيان، فتتركه وتنفع فيك الذكرى.

ثم بيَّن تعالى عاقبة الأشقى فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾

والنار الكبرى: هي النار الكبيرة في شدَّتها وألم حريقها، الكبيرة في دوامها واستمرارها. **ويصلى**: أي: يحترق بها.

فهذا الأشقى الذي لوَّث نفسه بدرن المعاصي، وعصى ربه الذي تفضَّل عليه، إذا هو مات تبدَّى له خجله من ربه على عصيانه وحسرته على تفريطه

في دنياه وعدم اكتسابها في فعل الخير، وحزنه على إيذائه الناس وهم جميعاً إخوانه وبنو جنسه، وتشتد عليه الحسرة والحزن والخجل، فلا يجد مُسلّياً له عن آلامه تلك إلا الدخول في النار ليكون له من حريقها لجسمه سلوة عن آلام نفسه فهو يشتغل بألمه الجسدي عن ألمه النفسي. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فإساءته راجعة عليه وما ظلمه الله ولكنه هو الظالم لنفسه.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾

والموت: هو الانقطاع عن الحسِّ. **والحياة**: هي الشعور باللذائذ وتذوُّق طعم السعادة. فليس هذا المعذَّب بميت فينقطع عنه الشعور بالألم، وليس له في النار ذوق ولذة بشيء من الأشياء، بل كل ما فيها من طعام وشراب وظل وفراش كل ذلك مؤلم لاذع لنفسه. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾

وأَفْلَحَ: مأخوذة من فلح. تقول: فلح الأرض، أي: شقَّها وهيَّأها للزراعة. **وأَفْلَحَ** أي: هيأ نفسه وجعلها قابلة مستعدة لفعل الخير.

وتَزَكَّى: مأخوذة من زكا بمعنى طاب. تقول: زكت الأرض، أي: طابت وصلحت. ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: أن الذي سعى في إصلاح نفسه حتى طابت وطهُرت وخلُصت من الشر، هذا الرجل أفلح أي: صارت نفسه قابلة مستعدة لفعل الخير طالبة القيام بالعمل الصالح راغبة في بذل المعروف. فالإنسان لا يفلح أي لا تستعد نفسه ولا تطلب فعل الخير إلا إذا تزكَّت وطهُرت وخلت من الشهوات الخبيثة.

ثم بيَّن تعالى طريق التزكية فقال تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾

أي: ذكر فضل المربي وإحسانه، وذكر عطفه وحنانه، وذكر قدرته وعظمته، وهنالك أقبلت نفسه مستعظمة، وبهذا الإقبال حصلت له الصلة بخالقه وبهذه الصلة طهرت نفسه.

فإذا أردت أن تُفلح، أي: أن تصبح نفسك مستعدة للعمل الصالح راغبة في الخيرات، فعليك بتزكيتها. فهذه التزكية لا تحصل إلا بالصلاة، والصلاة تكون بعد الخشية، والخشية تحصل بذكر الله وذكر عظمته وقدرته وفضله وحنانه وعالي أسمائه. ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا** ﴾

وآثر: بمعنى فضَّل، أي: إنكم إذا لم تسلكوا هذا السبيل، ولم تسعوا في طهارة نفوسكم وتزكيتها، فلا بد أنكم تفضِّلون الشهوات الدنيئة والحياة المنحطة على فعل الخيرات وما فيه الفلاح. ﴿ **وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾

أي: إن الدار الآخرة خير من نعيمها، فليس يُقاس نعيم الدنيا بنعيم الآخرة، كما هي خير في دوامها واستمرارها، إذ إنَّ نعيم الدنيا مؤقَّت سريع الزوال، ونعيم الآخرة دائمي ليس له انتهاء.

ثم بيَّن تعالى أن البيان الذي أرسله للبشر جميعاً واحد لا يتغير، وليس للإنسان من طريق تزكو به نفسه سوى الإقبال على ربه، فمتى أقبل وصلَّى طهر وتزكَّى، ومتى أعرض وتولَّى خَبُثَ وتدنَّى، وكل ما جاء من الدلالة في هذه السورة أنزله تعالى في الصحف السابقة المنزَّلة على سيدنا إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾

التوجيه والتطبيق:

1- أن يحافظ الإنسان على خلواته مع ربِّه صباحاً ومساءً.

2- الابتعاد عن أماكن اللهو والترف، وهجر أصدقاء السوء.

3- على الإنسان أن يحاسب نفسه يومياً قبل النوم ويراجع ما صدر منه من أعمال إن كانت خيراً فيعاهد على زيادتها والاستمرار بها وإن كانت سيئة أو خاطئة يبادر بالتوبة ويعاهد ربَّه على أن لا يقترفها ثانية... هكذا علمنا رسول الله ﷺ.

4- طبِّق ذلك وما ورد بتأويل سور جزء عمّ.. وبعدها راقب كيف ترقى نفسك رويداً رويداً في صلاتك وبحسب صدقها ينغمر قلبك بالنعيم وتحظى بمحبة الله تعالى ورسوله الكريم.



الأسئلة والتدريبات:

1- لماذا يريد الإنسان المؤمن أعمال الخير رغم ما فيها من تعب وعناء، ولماذا يطلبها من الله تعالى باستمرار؟.

2- ما صفة الإنسان الذي يستفيد من تذكير الرسول ﷺ؟.

3- ما الحجاب الذي يسدُّ على الإنسان طريق الهداية والرجوع إلى الله تعالى؟.

4- من هو الأشقى؟ ولماذا وصف الله تعالى النار التي يصلاها هذا الأشقى بالكبرى؟.

5- لماذا يلجأ العاصي الذي لوَّث نفسه بدرن المعاصي في الدنيا إلى النار في الآخرة؟.

6- متى يُؤثر الإنسان الحياة الدنيا على الحياة الآخرة؟.

7- اشرح قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾.





سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾

الدرس التاسع عشر

تأويل سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

أعزائي الطلاب: يريد الله تعالى في مطلع هذه السورة الكريمة أن يلفت نظرنا إلى السماء وما ينبعث عنها من الخيرات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ **والسماء**: هي كل ما نشاهده فوقنا كقبَّة زرقاء محيطة بالأرض من جميع الجهات. والواو المذكورة في كلمة (وَالسَّمَاءِ): إنما تلفت نظرنا وتطلب منا التفكير في السماء لنتعرَّف إلى شأنها من حيث سِعتها التي لا تتناهى، ومن حيث كونها سبباً في نظام وانتظام سير الشمس والقمر فيها، وانتظام الكواكب وارتباطها ببعضها، ومن حيث سير الغيوم وتكاثفها ونزول الأمطار منها، وهكذا فالسماء أشبه بقشرة البيضة تحفظ ما فيها وتكون سبباً في قيامها، فلولا السماء لتناثرت النجوم هنا

وهناك، ولما ترابطت ببعضها بعضاً، ولولا السماء لما حافظت الشمس على موضعها في الفضاء، ولما تمتَّعت الأرض بنورها وحرارتها، ولولا السماء لما دار القمر دورته، ولاضطربت الأرض في جريها فما تشكَّل ليل ولا نهار ولما حدثت الفصول الأربعة، فلا ربيع ولا صيف ولا خريف ولا شتاء، ولولا السماء لما تشكَّلت أو هطلت الثلوج والأمطار، وهكذا فبالسماء قيام هذه المخلوقات على هذا الوجه الكامل وانتظام الحياة، وبها تأمَّن لك ما تحتاجه وأمكن وجودك على هذه الأرض وأمكنت الحياة.

وهذا بعض ما نستطيع أن نفهمه من كلمة: (**السَّمَاءِ**).. وإن القلم ليعجز عن كتابة ما في السماء من آيات، ففكِّر أيها الإنسان فيها، وراجع التفكير مرة بعد مرة، فلعلك تُقدِّر خالقها وتستعظم مُمدَّها ومُربِّيها. أما كلمة ﴿**وَٱلطَّارِقِ**﴾.. فإنما تلفت نظرنا إلى الخيرات المنبعثة عن هذه السماء المتواردة على الإنسان، فكلمة ﴿**وَٱلطَّارِقِ**﴾.. مأخوذة من طرقَ، بمعنى: أصاب وأتى. ونقول: فلان طرق الباب، وطرق الحداد الحديد أي: هوى عليه بالمطرقة، وطرقت السيارة فلاناً أي: صدمته وأصابته، ومنه الطارق: أي الآتي ليلاً. ونفهم من كلمة ﴿**وَٱلطَّارِقِ**﴾: هنا أي: الخير الآتي المتوارد الذي يصيب الناس، ويكون مجمل ما نفهمه من آية: ﴿**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ**﴾ أي: انظروا عبادي في السماء وما يأتيكم عنها وبسبب وجودها من الخير المتواصل. ثم إن الله تعالى أراد أن يلفت نظرنا إلى سعة ذلك الخير المتوارد فقال تعالى: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ**﴾

وتفيد كلمة ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ**﴾ تعظيم الشيء وبيان شأنه العالي. ويكون ما نفهمه

منها أي: إنك أيها الإنسان لا تدري نهاية لهذا الخير المنبعث عن السماء ولا تستطيع أن تحصي أو تجد حدّاً لهذا الفضل الإلَهي المتوارد عليك بواسطتها، ولكن ما هو هذا الخير، لقد عرَّفنا تعالى به بقوله: ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾

والنجم: مأخوذة من نَجَمَ بمعنى: ظهر وخرج. يُقال: نَجَمَ النبات، ونَجَمَ عن هذه الحادثة كذا وكذا، أي: ظهر ونتج، ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿ ٱلنَّجۡمُ ﴾ هنا ما يظهر ويخرج، وبناءً على هذا: الهواء في خروجه نجم، والبرد نجم، والحرُّ نجم. والغيوم الناشئة نجم، والأمطار نجم، وهكذا فكلمة ﴿ ٱلنَّجۡمُ ﴾ تشمل كل شيء يخرج ويظهر. وأما ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: فهو النافذ المؤثِّر ومنه المثقب، أي: آلة الثقب. تقول: سهمٌ ثاقب، ورأي ثاقب. وعقل ثاقب.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾: أي: الخير النافذ المتوارد بصورة لا خلل فيها ولا نقصان، فالهواء ثاقب فإذا جاء، جاء بنظام وعلى حسب قوانين ثابتة فأثار السحب وجمعها، ومطر ثاقب أي: جامع للخير بحيث إذا نزل على الأرض أثَّر فيها وأخرج الخير منها، وبرد ثاقب أي: مؤثر بحيث إذا أصاب النباتات هيَّج ما فيها من الخصائص والقُوى وجعلها تؤتي أُكُلها وتجود بخيراتها، وهكذا كل ما يُظهره الله تعالى لهذا الوجود إن هو إلاَّ نجم في ظهوره وبروزه، ثاقب في كماله وتمام فائدته.

وبعد أن لفت تعالى نظرنا في الآيات السابقة إلى السماء التي لا تتناهى. وبعد أن ذكر لنا تعالى ما يعرِّفنا بعظيم شأنها وبما ينجم عنها من الخيرات التي لا تُحصى... حذَّر الإنسان من الفسوق والعصيان، وعرَّفه بأن صاحب هذا

المقام والشأن الكبير لا يصعب عليه أن يحصي على الإنسان جميع أعماله فقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾

أي: أليس يشهد هذا الكون العظيم بأن خالقه قادر على أن يحصي على كل نفس عملها، فما من نفس إلاّ عليها حافظ وإنَّ ذلك عليه تعالى هيِّن ويسير. ثم لفت تعالى نظر الإنسان إلى نفسه وعرَّفه بأصله ممَّ خُلق فلعلّه إذا قايس وقارن عرف نفسه وضعفه وعرف خالقه وعظمته، فقال تعالى:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

أي: انظر أيها الإنسان إلى أصلك وتكوينك من أي شيء خُلقت...

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾

فمن ذلك الماء المهين خُلقتَ. ومن ذلك الماء خلق الله تعالى ما خلق من الأجهزة والأعضاء، فمنه الدم والعروق والعضلات، ومنه العظام المختلفة الأشكال، ومنه العين والأذن وسائر الحواس، أفلا تفكر في ذلك كله فتهتدي إلى خالقك؟!.

وقد أراد تعالى أن يغضَّ من كبرياء هذا الإنسان فقال تعالى:

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾

والترائب: جمع تريبة، والمراد **بالترائب**: الأنفس الكثيرة التي يكاد عددها لا يُحصى، فهي في كثرة عددها كالترائب، فالإنسان في صلب أبيه كان مجموعاً مع ملايين الملايين من الأنفس التي ستخرج إلى هذا الوجود، ما أضعف شأنك يومئذ وما أصغرك، وما أعظم هذا الخالق الذي خلقك، ثم ما أكبر فضله وحنانه عليك

إذْ جعلك على هذه الصورة الكاملة والخلقة الحسنة، أفيصعب عليه بعد أن عرفت قدرته وعظمته أن يُرجعك بعد موتك ويخلقك ثانية كما بدأك أول مرة!. لا شك أنك إذا نظرت مفكِّراً تُوقن بذلك البعث وتراه على الله يسيراً هيِّناً ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾

أي: الذي خلق السماء وما فيها، والذي خلقك أيها الإنسان من ماء دافق، وأخرجك من بين الصلب والترائب، لا يصعب عليه إذا أنت فنيت وصرت تراباً أن يُعيد خلقك، فهو عليه تعالى يسير وهو على رجعك لقادر، ثم بيَّن تعالى ما يكون عليه حال الناس في ذلك اليوم الذي يرجع الإنسان فيه إلى ربه. فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾

وتُبلى: مأخوذة من بلا، بمعنى: اختبر وكشف الحقيقة. تقول: بلا القائد الجنود في الرمي، أي: اختبر معرفتهم وكشف حال كلٍّ منهم، وبلا المعلم التلاميذ، أي: امتحنهم وتعرَّف إلى مَبلغ ما وعاه كل منهم من درسه، ومنه أبلى الرجل في الحرب بلاءً حسناً، أي: أظهر صدقه وإخلاصه في الدفاع فعرف الناس طويَّته وما استكنَّ في نفسه. وأما كلمة ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فهي جمع سريرة، والسريرة: هي السرُّ الذي يكتمه الإنسان ويُخفيه في نفسه ولا يريد أن يطَّلع عليه أحد، ومنه يُقال: فلان طيِّب السريرة أي: صافي النية.

ويكون ما نفهمه من هذه الآية الكريمة: إنه في ذلك اليوم الذي يُنشئ الله الإنسان فيه النشأة الآخرة تظهر حقائق الأنفس، ويصبح سر كل امرئ بادياً ظاهراً، وهنالك يرى الناس العدالة الإلهية، ويعلمون أن الله تعالى لا يَظْلم

مثقال ذرّة، فلا بدّ إذاً لكل امرئ من أن تظهر نواياه وسريرته، وسيعود على المحسن إحسانه، ولا بد للمسيء من أن يلقى إساءته، وكل امرئ بما كسب رهين. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾

أي: إنه ليس يومئذ للمجرم من بعد أن رأى مرضه وانكشفت له علله وأوجاعه من قوة يدفع بها المداواة التي ستكون دواءً لعلله وأمراضه، ولا ناصر ينصره ويخلِّصه منها، إذ إنه يرى ضرورة العذاب ويجد أنه في أشدِّ الحاجة إليه، ومثل الإنسان الذي أساء في دنياه يومئذ كمثل جزّار كان يفري اللحم بسكينه الحادّة وفيما هو على ذلك الحال وقعت منه التفاتة إلى الطريق وغفل عن أنه في أشد ما يكون حاجة للانتباه لنفسه فقطع اصبعه وجعل الدم ينزف ويفيض من جرحه، أفتراه إذا صار بين يدي الطبيب الذي يسعفه يسعى في التخلُّص من بين يديه، أم تظن أن أحداً من أهله يتقدَّم فيشفع له عند الطبيب ويرجوه أن يكفَّ عن مداواته وإنقاذه مما هو فيه؛ ذلك هو مثل الإنسان المجرم يوم القيامة بين يدي ربه، فلا قوَّة له ولا ناصر ينصره، إذ الحكمة الإلٓهية تقضي بمعالجته ومداواته في النار رحمة ورأفة من الله به.

فسبحانك اللهم ما أرحمك وأكرمك، وتعساً لك أيها الإنسان المعرض عن ربه والظالم لنفسه.

ثم أراد تعالى في الآيات التالية أن يُثبت لنا أن البعث حق، وأن الجزاء على الأعمال حق وواقع لا ريب فيه، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾

ونبدأ بآية: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ فنقول:

الرجع: هو رجوع الشيء ثانية، تقول: تكلَّم فلان في البئر فسمع رجْعَ صوته. ومنه الآية التي مرَّت من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾.

ورَجْعُ السماء: هو ما ترجع به من الخير عاماً بعد عام وآناً بعد آن، فالأمطار التي تهطل هي من رجع السماء، ورجوع هذه الأمطار في مواسمها وتكرار الفصول والحوادث الجويَّة وعودتها في أوقات مُنظَّمة كل ذلك يدل على وجود إلّه مسيِّر. وبالحقيقة لو أنك ألْقيت حجراً ونبذته في الفضاء فإنه لا يرجع ثانية وثالثة ورابعة إن لم تكن هناك قوة تعيده وترجعه. فكيف بالفصول والأمطار وغيرها ترجع كل عام متكررة بصورة دورية وفي أوقات منظَّمة لا تتغيّر ولا تتبدل منذ آلاف السنين.

أقول: ومثل ذلك حركة الشمس والقمر لا بل حركة الكرة الأرضية وكل ما يجري في السماء من الحوادث المذكورة تشير هذه الآية إليه. فهل يمكن أن تدور الأرض بذاتها وأن تعود الفصول في أوقاتها وأن ترجع الأمطار في مواسمها دون أن تكون هناك يد عظيمة تُصرِّفها وتُسيِّرها.

وأما **الصدع**: فالمراد به موافقة الأرض للسماء في إخراج النباتات، نقول: صدع فلان بالأمر، أي: طبَّقه، فبهطول الأمطار من السماء حاملة المواد الغذائية تستجيب لها الأرض فتخرج زرعها وتؤتي أُكُلها.

أفليس هذا النظام بدالٍّ على منظِّم حكيم وخالق قدير، فإن أنت نظرت واستعظمت هذا السير وآمنت بهذا الخالق العظيم فاعلم أن البعث حق،

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾

والقول الفصل: هو القول القطعي الذي ليس فيه موضع خلاف ولا مجال لأخذ وردّ. فالحاكم إذا قضى في الدعوى مثلاً فكلامه فصل، إذ أنه قطع بحكمه الخلاف والنزاع وأثبت الحق لصاحبه، فالله تعالى في هذه السورة الكريمة بعد أن أخبرنا أنه لا بدَّ للإنسان بعد هذه الحياة من يوم يرجع فيه إلى ربه ويومئذ تنكشف سريرته ويُجزى بعمله أراد تعالى أن يثبت لنا هذا الخبر فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾

أي: إنك إذا فكَّرت بالسماء ذات الرجع ونظرت في الأرض ذات الصدع فهنالك تثبت لك هذه الحقيقة وتؤمن بالبعث فتعلم أن هذا الخالق العظيم قادر على رجعك وبعثك ولا يعود عندئذٍ في نفسك شك ولا مجال لأخذ وردّ، بل ترى أن قوله تعالى فصل. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾

والهزل: هو القول الذي ليس له أصل ثابت، وهو والحالة هذه لا تثبت به حقيقة وليس له قيمة، ولذلك لا نبالي به ولا نحذر مما يُحذِّرنا منه. أما الجد الثابت فإننا نحذره ونعدُّ العدة له.

فأنت بعد أن أثبت لك تعالى أن البعث حق، وبعد أن بيَّن لك أنه على رجعك لقادر، فلا بدَّ لك إن كنت آمنت وأيقنت من التأهُّب لذلك اليوم والاستعداد له، ثم أراد تعالى أن يبشِّر رسوله بالنصر وقرب ظهور الحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾

فنقول **الكيد**: هو التدبير الذي يقوم به الخصم للتغلُّب على خصمه ويكون ما

نفهمه من هذه الآية:

أي: إنهم يدبِّرون ما يدبِّرون من خطط ليردُّوا ما جئت به ويحولوا دون نشر الحق.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾: أي: وأنا أدبِّر ما يحبط مسعاهم ويبطل كيدهم فلا بدّ من نصرتك وخذلان أعدائك. ثم أمر تعالى رسوله بأن ينذر الكافرين ويحذِّرهم من استعجال العذاب.. فقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾

ومهَّل فلان فلاناً أي: طلب منه الرفق بالأمر وعدم العجلة فيه. يُقال: مهَّل الأمير الجند في السير أي: طلب منهم ألا يستعجلوا وأن يسيروا برفق.

فالكافرون عندما سمعوا بإنذار الله لهم من العذاب أخذوا يستعجلون العذاب ويطلبون نزوله في الحال جهلاً منهم بعظمة الله وعناداً لرسوله ﷺ ومن رحمة الله بهم أن أمر رسوله بأن يمهلهم أي أن يحذِّرهم من هذه المعاندة ويخوِّفهم فلعلّهم بهذا التحذير والتخويف يرجعون عن ضلالهم ويكفُّون عن استعجال العذاب. ثم بيَّن تعالى لرسوله كيفية هذا التحذير والتمهُّل فقال تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾

والرويد: هو الرفق والتؤدة. يُقال: سار فلان رويداً، أي: برفق وتؤدة.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾:

أي ليكن بيانك لهم وتحذيرك مقروناً بالرفق والتؤدة. فإذا نظر الإنسان إلى هذه الدلالة التي بيَّنها الله تعالى لرسوله في كيفية إرشاد خلقه وكيف أنه تعالى يأمر رسوله الكريم بالتلطُّف معهم والرفق بهم فهنالك يدرك مبلغ رحمة الله

تعالى بخلقه وعظيم عطفه، ويعرف أن الله تعالى رب العالمين وأنه أرحم الراحمين.

النشاط الذاتي:

- احفظ سورة الطارق من أستاذك جيداً وتعاون مع أصدقائك على حفظها وتسميعها غيباً، وثابر على تلاوتها ودراسة ما جاء في تأويلها السامي.

الأسئلة والتدريبات:

1- ما هو معنى كلمة (**الطارق**) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾؟.

2- إلى ماذا تُشير الآية الكريمة: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؟.

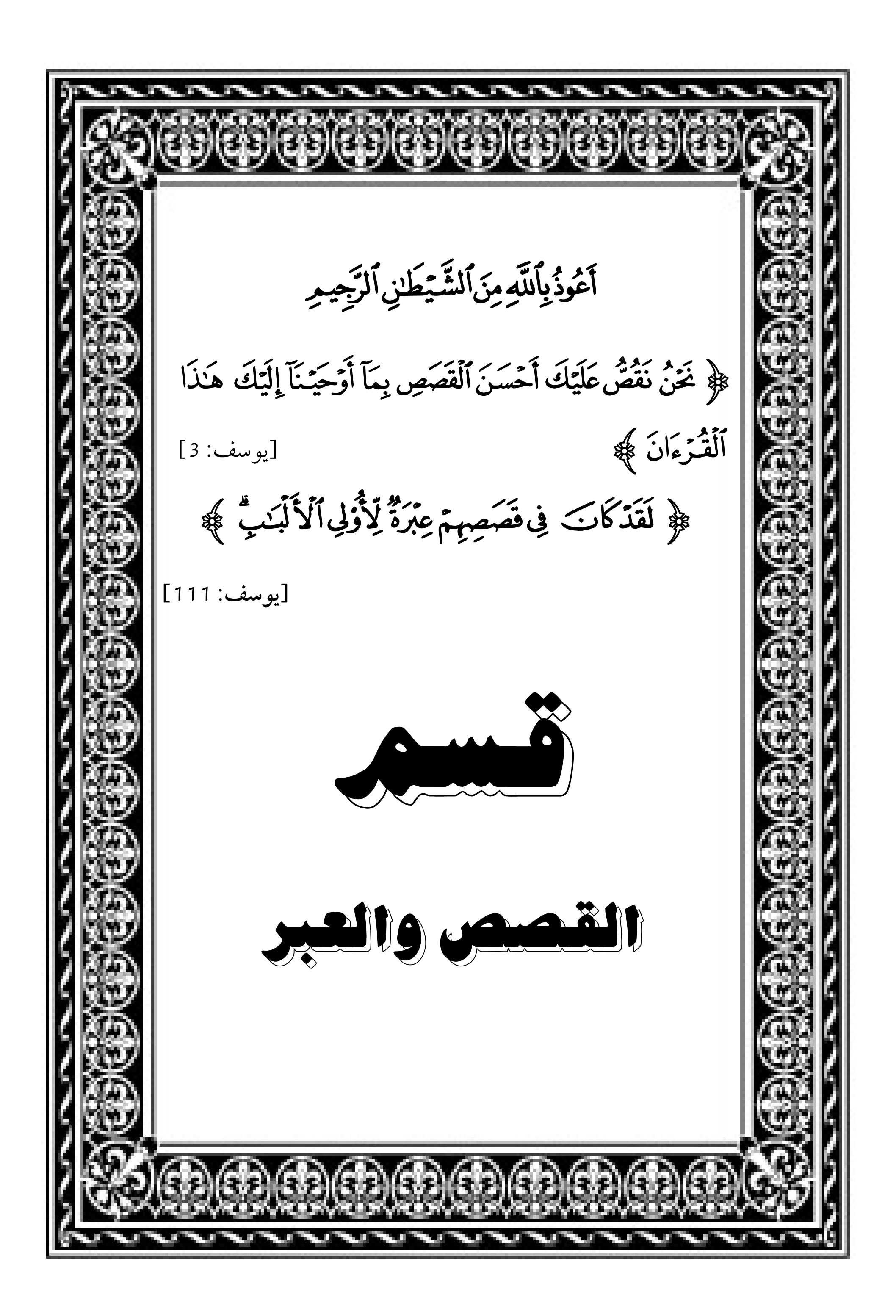
3- إلى أي شيء تريد السورة الكريمة أن تلفت نظر الإنسان بآية: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾؟.

4- اشرح قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ .

5- خلق الله تعالى الإنسان من ماء دافق.. ومن ذلك الماء الذي يخرج من بين الصلب والترائب خلق الله تعالى ما خلق من الأجهزة والأعضاء، فمنه الدم والعروق والعضلات، ومنه العظام المختلفة الأشكال، ومنه العين والأذن وسائر الحواس.. فكِّر كيف خلقك الله تعالى من ماء مهين وكيف حوَّلك تعالى من هذا الماء إلى إنسان كامل الهيئة والتركيب؟ وتذكَّر خلال تفكيرك بخلقك حكمة الله تبارك وتعالى في هذا الخلق والتكوين.




ألا بذكر الله تطمئن القلوب



أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

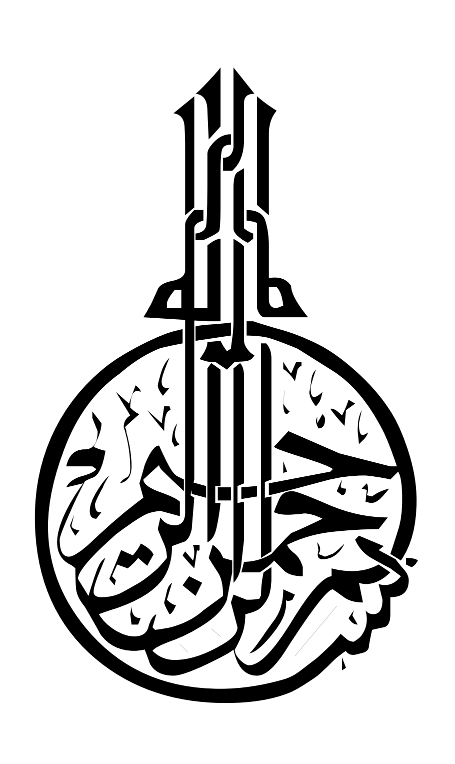
﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [يوسف: 3]

﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾

[يوسف: 111]

قسم

القصص والعبر



الدرس العشرون

قصة سيدنا نوح عليه السلام

الجزء الأول

منذ فجر البشرية على وجه الأرض وتكاثرها بالأعداد ذكر لنا الله تعالى ثلاثة أقوام جاءت متتالية على إثر بعضها، فأول ما يذكر تعالى قوم سيدنا نوح عليه السلام، وعلى إثرهم يذكر قومي عاد وثمود، وهذه النماذج الثلاثة من الأمم الهالكة كافية للعبرة والموعظة لكل من أراد النجاة بنفسه، فقد ذكرهم تعالى بكل الكتب السماوية لنحذر أن نسير مثل سيرهم.

الرحمة المهداة

أعزائي الطلاب: تطاول العهد على بني آدم عليه السلام من بعده فضلُّوا سبيل الحق وأعرضوا عن الله، فأرسل الله تعالى لهم سيدنا نوحاً عليه السلام رحمة بهم لينذرهم عواقب عملهم ويذكِّرهم بربهم وآخرتهم، وكانوا قد اتخذوا أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، وأشهر هذه الأصنام وأعظمها عندهم وَدّ وسواع ويغوث ويعوق ونسراً. قال تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾[1].

فما هومدلول تلك التسميات عندهم؟.

(1) سورة نوح: الآية (23).

هم يزعمون أن **وداً**: ينشىء علائق المودة بين الناس.

وسواعاً: هو الساعي في خيرهم وسعادتهم.

ويغوث: يغوثهم في الشدائد.

ويعوق: يعوق عنهم الشرور والمصائب.

وأمَّا **نسراً**: فهو أكبر هذه الآلهة ونسرها.

لقد زعموا ذلك وما عرفوا أن الخالق الذي خلق الكون كله وأن الرب الذي يمد بالحياة كل موجود من موجوداتهم بلا انقطاع هو وحده الإله المسيّر، وهو وحده المتصرِّف بشؤون الكون وهو وحده الذي يغوث الإنسان إذا أحاطت به المكاره ونزلت به الشدائد ويعوق عنهم الشرور إذا صلحت أعمالهم، فهو يسوق لكل إنسان ما يتوافق مع عمله، لقد انقطع هؤلاء عن ربِّهم وارتبطوا بأصنامهم، حسبوا أن الأمور تجري في هذا الكون جزافاً وبدون حساب. وأن لا علاقة لما يصيبهم من الشدائد والمكاره بأعمالهم.

ولذلك جعلوا يرجون هذه الأصنام في جلب الخير لهم وكشف الضرّ عنهم، ولو عقلوا لعرفوا أن الخالق هو وحده الفعَّال والمتصرف بشؤون الكون كله، فلا يملك أحد لأحد ضراً ولا نفعاً، ولا يستطيع أحد أن يجلب لأحد خيراً أو يدفع عنه شراً.. فإذا مسَّ تعالى أحداً بضرٍ فلا كاشف له إلاَّ هو، وإن أراد تعالى أحداً من عباده بخير فلا راد لفضله.

إلاَّ أنَّ بُعد هؤلاء عن الله وعدم تحققهم بالإيمان أوقعهم فيما وقعوا به من الضلال فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً. وما كان كفرهم ليزيدهم إلاَّ خسارا.

منشأ عبادة الأصنام

إن عبادة الأصنام لم تنشأ عند الأقوام السابقة إلاَّ لسبب الغلو في الدين والخروج عن الحد الذي رسمه الله تعالى للنّاس. فالله تعالى كما أمر الملائكة بالسجود لسيدنا آدم ﷺ والارتباط به كذلك أمر بني آدم بالارتباط برسلهم والإقبال بمعيَّتهم على الله ليكون هؤلاء الرسل الكرام سراجاً منيراً لنفوس المرتبطين بهم وضياءً لقلوبهم، وبواسطتهم يتوصَّلون إلى معرفة الله، وبالنور المتوارد على نفوسهم من الله تعالى يستطيع المقبلون بمعيَّتهم على الله أن يروا الكمال الإلهي، وهذا ما يوضِّح لنا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

فما الصلاة على النبي ﷺ في حقيقتها إلاَّ الصِلة والارتباط بتلك النفس الكريمة الطاهرة والإقبال بمعيتها على الله لتكون سراجاً منيراً للنفس المرتبطة بها وضياءً لقلب المصلي بمعيتها، على هذه النقطة المهمة استند بنو آدم من بعده في إقبالهم على ربِّهم وقد كان منهم الصالحون المقبلون الذين تأهلت نفوسهم لأن تكون سراجاً منيراً لمن عاصرهم، غير أنه لَّما مات هؤلاء الصالحون جاء الشيطان فوسوس إلى الناس من بعدهم أن يجعلوا لهم تماثيل تذكرهم بهم وتذكي المحبة في قلب من ينظر إليهم.

وقد تقادم الزمان على هذه التماثيل ومضى عليها حين من الدهر نسي معه الناس أولئك الرجال الصالحين والإقبال بمعيتهم على رب العالمين، وقصروا

(1) سورة الأحزاب: الآية (56).

وجهتهم على تلك الأصنام وعكفوا عليها. فظنوا أنَّ لـها حولاً وقوة وبذلك انقطعت نفوسهم عن الله، ووقعوا فيما وقعوا به من الشرك والبعد عن الله تعالى.

ومن هنا يتبيَّن لنا أن الارتباط بالرسل الكرام وبالصالحين من بعدهم حق وفرض لازم مادام ذلك وسيلة للإقبال على الله تعالى.

أمَّا إذا قصر الإنسان وجهته على الرسول أو الولي أو المرشد الصالح واتجه إليه وحده دون أن يتَّجه بمعيَّته إلى الله فذلك هو الشرك بعينه وهو أشبه بعبادة الأصنام.

ونستطيع الآن أن نقف في موقف معتدل بين أولئك الذين غلوا في دينهم فقصروا وجهتهم على المخلوق دون الخالق فوقعوا في الشرك بتحولهم عن الله، وبين أولئك الذين أنكروا الارتباط بالصالحين وأنكروا الإقبال على الله بمعية الرسول الكريم. فليس الأولون على حق بشركهم وتحولهم عن الله، ولا الآخرون على حق بإنكارهم الوسيلة وانقطاعهم عن رسول الله ﷺ.

والوسط الحق هو أن يقبل المؤمن على الله وحده، بمعيَّة وصحبة المقرَّبين إلى الله من الأحياء وهنالك يرى كمال الله وعدله، ويشهد أن الكون كلَّه مسيَّر بأمره تعالى وحده ويعلم حق العلم أنَّ **لا إلَه إلَّا الله**.

لا يكون الارتباط إلاَّ بالأحياء:

إنَّ وظيفة المرشد الكامل تتضمن عملين اثنين:

- فهو يدلُّك أولاً بمقاله على الله ويعرّفك بما جاء به رسول الله ﷺ من الدلالة على الله تعالى.

- ثم هو إلى جانب ذلك يصل بك إذا أنت صدقت معه وارتبطت به نفسياً إلى محبة رسول الله ﷺ باب الخلق جميعاً إلى الله، فبحبك الصادق لهذا المرشد الكامل ينطبع في نفسك ما هو مطبوع في نفسه من الحب العالي لرسول الله ﷺ. فلا تلبث أن ترى نفسك مرتبطة بهذا الرسول الكريم ملازمةً له لا تنفك عنه، فإذا وجدك قد وصلت إلى رسول الله قال لك: الزم هذا الباب فقد انتهت مهمتي معك إذ بلَّغتك من جعله الله تعالى باباً للعالمين وأمر بالارتباط به أي الصلاة عليه كافة المؤمنين.

وما مثل المرشد في هذا إلاَّ كمثل القارب يحمل الذين يريدون السفر فينقلهم من الشاطئ إلى السفينة العظيمة، فمهمة القارب تنحصر في النقل من الشاطئ إلى السفينة لا تعدو ذلك، أمَّا السفينة فتنتقل إلى لجج البحار، بحار المعرفة والمشاهدة للكمال الإلهي، فالسفينة واحدة والقوارب التي تنقل إليها عديدة. فإذا مات هذا المرشد فقد انتهت وظيفته وانتقلت إلى آخر حي من بعده، وإلى ذلك الارتباط برسول الله ﷺ تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾.

فقد أمر تعالى المؤمنين جميعاً بالاعتصام أي: الارتباط بهذا الرسول الكريم ﷺ وعدم التفرّق عنه وثبت لك هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ** .. ﴾ فما الحبل إلاَّ رسول الله ﷺ.

أمَّا السير بدلالة المرشدين من بعد الرسول ﷺ فتُشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[1].

فهؤلاء من بعد الرسول ﷺ يدعونك إلى سلوك سبيل الحق. فإذا أنت سرت بدلالتهم المأخوذة عن رسول الله ﷺ انبعثت في نفسك الثقة برضاء الله عنك، وعندها تقبل على الله تعالى وبإقبالك عليه تعالى ينطبع الكمال في نفسك، فتُحب أهل الكمال، تُحب دليلك ومرشدك، ومنه تنتقل إلى حبِّ رسول الله ﷺ كما ذكرنا من قبل.

دعوة سيدنا نوح عليه السلام

إنَّ أول ما بدأ به سيدنا نوح عليه السلام قومه أن دعاهم إلى عبادة الله وحده والدعوة إلى عبادة الله وحده هي روح الأديان السماوية كافّة وجوهر دعوة الرسل الكرام عامة وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾[2].

أعزائي الطلاب: ما من رسول إلاَّ وأوحى الله إليه أن يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[3].

(1) سورة آل عمران: الآية (103-104).

(2) سورة الأعراف:الآية (59).

(3) سورة الأنبياء:الآية (25).

والمراد بعبادة الله تعالى طاعته، أي الائتمار بأوامره تعالى وعدم مشاركة أحد معه في طاعته.

تلك هي دعوة سيدنا نوح عليه السلام وتلك هي دعوة جميع الرسل الكرام، وبما أن الدعوة إلى عبادة الله تقتضي التعريف به تعالى لذلك أتبع كلمة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1] فبيَّن لهم أنَّ المستحق للعبادة هو الله وليس معه إلَه غيره. **والإلَه**: هو المسيِّر الذي بيده تصريف أمور الكون وتسيير ما فيه من المخلوقات صغيرة كانت أو كبيرة عظيمة أو حقيرة، فالشمس والقمر والأرض والكواكب والرياح والسحب والأمطار والصواعق والبروق والرعود والإنسان والحيوان، لا بل كل مخلوق من المخلوقات يسير بأمر هذا المربي، فهو تعالى وحده المتصرف بذلك كله والقائم بتسييره.

ثمَّ إنَّ سيدنا نوحاً عليه السلام بعد أن عرَّف قومه بلزوم طاعتهم لله الذي لا إلَه إلاَّ هو أراد أن يلفت نظرهم إلى ما يقع تحت أعينهم من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته وحكمته في تدبير شؤون خلقه، فلعلَّهم إذا فكَّروا في خلق السموات والأرض وما فيها من الآيات عظَّموا خالقهم وتذكَّروه فخشعت نفوسهم له واستسلمت إليه، وإلى تلك الآيات التي لفت إليها سيدنا نوح نظر قومه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ

---

(1) سورة الأعراف:الآية (65).

نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[1].

وترى عزيزي الطالب من خلال هذه الآيات أن الإيمان الذي لا يُبنى على تفكير وتأمل والذي لا يبعث في نفس صاحبه توقير الخالق وتعظيمه لا يجدي صاحبه ولا يغني عنه شيئاً.

وأنه لا بدَّ للإنسان حتى يستقيم على أمر خالقه ويعبده حق العبادة من أن يفكِّر التفكير الدقيق وينظر ويتأمل في الكون نظراً وتأملاً منبعثاً عن صدق في طلب معرفة الخالق والوصول إلى الحق.

فإذا صدقت النفس هذا الصدق ثمَّ لجأت إلى التفكير في الكون فلا بدَّ من أن يقودها تفكيرها إلى تعظيم هذا الكون وبالتالي إلى تعظيم هذا الخالق وتوقيره، وعندئذٍ تخشع له وتخضع مستسلمةً إليه منقادة لطاعته وتعبده حق العبادة وتأتمر بما جاءها به الرسول فلا تجرؤ أن تُخالفه في شيء، ولا أن تعصيه في شيء.

نعم إنَّها تخضع لخالقها وتستسلم، ولا ريب أن خضوعها هذا واستسلامها يجعلها تثق من رضائه تعالى عنها فتقبل عليه بوجهها، وإلى هذه النقطة المهمة يُشير الدعاء المأثور من قوله ﷺ: «**اللّهمَ إيَّاك نعبد ولكَ نُصلِّي ونسجد**» فإذا عبد الإنسان ربَّه وأطاعه حقَّ الطاعة، استطاع أن يُصلِّي، أي أن يقبل على الله تعالى وتحصل له الصلة النفسية به، ولا ريب أنَّ هذه الصِلة والوجهة الصادقة تطهِّر النفس من أدران الشهوات الخبيثة فيمسح النور الإلَهي هذه النفس مما

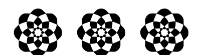
(1) سورة نوح: الآية (13-20).

علق بها فإذا بها طاهرة نقية متحلّيةً بحلية الكمال والفضيلة، ولعمري تلك هي الطريقة الوحيدة لتهذيب النفوس البشرية والسمو بها إلى أسمى منازل الكمال والإنسانية، فمن الله تعالى تُستقى الأخلاق الكريمة، وإلى الله تعالى وحده يرجع الطالبون للوصول إلى الفضيلة، فهو سبحانه صاحب الأسماء الحُسنى ومورد الكمال الذي لا يتناهى.



الأسئلة:

1- ما الذي كان يعتقده قوم سيدنا نوح عليه السلام بآلهتهم، ويرجونه من هذه الآلهة؟.
2- لماذا أمر الله تعالى بني آدم عليه السلام أن يرتبطوا برسلهم الكرام؟.
3- كيف نشأت عبادة الأصنام؟.
4- قال تعالى: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ** .. ﴾ من هو حبل الله وكيف يكون الاعتصام به؟.
5- اشرح الدعاء المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «**اللّهمَ إيَّاك نعبد ولكَ نُصلِّي ونسجد**».



الدرس الحادي والعشرون

هلاك قوم سيدنا نوح عليه السلام

الجزء الثاني

طلابنا الأعزاء..

لقد طلب سيدنا نوح عليه السلام من قومه أن يعبدوا الله وحده وفق أمر الله تعالى:
﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ..﴾[1].

وتعريفاً لهم بربِّهم لفت نظرهم إلى مخلوقاته تعالى كما رأينا، غير أن النفس البشرية إذا هي لم تصدق في طلب الحقيقة ولم تشأ هي بذاتها الوصول إليها ولم ترد أن تكون من أهلها، فلا تنفع فيها تذكرة ولا تفيدها نصيحة، وكذلك كان حال هؤلاء مع رسولهم فما عبؤوا بكل ما سمعوه وعجبوا أن جاءهم ذكرٌ من ربهم على رجل منهم فقالوا:

﴿..مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[2].

وتُشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3].

---

(1) سورة الأعراف: الآية (65)

(2) سورة هود: الآية (27).

(3) سورة المؤمنون: الآية (24).

وقد طال الجدل بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه وما كان منهم إلاَّ أن عاندوه وعارضوه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1].

ولَمَّا يئسوا من رجوعه عن دعوته هدَّدوه فقالوا:

﴿..لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾[2].

وهكذا النفوس جميعها إذا هي لم تفكِّر في الكون ولم تتعرف منه إلى خالقه فذلك حتماً حالها مع رسولها ومرشدها لا يزيدها نصحه إلاَّ إصراراً واستكباراً ولا تعبأ بذلك الناصح ولا تعرف له قيمة، وظلَّ سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله تعالى غير مبالٍ بموقفهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا ..﴾[3].

فما كان جوابهم بعد ذلك كله إلاَّ أن قالوا: ﴿.. قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[4].

ولعلك تقول: ما المراد بكلمة ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[5]؟.

(1) سورة الأعراف: الآية (60).

(2) سورة الشعراء: الآية (116).

(3) سورة العنكبوت: الآية (14).

(4) سورة هود: الآية (32-34).

(5) سورة هود: الآية (34).

فأقول: إنَّ شفاء النفس من جرثوم شهواتها الخبيثة لا يكون إلاَّ بإقبالها على الله تعالى ووجهتها الخالصة إليه وهذه الوجهة والإقبال له إحدى طريقتين:

أولاً: فإما أن يعمد الإنسان كما رأينا من قبل عن طوع منه إلى التفكير في الكون والنظر فيه تفكيراً ونظراً مقروناً بالصدق في طلب الحقيقة وهنالك يصل به تفكيره إلى تعظيم هذه المخلوقات ثمّ ينتقل بالتالي إلى الإقرار بخالقه العظيم والخضوع لجلاله وكبير قدرته والخشية منه. وهذه الخشية تحمله على الاستقامة على أمره وطاعته، فإذا ما وصل الإنسان لهذه المرحلة مرحلة الاستقامة، تولدت في النفس الثقة بذاتها من أن الله تعالى راضٍ عنها وعندئذٍ تقبل عليه تعالى بكلِّيتها إقبالاً يشرق معه النور الإلَهي عليها ويسطع في جوانبها فيمحو كل خبث ودَرن ويستأصل جرثوم الخبث كما تمحو أشعة الشمس الداخلة إلى الغرفة آثار العفن، أو كما تبيد بعض الأشعة المسلَّطة على الناحية المريضة من الجسم ما استكن فيها من الجرثوم وهذا مثال تقريبي.

ثانياً: ولكن ما العمل والحيلة إذا كانت النفس قد رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها، وأنَّى تستطيع هذه النفس الإقبال على الله وقد استحكمت فيها شهوتها وسيطرت عليها فوقفت سداً منيعاً وحجاباً ساتراً بينها وبين خالقها. لا ريب أن النفس في مثل هذا الحال لا تستطيع الإقبال ولا تتمكن منه ما لم تخرج هذه الشهوة منها. فإذا ما خرجت هذه الشهوة وخلت ساحة النفس بدأ دور المعالجة والمداواة وسلَّط الله تعالى على هذا الإنسان أنواع البلاء والمصائب وأنزل به من الهموم والكروب ما يجعله يتضرع إلى خالقه ويلتجىء إليه، ثم إن الله

تعالى يكشف عن هذا الإنسان البائس تلك الشدة، ويعيد إليه الطمأنينة، فلعله يذكر من بعد كشفِ الضر عنه فضل خالقه ويُقدِّر إحسانه إليه فيفكر التفكير الصحيح ويعرف ربه المعرفة اللائقة التي تقوده إلى الإقبال عليه، وهذه هي الطريق الثانية الموصلة للإقبال.

وهنا يتبيَّن لك فضل الله تعالى على الإنسان كما يتبيَّن معنى كلمة:

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

فهو تعالى يزيِّن لهذه النفس المريضة عملها حتى يُخرج منها شهوتها الخبيثة كما يُزيِّن الطبيب العلاج للمريض إذ يضع له فيه السكر والمواد العطرة.

ثم إن الله تعالى يعقب خروج الشهوة وخلو النفس منها بأنواع البلاء وإن شئت فقل بالمداواة التي تقود إلى الإقبال على الله والوجهة الصادقة استئصالاً لجرثوم الخبث من النفس وتطهيراً لها من تلك النواة التي تسبب تولد الشهوات قال تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

والآن بعد أن عرفنا المراد من كلمة (الإغواء) والمراد الإلهي من الشدة والبلاء نقول:

الناس تجاه البلاء أحد رجلين:

1 - رَجُل يتضرَّع إلى الله ساعة المصيبة، وهذا شفاء نفسه ممكن، فإن كشف الله عنه الشدّة والبلاء فقدَّر إحسان الله تعالى وفضله وسلك طريق الإقبال كان ذلك سبباً في شفاء نفسه وطهارتها من الخبث.

(1) سورة السجدة: الآية (21).

2 – ورَجُل لا يتضرَّع إلى ربِّه ولا يدعوه، وهذا متعذِّر شفاء نفسه ولذلك فهو أمام أحد حالين:

أ – إمَّا أن يكون حرمانه من شهواته سبباً في زيادة كفره وإعراضه ولذلك فإن الله تعالى يسوق له جميع ما يحبّه من الشهوات الدنيا ويعطيه كل رغائبه منها فإذا ما فرغت نفسه من كل شهوة وفرح بما أوتي جاءه الموت، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[1].

ب – وإمَّا أن يكون إعطاؤه رغائبه سبباً في زيادة طغيانه وأذاه، ولذلك حسماً لأذاه وحدّاً من طغيانه يجعل الله تعالى نصيبه الحرمان من شهواته وتخليصاً لنفسه مما هي متعلِّقةً به من الشهوات لذلك تستمر المصائب عليه، وما تزال تتزايد في الشدة حتى تزهد نفسه من شهواتها وتعافها، وإلى حال هذا الرجل تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2].

وترى من خلال هذا الشرح الذي بيَّناه أن الحكمة الإلهية تُعامل كلاًّ بحسب حاله، فلا يحين أجل الإنسان إلاَّ وقد فرَّغ الله له نفسه من جميع شهواتها، أما أولئك الذين لم يؤمنوا فمع أنَّ نفوسهم فرغت من شهواتها لكن الجرثوم لا يزال كامناً

(1) سورة الأنعام: الآية (43–44).

(2) سورة المؤمنون: الآية (75).

فيها، فلو أنَّ الله تعالى مدَّ لهم في عمرهم زيادة عن أجلهم المحتوم لما أفادهم ذلك شيئاً، بل لتوالد ذلك الجرثوم وبعث فيهم الشهوة من جديد لذلك من رحمة الله تعالى بهم أن يتوفاهم عند حلول أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإلى هذا المعنى تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿..وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ..﴾[1].

الهلاك العام بالطوفان

لقد امتلأ إناء القوم ولم يبق لهم طريق للعودة ولقد طلبوا العذاب لأنفسهم واستعجلوه، ولمَّا استحكمت الشهوة الخبيثة بنفوسهم وأصروا على كفرهم وضلالهم أخبر الله تعالى سيدنا نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلاَّ من قد آمن، وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ..﴾[2].

ولما أعلم الله تعالى سيدنا نوح عليه السلام بعدم إيمانهم واستحالة هدايتهم طلب لهم من الله تعالى أن يرحمهم بالموت حدّاً من أذاهم وتخفيفاً عنهم.

إذ إن الإنسان كلما زاد في الدنيا كفراً ازداد بالتالي عذابه يوم القيامة، وبناءً على إخبار الله تعالى له أنه لن يؤمن منهم أحد غير الذين آمنوا فقط دعا سيدنا نوح عليه السلام ذلك الدعاء الرحيم الذي بموجبه يريد إنهاء تراجع قومه وتوقف خسارتهم المستمرة.

(1) سورة الأنعام: الآية (28).

(2) سورة هود: الآية (36).

وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾[1].

وإذاً فما دعاء سيدنا نوح عليه السلام على قومه قسوة منه، وليس دعاؤه عليهم خطيئة، إنَّما هو رحمة ورأفة بهم.

وقد أثنى الله تعالى عليه لشدة هذه الرحمة العظيمة التي بقلبه على قومه واستجاب له دعوته.. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ **وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ** ﴾[2].

وإن كلمة ﴿ **فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ** ﴾ تُبيِّن لك أن دعاءه عليهم كان في موضعه وضمن الرحمة والعدل، وقد استجاب الله تعالى دعاؤه الحق.

ويبين لنا ربنا من تسمية رسوله الكريم «نوح» ما انطوى عليه قلبه الشريف من الحزن والأسى البالغ على الناس إذ إن معنى اسمه الشريف «**نوح**» من **النواح**، أي: شديد الحزن وكثير البكاء على قومه.

ولمَّا حان موعد هلاكهم أمر الله تعالى رسوله أن يصنع السفينة وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾[3].

---

(1) سورة نوح: الآية (26-27).

(2) سورة الصافات: الآية (75).

(3) سورة هود: الآية (37).

وإن كلمة ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ تبيِّن لك زيادة عطف هذا الرسول الكريم على قومه ورحمته بهم.

وقد أمر الله تعالى رسوله أن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

والتنور: هو منبع الماء والمراد بكلمة ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: أي تفجرت ينابيع الماء بشدة وفارت فوراناً قوياً. ولو أن كلمة ﴿مِن كُلٍّ﴾ الواردة في هذه الآية جاءت خالية من التنوين أي بصيغة احمل فيها من كُلِّ زوجين اثنين، لكانت كلمة (كُلِّ) مضافة إلى زوجين، وللزم بسبب هذه الإضافة أن يحمل معه من كل ما خلق الله تعالى من زوجين على وجه الأرض وهذا مما لا فائدة منه. ولذلك جاءت كلمة ﴿مِن كُلٍّ﴾ مُنوَّنة بالكسر، ويكون المراد بالآية بحسب ما هي واردة عليه بمعنى ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: مما تحتاجه ومما يلزمك في الحياة من بقر وغنم وجمل ومما يلزمك في الفلاحة...، أما سائر الحيوانات الأخرى التي كانت في تلك المنطقة التي أصابها الطوفان فقد أوحى إليها الله في نفسها فشردت نافرة في الآفاق مبتعدة عن تلك المنطقة، لأن الطوفان لم يشمل عامة الأرض، وإنما أصاب تلك البقعة المحدودة التي عمَّرها الإنسان لأن الناس كانوا يومئذٍ أمة

(1) سورة هود: الآية (40).

واحدة يسكنون في بقعة واحدة من الأرض أمَّا المناطق الأخرى فكانت خالية من الإنسان.

وما إن ركب سيدنا نوح عليه السلام السفينة وركب معه من آمن حتى انفتحت أبواب السماء بماء منهمر وتفجَّرت الأرض عيوناً، وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[1].

وانغمر وجه تلك المنطقة بالماء وارتفع الموج وازداد وجعلت السفينة تجري في موجٍ كالجبال. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ .. ﴾[2].

والذي يتبيّن لنا من خلال هذه الآيات الكريمة أن الإنسان إذا ساء عمله فليس يدفع عنه العذاب أحد ولن يجيره من الله أحد، فسيدنا نوح عليه السلام لم يغنِ عن ابنه من الله شيئاً وقد مات ابنه غرقاً وخرج من الحياة الدنيا طرداً لأنه لم

(1) سورة القمر: الآية (11-14).

(2) سورة هود: الآية (42-46).

يؤمن بالله والرسول وأيضاً زوجته هلكت ولم يغنِ عنها من الله شيئاً، وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يغنِ عن أبيه من الله شيئاً وقد تبرأ منه، وكذلك سيدنا لوط عليه السلام لم يستطع تخليص زوجته من البلاء فهلكت مع الهالكين، وسيدنا محمد سيد الخلق عليه الصلاة والسلام لم يغنِ عن عمه أبي لهب من الله شيئاً بل لا بدَّ للمعرض من أن يعود عليه عمله كائناً من كان.

وقد حذر رسول الله ﷺ كل أقربائه وحتى بناته الطاهرات بقوله الشريف:

«يَا فَاطِمَةُ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنْ اللهِ شَيْئًا»[1].

وذلك ما تقتضيه العدالة والرحمة الإلهية، فلا يملك أحدٌ لأحدٍ شيئاً وكل إنسان مأمورٌ عند الله تعالى بالإيمان من ذاته.. فما ينفع الإنسان عند ربِّه إلَّا إيمانه وأعماله الصالحة.

وقد ترك الله تعالى لنا في قصة هلاك قوم سيدنا نوح عليه السلام من العبرة الباقية لنعلم أنَّ الذي يُكذِّب بآيات الله ولا يفكِّر فيما خلق الله لا يستطيع أن يرى الحق ولا يمكن أن يهتدي إليه، وإنه لا بدَّ له من الهلاك فإذا ما نزل البلاء حفظ الله تعالى عِباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ..**فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ** ﴾[2].



(1) مسند الأمام أحمد.

(2) سورة الأعراف: الآية (64).

الأسئلة:

1- لماذا كان سيدنا نوح عليه السلام يحثّ قومه دائماً على النظر في خلق السموات والأرض؟.

2- قال تعالى: ﴿**إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**﴾ ما هو معنى كلمة الإغواء؟.

3- ما هو سبب نزول المصائب والهموم والكروب على بعض الناس؟.

4- ما الذي حمله سيدنا نوح عليه السلام من الكائنات في سفينته ولماذا؟.

5- ما هو معنى اسمه الشريف (**نوح**) عليه السلام؟.

6- قال رسول الله ﷺ «**يَا فَاطِمَةُ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ لَا أَمْلِكُ لَكِ مِنْ اللهِ شَيْئًا**» اشرح الحديث الشريف.



الدرس الثاني والعشرون

تحطيم الأصنام

طلابنا الأعزاء: سيكون درسنا اليوم عن عمل عظيم من أعمال سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد ذكره القرآن الكريم ليكون ذكرى خالدة للبشر.. فما يقصّه الله علينا في القرآن الكريم ليس مجرد حكايات وروايات، بل بهذه القصص الواقعيّة الحقيقيّة قصٌّ للباطل وهدمٌ له وإقامةٌ للحق ودعمه.. إن في قصص القرآن الكريم عبرة وفائدة للإنسان الذي يريد الحق ويبحث عنه..

سيدنا إبراهيم عليه السلام نشأ في بلدة كانت تعبد الأصنام، وحتّى والداه كانا يعبدان تلك الأصنام، ولكنه عليه السلام كان يفكّر بكلِّ شيءٍ من حوله، فلم يماشِ الناس على ضلالهم بل هداه تفكيره إلى أنَّه لا يمكن لهذه الأصنام أن تكون خالقاً ولا رازقاً فكيف لي أن أعبدها وأطلب منها حاجتي؟.

عَلَيَّ أن أطلب ما أريد من الخالق تبارك وتعالى، وليس من صنم يصنعه الناس بأيديهم، إن هذا الصنم لا يستطيع أن يتحرك من مكانه بل هو بحاجة لمن يحركه، لقد توصَّل بسرعةٍ بتفكيره أن عبادة الناس للأصنام شيءٌ سخيف فعلاً.. ولكنَّ هذا الأمر للأسف هو المستشري بين الناس والمتفشيِّ بينهم، ولقد توارثوه فاتبعوا وقلَّدوا ما وجدوا عليه أجدادهم من غير أن يفكِّروا بهذا الأمر الخطير، ولا حتَّى ذرة من تفكير!.. أما هو عليه السلام فقد توصَّل من خلال الكون لله تعالى وشهد بنفسه أن **لا إلَه إلَّا الله**، أي: لا مسيِّر

في هذا الكون إلَّا الله تعالى، وأراد من شدَّة حبِّه وعطفه على قومه أن يصلوا للإيمان بالله بالتفكير بهذا الكون كما توصل هو من قبلهم، لذلك سألهم سيدنا إبراهيم عليه السلام منتقداً طريقة عبادتهم لعلَّه بسؤاله يحرِّك فكرهم قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[1].

وكلمة: ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تعني: الأصنام، فهذه الحجارة منحوتة على شكل أشخاص قدماء تمثِّل صورتهم.

وكلمة: ﴿عَٰكِفُونَ﴾ تعني: تعبدونها وأنتم مائلون إليها بالمحبة.

بعد سؤاله عليه السلام أجابه قومه: ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾[2].

ومن هذا الجواب يتَّضح أَنَّ القوم اعترفوا أنهم يتَّبعون آباءهم من غير تفكير، فكما أن آباءهم كانوا يعبدونها فهم كذلك يعبدونها!.

على الإنسان أن لا يتبع أحداً من دون تفكير، الله تعالى منح الإنسان جوهرة عظيمة وهي هذا الفكر، بالفكر يقارن ويبحث.. وبالفكر يهتدي للحقّ.

وهكذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يفكِّر بكلِّ شيء، فاهتدى بسرعة للحقّ ونبذ الأصنام.

فقال لهم عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (52).

(2) سورة الأنبياء: الآية (53).

(3) سورة الأنبياء: الآية (54).

والضلال هو عكس الاهتداء والسعادة، **والمبين**: هو الأمر الواضح المكشوف، لذلك قال لهم عليه السلام أنهم بعيدون عن طريق السعادة والاهتداء، وهو أمر واضح وضوح الشَّمس برابعة النَّهار، أيعبد الإنسان صنماً!.. حجراً تنحته بيدك أيكون إلهاً؟!.. هل هذا الحجر هو الذي خلق للإنسان سمعه وبصره، ويديه ورجليه، هل هو الذي خلقه في بطن أمِّه وأتى به لهذه الدنيا؟!.

لا بدَّ للإنسان من التفكير بهذا الكون، فليفكِّر بدوران الكرة الأرضية حول نفسها حيث اللّيل والنَّهار، ما أعظم من يدوِّرها، ليفكِّر كيف ينزل الماء من السماء، بالشمس، البحر، الغيم، الرياح، المطر ونظام هطوله، ألا توجد يدٌ منظمة؟! هذه المياه الموجودة على الأرض من أين تنزل من السماء؟. من الذي ينزلها؟ ما هذه الحيوينات التَّي تسري إلى الأثمار، وبكلِّ ثمرة نوعٌ من الحيوينات، ما هذه اليد الَّتي توصل كلَّ نوعٍ إلى ثمرته؟ عندما تنضج الثمرة ما الذي يقطع عنها الغذاء، فلولا ذلك لاستمرت في النماء، ولوصلت التُّفَّاحة إلى حدٍّ كبيرٍ في الجسامة والضخامة، فما هذه اليد التي تعطي كلَّ شيءٍ بمقدار؟.

هل الصنم هو الذي خلق الإنسان في بطن أمه ووضع له كل جهاز في محله؟. حين سمعوا منه هذا المنطق قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾[1].

لقد وجدوا أن كلامه حقّ، ولكنهم ولخبث نفوسهم وقلة تفكيرهم يظنون

(1) سورة الأنبياء: الآية (55).

بكلٍّ صادق أنَّه يتلاعب بهم بكلامه العالي، لذلك ردَّ عليهم: ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

وكلمة: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أي: أظهرهن على هذا النظام الكامل، انظروا بهذا الكون وفكِّروا فيه ألا يوجد لهذا الكون مُربٍّ يربِّيه ويمدُّه بالحياة؟ من الذي جعل لهذا الكون هذا النظام الصارم بالدِّقة؟.

من الّذي رتَّب الفصول الأربعة والليل والنهار؟.

ألا تفكِّرون لماذا رتَّب الله كلَّ ذلك، ولماذا أرسلكم لهذه الدنيا؟.

وأما قوله عليه السلام: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي: إن شِئتم وأردتم أُبيِّن لكم.

لكنَّهم رفضوا وظنُّوا لعدم تفكيرهم أنه يتلاعب بهم بكلامه الجديد، هذا الكلام ما سمعوه من أحدٍ سابقاً، والذي لا يفكِّر يخاف من كل شيء.

قال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[2].

وكلمة: ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ أي: تسيير الله كلّه بأسمائه الحسنى. كل ما يجري بهذا الكون هو بعلم الله تعالى، وكلُّه خيرٌ بخيرٍ على الإنسان.

وَكلمة: ﴿ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ أي: أُدبِّر لها تدبيراً من أجل هدايتكم.

قال ذلك بنفسه الشريفة.. هم لم يقبلوا بالمنطق الذي حاورهم به، رفضوا بيانه العالي.. لذا قرَّر عليه السلام أن يجعل النقاش مع قومهِ بلغةٍ عمليَّة، لقد عزم

(1) سورة الأنبياء: الآية (56).

(2) سورة الأنبياء: الآية (57).

على أن يكسِّر لهم أصنامهم ليُريَهم بالعملي أنَّها لا حول لها ولا قوَّة، وضع خطةً محكمة لتكسير الأصنام وعمد لتنفيذها في الوقت المحدّد.

ولكن هل قدَّر سيدنا إبراهيم عليه السلام عواقب هذه العملية الخطرة؟.

نعم، إنَّه خير من يُقدِّر نتائج هذه العمليَّة العظيمة، إنَّه يعلم أن حياته ستكون الثمن لمثل هكذا خطة كبيرة، أنَّه سيُواجه أمَّةً كاملة لوحده، أمَّة عريقة وقوية، ولكنَّ حياته عليه السلام يقدِّمها تضحية لله تعالى من أجل هداية قومه الضَّالين، الجاهلين، الخاسرين.. إنهم يخسرون الآخرة وما فيها من جنات أبديَّة بعبادة أصنامٍ تافهة تجلب لهم الشقاء في الدنيا والنار في الآخرة.

لقد عزم على شيءٍ كبير وسأل الله التوفيق في عمله.. وهذه الخطَّة إن نجحت فإنَّها ستغيِّر حياةَ قومه جميعهم.

وجاء الوقت المناسب والذي كان يترقَّبه.. كان القوم منشغلون باحتفالٍ شعبيٍّ مهيب، والكلُّ يلهو ويَسْمَر بهذا الاحتفال الكبير، وهنا سنحت الفرصة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فدخل المعبد وهو يحمل بيده الشريفة فأساً.. فعمد إلى الأصنام وكسَّرها كلها باستثناء الصنم الأكبر، تركه ولم يحطِّمه ثم علَّق الفأس عليه، وترك للقوم مفاجأة كبيرة ما كان ليستطيع إنسانٌ بذلك العصر أن يتصوَّرها، أو يتخيَّل حدوثها.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[1].

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (58).

وكلمة: ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: قطعاً صغيرة مرميَّة على الأرض.

وكلمة: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلَّهم يرجعون إلى الله تعالى ويتخلَّصون من كفرهم، يرجعون إلى تفكيرهم ليهتدوا، فإن فكَّروا بأمر هذه الأصنام المرميَّة قطعاً على الأرض وجدوا أنها لم تقوَ على الدفاع عن نفسها، وأن هذا الصنم الكبير الذي ما زال سالماً لم يستطع أن يردَّ عن باقي الأصنام شيئاً، وأنَّه لا حول لها ولا قوَّة، عندها يعلمون ضلالهم ويندمون على عبادتها، وعند ذلك تسهل هدايتهم والأخذ بيدهم وإخراجهم من الظُّلمات.. ظلمات الآباء إلى نور الله والرسول.

انتهى الاحتفال الشعبيّ وانقضت تلك اللّيلة بما حملت من أعمال سيّئة ستبقى برقابهم، انتهت تلك اللّيلة وهم لم يعلموا ماذا فعل بأصنامهم ذلك الفتى العظيم، وما أن دخل كهنة المعبد معبدهم حتَّى شاهدوا ما جعلهم مصعوقين، فتحوا أفواههم وشخصت أبصارهم من هول تلك الفاجعة، وبحرقةٍ وألمٍ شديد: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وبَيْن بعضِهم البعض ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[2].

فقرَّروا بعد أن ضجَّ الخبر بكلِّ أرجاء المدينة أن يرسلوا وراء سيدنا إبراهيم عليه السلام ليتأكَّدوا من صحة ما سمعوه، ولأن الأمر مهمٌّ جداً وخطير سيتم استجوابه داخل المعبد.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (59).

(2) سورة الأنبياء: الآية (60).

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴾[1] عليه أنه هو الفاعل.

جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يسير بخطواتٍ ثابتة.. ويمشي مشية عزٍّ وافتخار، مرفوع الرأس بعمله الكبير، كان السرور ظاهراً على وجهه الشريف، كأنَّه قادمٌ لاستلام جائزةٍ كبيرة أو مكافأةٍ عظيمة! وبالحقيقة إنه قادم نحو الخطر الداهم.. نحو الإعدام.

فما إن دخل المعبد حتى وجد وجوهاً يكسوها الغيظ الشديد، وتتحرق بلهفةٍ لمعرفة ما حدث في تلك الليلة، التي أصبحت تاريخاً لهم، وعلى الفور سألوه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾[2].

نظر سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأصنام المكسَّرة ونظر للصنم الكبير الذي ما زال الفأس معلَّق عليه وقال لهم مجيباً: ﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا .. ﴾ هذا الصنم الكبير ﴿ فَسۡـَٔلُوهُمۡ .. ﴾ هيا اسألوهم من الذي فعل بهم ما فعل ﴿ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ سيقولون لكم من الذي فعل بهم ذلك..

لقد حرَّك لهم تفكيرهم الجامد رغماً عنهم، على الرغم من أنَّ عبادة الحجارة جعلت تفكيرهم وقلوبهم كالحجارة، ولكنه عليه السلام حرَّض تلك الأدمغة على التفكير..

حقّاً إنَّها خطة عظيمة ولا تصدر إلا عن إنسانٍ مؤمنٍ مفكرٍ بصير، فأيّ جوابٍ سيجيبون به الآن؟.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (61).

(2) سورة الأنبياء: الآية (62).

إنَّهم ورغماً عنهم سَيُقِرُّون ويعترفون بأنَّ هذه الأصنام لا تتكلم، فكيف لنا أن نسألها.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ لقد بُهتُوا بجوابه وعَرَفوا أنَّ عملهم كان خطأً كبيراً.

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

رجعوا للحق وأقرُّوا بضلالهم..

ولكن سرعان ما تعالت الأصوات.. أصوات الكهنة الذين خجلوا من أن يكشف لهم فتىً في مقتبل العمر ضلالَهم وضلال آبائهم وأجدادهم، فمن بعد الحجَّة الدامغة والتي لا لبس فيها أبداً ولا غموض ارتدوا وعادوا للكفر ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[2].

إن كلمة: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ ﴾ بمعنى: ارتدوا وعادوا.

وكلمة: ﴿ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ بمعنى:رجعوا عن تفكيرهم الذي برؤوسهم الذي حرَّكه سيدنا إبراهيم عليه السلام وعادوا لضلالهم، وقالوا بين بعضِهم البعض: أنتم تركتم الأصنام بدون حماية، كان يجب عليكم حمايتها، هنالك ردَّ عليهم سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوَّةٍ وبإصرارٍ يهدُّ به جبروتهم وطغيانهم ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴾[3].

ما هذه السخافة.. أتعبدون حجارة... ملقاة على الأرض قطعاً أيضاً؟. إذا

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (64).

(2) سورة الأنبياء: الآية (65).

(3) سورة الأنبياء: الآية (66).

كانت هذه الحجارة غير قادرة على الدفاع عن نفسها فكيف يمكن لها أن تنفعكم أو تضرّكم؟. لماذا هذا الخوف منها..؟ أجيبوني!.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

وكلمة: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ تدل على ضجره منهم. بعد ما بينت لكم بالمنطق والحجة وكسرت حاجز الخوف عندكم من هذه الأصنام لا زلتم تريدونها! حقاً إنه شيء سخيف..

هذه الأصنام ليس منها شيء.. لا فعل لها.. فالله أعطاكم الفكر لماذا لا تفكِّرون وتتركون هذا الضلال؟.

أتتركون الله الخالق المنعم الرزَّاق وتلحقون بأناسٍ ضالين ماتوا منذ أمد بعيد؟.

ولكن هؤلاء القوم الذين امتلأ قلبهم قسوةً ولؤماً قرروا أن يحرقوا سيدنا إبراهيم عليه السلام، جزاءً له لتكسيره أصنامهم، وصمُّوا آذانهم عن كلِّ منطقٍ وحجَّةٍ قويَّةٍ خاطبهم بها هذا الرسول العظيم.

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾[2].

حكموا عليه بإلقائه في النار.. ظنوا أنه سيخاف منهم ومن نارهم، وسيتراجع عن كلامه حينها تعود لهم هيبتهم التي فقدوها دفعةً واحدةً بتكسير الأصنام، ولكنه عليه السلام هدَّهم بشجاعته قائلاً لهم: ﴿ ..وَلَآ أَخَافُ مَا

(1) سورة الأنبياء: الآية (67).

(2) سورة الصافات: الآية (97).

تُشۡرِكُونَ بِهِۦ.. ﴾[1].

لقد أوقد أهل المدينة ناراً واستمرت لأيامٍ حتى ارتفعت ألسنة اللّهب إلى السماء، أرادوا أن يجعلوا منه عبرةً لكلِّ من يتجرّأ على الأصنام ثانية، أما الله تعالى فقد أراد أن يريهم معجزةً كبيرة تحصل على أيديهم أنفسهم وبالنار التي أعدُّوها وأشعلوها.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[2].

لشدَّة النار التي أشعلوها لم يستطيعوا أن يقتربوا منها.. لأجل ذلك اخترعوا المنجنيق (آلة للقذف) يريدون أن يضعوه فيها ويقذفوه إلى النار.

وفعلاً تركهم الله تعالى ينفِّذون خطَّتهم القاسية برضاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وتضحيته في سبيل أن يروا معجزةً لعلهم يهتدون.. ولما وُضِع سيدنا إبراهيم في المنجنيق لإلقائه في النار أتاه جبريل عليه السلام فقال له: هل لك من حاجة؟ فقال: منك لا. فقال: فمن الله؟ قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي. اتركني يا أخي. قال ذلك لأنه عليه السلام عارف أن ربه كله رحمة وحنان، وما أَنْ قذفوا سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى النار حتى: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[3].

خرج عليه السلام أمام أعينهم من النار لم يحترق ولم يتضرَّر من الرمية، بل خرج مرفوع الرأس مشرق الوجه وكأنَّه القمر في ليلة البدر وكل ما يرجوه ويتمناه

---

(1) سورة الأنعام: الآية (80).

(2) سورة الأنبياء: الآية (68).

(3) سورة الأنبياء: الآية (69).

من قومه أن يغيِّروا ما بأنفسهم ويهتدوا إلى مربِّيهم وموجدهم..

ولكنهم للأسف البالغ بالرغم من هذه المعجزة الكبيرة لم يقدِّروه ولم يعظِّموه. فهم لم يهتدوا لا بالمنطق الذي بيَّنه لهم سابقاً ولا بالمعجزة الحالية التي جرت أمام أعينهم، بل أصرُّوا على كفرهم وعنادهم المهلك.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾[1].

وكلمة: ﴿كَيۡدٗا﴾ تعني: تدبيراً، وهو قتله حرقاً بالنار جزاءً له على تكسيره الأصنام وليكون عبرةً لغيره.

وكلمة: ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ تعني: الخسارة الشديدة، هناك خاسر وهناك أخسر منه وهناك الأخسر، وهو الأشد والأعظم خسارة.

إن هؤلاء القوم خسروا سيدنا إبراهيم ﷺ، وخسروا كلَّ الجنات التي لو آمنوا لجاءهم بها من الله تعالى، لقد كانت خسارتهم كبيرةً وشديدة.

فكان الأفضل بعد ذلك تركهم لله تعالى.. وبعد خروجه من النار سالماً لم يتجرَّأ منهم أحد أن يلمسه بلمسة أذى[2] وإنما كان رميه بالنار بإذن من الله تعالى لعلهم إن شاهدوا رسوله لم يحترق فتكون هذه معجزة لهم تساعدهم على تصديقه واتباعه ولكنَّهم رفضوه، فهجرهم ﷺ باحثاً عن من يقدر دلالة الله تعالى فيسير بهدْيها.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[3].

(1) سورة الأنبياء: الآية (70).

(2) إن كلمة ﷺ تعني الأمان من الله تعالى فكل الرسل الكرام {عليهم السلام} أي: عليهم الأمان.

(3) سورة العنكبوت: الآية (26).

الأسئلة:

1- عن أي طريق توصَّل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى؟.

2- لماذا أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام تكسير الأصنام؟.

3- هل قدَّر سيدنا إبراهيم عليه السلام العواقب التي ستقع عليه جراء تكسيره للأصنام؟.

4- اشرح الآية الكريمة في قوله تعالى:
﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

5- هل كان سيدنا إبراهيم عليه السلام خائفاً حين استُدعي للتحقيق معه بشأن تكسير الأصنام، وكيف كان قدومه إلى المعبد؟.

6- لماذا ترك الله تعالى القوم ينفِّذون حكمهم على سيدنا إبراهيم عليه السلام بإلقائه في النار؟. ولماذا لم تحرق النار سيدنا إبراهيم عليه السلام؟.

7- هل يعتبر قول سيدنا إبراهيم عليه السلام وإجابته بأنَّ (الذي كسَّر الأصنام هو كبيرهم) كذبة وخطيئة؟!.أم أنه خير مقالٍ في مثل هذا الحال؟!.

التدريبات:

فكر بجهاز السمع الذي منحك الله تعالى إياه، تلك الأذن التي تلتقط الأصوات وتجعلك تتعرف عما يُحيط بك، فكر بهذا الجهاز بعمق.. ثم اذكر الحكمة والفائدة من خلقها من خلال نظراتك فقط، ودون الرجوع لمرجع علمي.



الدرس الثالث والعشرون

قصة وعبرة

الجزء الأول **المؤامـــرة**

أعزائي الطلاب: العلماء ورثة الأنبياء فكما قرَّر قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام حرقه بالنار كما رأينا بالدرس السابق، كذلك أراد المجرمون في هذه القصة قتل العلَّامة الكبير محمد أمين شيخو قدَّس الله سره.. فلماذا؟.

إنَّه ناقوس الخطر يدق.. فالمجرمون قد أجمعوا أمرهم وقرَّروا القضاء على ضابطنا السيد محمد أمين... فهل ستكون نهاية ضابطنا... أم أن الله سيعصمه ويحميه؟.

۞۞۞

لقد كرَّس العلَّامة محمد أمين شيخو حين كان ضابطاً للأمن في مدينة دمشق كل وقته للقضاء على المجرمين وتطهير الشام منهم والخلاص من سيِّء أفعالهم وأعمالهم الإجراميَّة..

أقسم ذلك اليمين بينه وبين نفسه مُعاهداً ربَّه منذ أن تخرَّج من كلية عنبر العسكريَّة كضابط أمن، أقسم على أن لا يهنأ له عيش ما دام الباطل يسري ويرتع فسَيُسَخِّر كل ما أُوتي في سبيل القضاء عليه ناصراً للحق مُقيماً للعدل، ومضى يعمل بذلك..

كانت تلك الفترة هي عصر المجرمين والإجرام الذهبي ولا يأمن المرء على نفسه بعد غروب الشمس واختفاء النور إلاَّ أن يلزم بيته..

وما إن استلم السيد محمد أمين منصبه واستلم كافة الصلاحيَّات ليزاول عمله حتى هجر المنام، فكان يخرج صباحاً إلى عمله ولا يعود إلا بعد الفجر بقليل لينال قسطاً بسيطاً من النوم بعد أن أمضى سحابة نهاره وليله بملاحقة المجرمين يقتحم عليهم مخابئهم ويدمِّر مخططاتهم ويُبطل أعمالهم الإجراميَّة حتى أدَّبهم ولم يبقَ منهم إلَّا القليل / 20-30 مجرماً/ ، كان يؤدِّبهم بنفسه، إذ وجد أنَّه عندما يبعثهم للسجن يلجؤون للرشاوي والوساطات والمعارف ليتمَّ إطلاق سراحهم بالقضاء، وبالتالي يبقون على ما هم عليه من بلاءٍ مُسلّطٍ على الناسِ وعلى أنفسهم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر كان ينصب الكمائن على طرق المجرمين عندما يعودون مخمورين سُكارى، فيُفاجئ السكران حيث تنقضُّ عناصرهُ عليه فيرْمونه أرضاً ويضعون «الفلقةَ» يربطون بها قدَميْهِ فيجلِده حتى تسيلَ الدماءُ من قدميه، عندها يفكُّ وثاقَه ويخاطبُه: عزيزي أيها السِكِّير الخبيث أرجوك أن تخْمر وتسْكر كلَّ يوم وأنا في انتظارك لأرحِّب بك مثل هذا الترحاب الجميل.. والمجرم يتأوَّه ويبكي ولكن هيهات هيهات وقلَّ أن يعود. وبذلك يكون قد كفَّ أذاه عن الناس.

فهذا مثال بسيط من أساليب ضابطنا التي يتَّبعها مع أمثال أولئك.

نعم لقد حاصرهم بكل مكان وسدَّ عليهم الدروب واقتحم عليهم دور الفجور حتى دوَّخهم وشتَّتَ شَمْلَهم ففرَّ قسمٌ منهم إلى العراقِ وآخرون قابعونَ في السجون، وآخرونَ تائبون.

عندها جمع البقيَّةُ الباقيةُ من المجرمين شتاتَ شَمْلِهِمْ ليتدارسوا أمرهم، إذ باتوا بخطرٍ عظيم يتناقشون بوضعهمُ الراهن التعيس علَّهم يجدون حلاًّ.

وفي الاجتماع دار النقاشُ بين المجرمين: أينَ أيام مجدنا وبطولاتنا التي ما عدنا نحلم بها!. أيام كنا إذا خرج أحدُنا إلى السوق فيغلقه. كانت الناسُ تُخلي الشارع إذا رأت أحدَنا... آه على تلك الأيام... أيام عزٍّ وقوَّة... أما الآن أصبحنا يا رجال نريد «سلتنا بلا عنب» فهل هذا الوضع يُطاق.. يا حيف على الرجال.. يا حيف.

رجلٌ واحدٌ يشتِّتُ شمْلَنَا ويهدُّ قوَّتنا ويكسِرُ شَوْكَتَنا لا.. لا.. لا نكاد نصدِّقُ ما يحدث، نريدُ حلًّا لهذا الوضعِ اليومَ وقبل الغدِ، سنقتله مهما كلَّفنا الأمر ولو ذهبت منا الضَّحايا في سبيل الخلاص منه فلا يهم، المهم أن نتخلَّص منه ولو كلَّف ذلك قتل رجل أو اثنين أو ثلاثة وحتى أربعة، فهو واحد ونحن كثيرون فالمهم أن نحقِّقَ هدَفنا ونعود لعزِّنا ومَجْدِنا أسياداً على الناس لا مَسُودين والعزَّة لنا.

وهكذا فلقد توصلوا إلى هذا القرارِ منتصفَ ليلةِ انعقادِ مؤتَمَرِهم وتآمُرهم على قتل ضابطنا باني صرحِ العدالةِ والاطمئنانِ في ربوع الشام، مهبط الأنبياء ومهد الرسالات السماوية.

۞۞۞

كان السيد محمد أمين قد عاد لبيته وأوى إلى فراشه، إذ شاهد أن الأمن والأمان مستتبٌّ ولا حاجة لاستنفاره كالعادة طوال الليل.. فقدِ انهدَّت صروحُ المجرمينَ وسادَ الاطمئنانُ.

ولكنْ يا للغرابة.. فلقدْ أحسَّ بضيقٍ شديدٍ كأن حبلاً يضيِّق الخِنَاق على رقبته.

ضابطنا: خيراً إن شاء الله.. خير!. لعلَّ هناك خطأً قد حدثَ بالقسمِ؟. عليَّ أن أذهبَ مباشرةً لأطَّلع على الأمور وأتداركَ الأخطاءَ إن وُجِدَتْ.

نهض من فراشهِ ولبسَ بزَّتهُ العسكرية مصطحباً سلاحَه ومشى إلى القسم مسرعاً وزوجته نائمة لم تعلم بذهابه.

وفي الطريق التقى برجلٍ قد شرب الخمروكان يسير متثاقلاً يرتطِمُ بالجدران وهو يتمايل يمنةً ويسرة ويكاد يقعُ ثم يتماسكُ متراقصاً كورقةٍ في مهبِّ الريح.. إنه نفس الشخص الذي أدَّبه منذ بضعة أيام مضت.. صفعهُ صفعةً على خدِّه أتبعها بأقوى منها حتى صحا قليلاً من سُكْرِه وعاد إلى صوابهِ فوعى ما يقول، عندَها كلَّمه موبِّخاً: ألم تتبْ وتعاهدني على التوبة، أَرجعت لشربِ الخمور والسكر؟.

ثم تركه وتابع طريقه مسرعاً في مشيتهِ للقسْم ليطمَئِنَّ على الأوضاع هناك.

أما المجرمون فقد أنهوا اجتماعهم وخرجوا لتنفيذ قرارِهم الحاسِم ولو كلَّفهم ذلك ما كلَّف من وقوع ضحايا منهم، ذلك أنه واحد وهم اثنان وعشرون، فليُقتل واحد واثنان ونكونُ قتلناه.. فبعثوا أحدَهم ليبحث عن غريمهمْ يستقصي خبَرَه أَبِالْقِسْمِ موجودٌ أم لا؟. فإن كان بالقسم هجموا عليه جميعاً وقتلوه، ولو قُتِلَ منهم البعضُ.. فسيرتعُ الباقون بإجرامهمْ آمنينَ مطمئنين.

۞۞۞

وصل مبعوثُهم إلى القسم قبل وصولِ ضابطنا «رئيس القسم»، ولـمَّا لم يجِدْهُ بالقسم رجعَ المجرم المبعوثُ لجماعتهِ وأخبرهم بأنَّه في بيته لا بالقسمِ.

سرُّوا كثيراً بهذه الأخبارِ، فهذا ما كانوا يتمنَّوْنهُ.. إذ في البيتِ هدفهم أسهلُ فهو بمفردهِ وهم جماعةٌ.

وبمشيئة القدرة الإلٓهية انطلقوا بطريق مغاير للتي سلَكَها.. ولدى وصولهم إلى بيته هجموا جميعاً شاهرينَ أَسْلِحَتهِمْ مكشِّرينَ عن أنيابِ الشرِّ والإجرام، تطفح على وجوههِم نواياهُمُ السوداءُ الخبيثة.

وكما سبق، بتلك الأثناءِ كان ضابطنا قد وصَل القسمَ. إنه ليس في البيت.

هجم المجرمون باتِّجاهِ بيتِ السيد محمد أمين وبمشيئةِ الله أخطأوُا بابَه، فبَدلَ أن يخْلَعوا بابَه خلعوا بابَ دار جاره.. وأثناءَ خلْعِهِمُ البابَ وصَلَ ذلك الرجل السكران المخمور الذي أدَّبه للتوِّ ضابطنا.. هنالك ثارت ثورةُ الخمرةِ في رأسه فصاحَ بهمْ بصوتٍ كالرعدِ:

يا كلاب.. ماذا تعملون؟. يا قليلي الشرف.. حقراء.. وكال لـهمُ الشتائمَ، شتائمَ السكارى فظنُّوهُ غريمَهُمُ الضابطَ الشهمَ.. تركوا البابَ وهجمُوا عليه.. ظنُّوه وفي ظلمة الليلِ رئيسَ القسمِ الذي يعرِفُونَ بأنَّه قلَّما ينامُ الليلَ. إذاً هو الذي يدافعُ عن بيتهِ لا سواهُ.. فلقد أصبح بين أيديهم فريسةً سهلةً.. وأطلقوا عليه الرصاص فوقع مضرَّجاً بدمه، ثم أفرغوا مخازنَ مسدساتِهِمْ في جسده: بقدميْه ورجليْه برأسِهِ وصدرِهِ، عندما أفرغُوا حقدَهم وشفُوا غليلَهم.. تركوه هاربين مولينَ الأدبارَ، وأما السكران فكان مَرْمِياً على

الأرض مضرجاً بدمائه فاقداً الحياة.



عاد ضابطنا بعد فترة من الزمن وذلك بعد أن زار القسم وتفقَّد أوضاعه ورأى أن الأمن مستتب... الهدوء والأمان بكل مكان، وكل الأمور تجري طبيعيَّة وعلى ما يرام.. هنالك زال ما به من همٍّ وغمٍّ وضيق كان قد ألمَّ به.. أجل رجع ففوجئ بالضجيج حول منزله يشقُّ عنانَ السماء والناس في هرجٍ ومرج.. استغرب لمشهد السكران الذي وللتوِّ كان قد أدَّبه أما الآن فهو ملقىً على الأرض مضرجاً بالدماءِ وفاقد الحياة.

كل هذا الضجيج والأصوات من أزيز الرصاص وصراخ المجرمين وركضهم ما كان ليوقظ زوجة السيد محمد أمين بحكمة الله، بل بقيت تغطُّ في سباتٍ عميق فلم تسمعْ ولم تَرَ.

لقد شاء الله الرحيم ذلك، فلو أنها استيقظت ولم تشاهد زوجها فيا ترى ماذا يحلُّ بها بسبب رعْبها ولهَفها عليه!.

أبتِ المشيئة الإلَهيَةُ إلا أن تنقذَ السيد محمد أمين ناصر الحق وتهدمَ أركان الشرِّ وأهله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[1] وردَّهم فاشلين لم ينالوا منه سوءاً وكفاه الله قتالهم.



(1) سورة محمد: الآية (7).

الأسئلة والتدريبات:

1- بماذا عاهد العلَّامة محمد أمين شيخو ربَّه حين تخرج ضابط أمن من الكليَّة العسكرية؟.

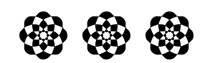
2- كيف كانت الأوضاع الأمنية في مدينة دمشق في أواخر العهد العثماني؟.

3- كيف كان المجرمون يخرجون من السجون بعد إلقاء القبض عليهم من قبل الضابط محمد أمين؟.

4- حين كان الضابط محمد أمين يعاقب المجرم الذي يقع بالكمين، ماذا كان يقول له بعد تأديبه؟.

5- لماذا قرر المجرمون المتبقون خارج السجون أن يقتلوا الضابط محمد أمين شيخو؟.

6- ما الحكمة التي أرادها الله تعالى من أن يجعل زوجة العلَّامة تغطُّ في نومٍ عميق ولم تسمع أصوات إطلاق النار في جوار المنزل؟.



الدرس الرابع والعشرون

الحراس الأمناء

الجزء الثاني ملحمة عظيمة ضد الحرمان واللاإنسانية

رأينا بقصة المؤامرة مؤامرة المجرمين لقتل ضابطنا السيد محمد أمين كيف أفشلها الله عز وجل.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1].

ورأينا بتلك القصة الواقعيَّة كيف استطاع هذا الإنسان العظيم أن يقضي على الإجرام والمجرمين، وأن يُحيل ليل الشام البهيم إلى أُنسٍ وأمنٍ وأمان بمفرده فقط مستعيناً بالله تبارك وتعالى.

هؤلاء الذين أرادوا قتله والتخلص منه هم مجرمون حقيقيُّون، قتلة.. برقابهم أنفس كثيرة..

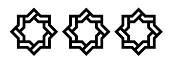
ولكن هناك رجال غدوا مجرمين بسبب واقعٍ مريرٍ وعيشةٍ صعبة كانت تحلّ بهم .. فالفقر وانعدام الطعام والشراب وجوع أبنائهم هو الذي حوَّلهم لمجرمين مرعبين.. هؤلاء كيف سيتعامل معهم؟.

ما هو الحل الذي سيبتكره لهم ليخلِّصهم من إجرامهم وليخلِّص أيضاً أسرهم وأبناءهم من مستقبلهم المظلم؟.

---

(1) سورة الأنعام :الآية (18).

هـذا المصـلح العظـيم، كيـف أحـال ليـل الشـام إلى أيـام مشــرقة دامـت لسـنين عديدة؟[1].



بالحق وبالجدارة

طلابنا الأعزاء: تعجَّب العلماء والفلاسفة الكبار أمثال العالم الشهير السير جون بينت الإنكليزي[2] وكذلك الأديب الكبير الدكتور مصطفى محمود[3] وكثير من العلماء الكبار تعجبوا كيف أتى هذا الإنسان لوحده بهذه الدلالة العالية والتي لا يستطيع إنسان أن يأتي بحرف من مثلها.

والحقيقة أنَّ أعماله الإنسانية الكبرى التي قام بها هي السبب بهذا الفتح الربَّاني العظيم. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.. فبسعيه وبذل روحه وماله في سبيل إحقاق الحقِّ ونصرة من لا ناصر له فتح الله عليه بهذا العلم الَّلدني الإشراقي الذي حيَّر العلماء وأخذ بلبِّ ومجامع القلوب.

---

(1) لطفاً انظر كتاب (**صفحات من المجد الخالد**) وفيه بعض من الأعمال الكبرى للعلَّامة الإنساني محمد أمين شيخو قدّس الله سره.

(2) الفيلسوف الكبير السير جون بينت أسلم على يدي العلَّامة محمد أمين شيخو في عام 1953 بعد حوارات رائعة دارت بينهما، والتي جعلت السير بينت يقول أمام حشد كبير من العلماء الغربيين **«إن كل ما توصلنا إليه من علوم لا يعدل ر ذلك العا الكب الشرق».**

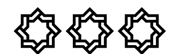
(3) المفكِّر الإسلامي المصري الكبير الطبيب مصطفى محمود صاحب البرنامج التلفزيوني الشهير (العلم والإيمان) وله مؤلفات ومقالات كثيرة، قضى عمره بالبحث والدراسة والفلسفة وهو القائل: لم أقرأ بحياتي كلها كلمة واحدة من كلمات العلَّامة محمد أمين شيخو عند أحد من العلماء لا السابقين ولا اللاحقين وقد أفرد كتاباً خاصاً عن بعض علوم العلَّامة وكان هذا آخر كتاب أصدره في حياته وسماه «**نظرات في صحائف العلَّامة الإنساني الكبير محمد أمين شيخو قدس الله سره**».

إنها مسيرة حياة ولكنها ليست كأية حياة.. إنها حياةٌ مليئةٌ بالكفاح والبذل والمعونة والتضحية والإيثار، فلا يترك عملاً صغيراً يرضي الإلَه إلا ويقوم به، وإذ بهذا العمل الذي يظنه صغيراً لا تقوى على عمله ثِلَّةٌ بحالها.

كان يرى نفسه لا يقدِّم شيئاً وهو بالحقيقة يقدِّم كل شيء، كان كما قال عليه الصلاة والسلام جدّه العظيم: «**اللهم أرني نفسي بعيني صغيراً وبأعين الناس كبيراً**».

كان يسجد لله بينه وبين نفسه إثر كل عمل يقوم به، وهو بالحقيقة في سجود مستمر، وسلَّك نفوساً بطريق الحق فسجدت لربِّها على يديه الطاهرتين.

والآن بهذه الواقعة ترون أعزائي الطلاب كيف حوَّل سبعين مجرماً مع أسرهم إلى حماة للوطن، حماة للبيوت والأعراض فجعل البسمة ترتسم على وجوههم ووجوه أسرهم ووجوه أبناء وطنهم.



حالة الإمبراطورية العثمانية في آخر أيامها:

إن الإمبراطورية العثمانية حين تركت السير بكتاب الله تعالى واستبدلت ذلك بأنظمة وقوانين البشر الوضعيَّة تبدَّلت أحوالها نحو الأسوأ، وبدأ الضعف يعمل فيها ويأخذ منها كل مأخذ، حتى سميت عند الغرب بالرجل المريض.

هذا هو حال الامبراطورية العثمانية في أوائل القرن العشرين، لذا لا عجب أن حلَّت الفوضى وساد الإجرام في أنحاءٍ مختلفة من بلاد الشام الواقعة

تحت حكمها، لقد تقهقر الأمن واضطربت الطمأنينة وعانى الناس ظروفاً لا يحسدون عليها، فَكَثُر الفقرُ والحرمان، النهب والسلب والسرقات، هنالك شعر المواطنون بالخطر الداهم، فما أن تغرب الشمس ويحلُّ الظلام حتى توصد أبواب البيوت وتخلو الشوارع من المارة وخصوصاً بمنطقتي الصالحيَّة والأكراد.. فالفوضى العارمة بأشدِّها، أما الخارج من بيته بعد الغروب فلا يلومنَّ إلا نفسه لأنه سيكون فريسةً لقطَّاع الطرق واللصوص أو غنيمة لأمثالهم المجرمين، فهو إما مسروق أو مقتول..

۞۞۞

بتلك الأثناء وحيال هذا الواقع وكعمل أمنيّ، قام قائد الجيش «القومندان» بتحرير كتابٍ مستعجل بتعيين ضابطنا السيد محمد أمين مدير ناحية في منطقة جبل الأكراد بدمشق، ومنحه كامل الصلاحيات لتنفيذ الأهداف التي يريد تحقيقها في سبيل إعادة الطمأنينة للناس، لقد فوَّضه تفويضاً كاملاً ومنحه كافة الصلاحيات وذلك لما شاهده منه.

تَلقَّى ضابطنا الكتاب وبناءً عليه خرج إلى تلك المنطقة واستلم رئاسة قسمها «المخفر»، وبدأ هناك بأعماله التطهيرية وخططه العبقرية حتى أمسك زمام الأمور بقبضةٍ من فولاذ، قضى على كلِّ مظاهر الفوضى والاعتداء بدون أدنى تهاون أو استهتار، حتى أحلَّ الأمن الحقيقي في المنطقة، وذلك حصيلة جهدٍ متواصل شاق، لم يكن يكلّ أو يملّ ولم تفتر له عزيمة، حتى غادر مقلتيه النوم، يسهر الليالي الطوال يجتثُّ الإجرام والاعتداءات، ويقضي على

المنكر والرذيلة، حيث لاحق الفاعلين في ارتكاباتهم وقبض عليهم وعاقبهم أشد العقوبات، هاجمهم في أوكارهم الجبليَّة حتى زرع جبل قاسيون وجبل الأربعين بحوافر خيله ومن معه من دوريات، فما تمرُّ من ليلة إلا وله فيها مخططات ينفِّذها باقتحامات ومداهمات في أعالي الجبلين حيث مخابئ المجرمين، حتى أحال أمنهم رعباً، لم يتصوَّروا يوماً من الأيام استلام ضابط له من البطش والجرأة والشجاعة ما يجعله يهاجمهم في معاقلهم، ويقتحم عليهم أوكارهم فيقبض عليهم ويذيقهم ألوان العقاب أو ليضعهم في السجون، ينفِّذ عمليات فدائيَّة صاعقة للباطل وأهله من أجل أن يرتع الناس بالأمان، ويعيد لهم طعم الحياة وللأطفال ابتسامتهم.

كان يسهر ويشقى، يبذل راحته ويضحِّي بروحه لينام الناس آمنين مطمئنين.

واستطاع بجهده المتواصل أن يزجَّ بقسمٍ من المجرمين في السجون، أولئك الذين أصرُّوا على ما في نفوسهم من حبٍّ للإجرام والاعتداء والسلب والنهب، وآخرون من نفس الفئة هربوا خارج البلاد بلا رجعة خشية السجن والإذلال.

وهناك قسمٌ كبيرٌ آخر تاب على يديه وأناب فلم يعودوا ليتجرَّؤوا أو تسوِّل لهم نفوسهم أيَّ عمل منكر أو إجرام.. وذلك لشديد ما سيلاقونه من عقاب.

۞۞۞

وفي مكتبه، نظَّم قوائم صنَّف فيها جميع أولي الأسبقيَّات في عدة أصناف، قائمة خاصَّة بالفارين الذين غابت وجوههم عن مرآه، وأخرى تضم أسماء

المسجونين منهم بأحكام مختلفة ولم يرتدعوا بعد عما هم فيه، فما أن يخرجوا بعد انتهاء مدَّتهم حتى يقعوا ثانيةً بشرور أعمالهم فيعودون للسجن والإذلال، وقائمة خاصَّة بالساكتين على مضضٍ المتنعين عن القيام بالإجرام وما يزالون يَتُوقُون للإجرام في سيرهم، ولكنهم يخشون سلطة ضابطنا ويخافون بطشه، هؤلاء مُراقبون ولكنهم أخفُّ درجة.

وقائمة خاصة بالتَّائبين حقيقةً الذين أصبح سيرهم مأموناً، وقد بلغ عدد هؤلاء سبعين رجلاً، وبذلك استطاع أن يطهِّر المنطقة من كلِّ ما يزعجها من سرقةٍ وسلبٍ ونهبٍ وغيره من الاعتداءات التي قد تصل للقتل والإجرام.

عندها حلَّ الأمن وساد الأمان وعادت في منطقته الطمأنينة لقلوب الناس ثانية، فعادوا يمارسون حياتهم بحرية وسلام ليلاً ونهاراً، يرتادون المساجد ويدخلون الأسواق، ويخرجون للبساتين والحقول..

بعد ذلك استطاع هذا المجاهد الكبير أن ينام بعض ليالي الأسبوع في بيته ولا يناوب في القسم ويخرج لمهمات المداهمة في الجبال.

۞۞۞

ذات ليلة وإثر مغادرته القسم لداره طُرِق الباب، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بساعتين.. غريب!. من الطارق بمثل هذا الوقت من الليل؟!.أطلَّ من فتحةٍ فوق الباب تطلُّ على الطريق وبيده مصباح، وصاح: من الطارق؟.

جاءه الرد: سيدي حراميَّة (لصوص).

استغرب ما سمعه فنادى ثانية وبصوت أعلى: من الطارق؟.

قالوا: سَيِّدي نحن لصوص.

أمرٌ غريب.. بل غريبٌ جداً!.

عاد مباشرة لغرفته فأخرج مسدسه من تحت وسادته وزجَّ الطلقة بحجرة الانفجار، ثم مدَّ يده لوصاد الباب وفتحه وفجأةً برز منقضَّاً مشهراً مسدسه، وللغرابة فقد رأى ثلاثة رجال بوضعيَّة المسالمة ويظهر الخوف والرعب وقد سيطر عليهم!..

بدا من ورائهم بغلٌ وعليه كيس. سألهم: ما الأمر.. ما بالكم؟.

قال أحدهم وهو يرتجف: سيدي سنخبرك بقصَّتنا، ونرجوك يا سيدي أن تساعدنا.. نرجوك، فلقد جئناك ونطمع بكرمك وعونك.

قال السيد محمد أمين: تفضل هاتِ ما عندك.

تشجَّع الرجل وانطلق بحديثه يقصُّ قصتهم شارحاً السبب الذي ساقهم بمثل هذا الوقت لمنزل رئيس القسم.. فهؤلاء الثلاثة كل منهم أبٌ لأسرة، لهم زوجات وعندهم أولادٌ صغار، ولكن ليس لديهم قوت يومهم، حتى الخبز فقد نفد من بيوتهم الخاوية، أما جيوبهم فخالية من النقود ومطابخهم فارغة من المؤن، وفي البرد القارس لا يوجد عندهم حطب للتدفئة؟!.

صرخ الأولاد: جائعون نريد أن نأكل وبكوا.. فبكت الأمهات، واعتصر الألم قلوب هؤلاء الرجال فصكُّوا بأسنانهم وفَرَكُوا بأيديهم، حتى نفد صبرهم وخرج كلٌّ منهم إلى الحي.

خرج الأول وهو ينوي أن يسرق ولو كلَّفه ذلك أشدُّ أنواع العقاب، ومشى بالشارع ثائراً غاضباً فالتقى بالآخر وقد خرج لذات السبب ونفس الطلب، فسارا سويّاً بعد أن عرفا أن الذي أخرجهما هو شيءٌ واحد.. وما هي إلا دقائق حتى التقيا بالثالث وقد خرج لنفس الظروف والطلب.

وفي الطريق اتفق الثلاثة على التسلُّل للمطحنة «مطحنة أهليّة» ليسلبوا منها كيساً من الطحين فيقتسموه مثالثةً فلعلَّه يسد رمق أسرهم.. تابعوا مسيرهم باتجاه المطحنة وفي الطريق خطَّطوا للهجوم عليها، هذا بالنسبة لهم أمرٌ سهلٌ يسير فلقد أمضوا سنوات بهذا المسلك.

وصلوا المطحنة ومباشرة تسوَّروا سورها وفي الداخل عند أحد زوايا السُّور كان هناك بغل كبير خاصّ بالمطحنة انطلق إليه أحدهم ففكَّ رباطه بينما دخل اثنان لغرفة فيها أكياس الطحين فأخرجوا منها كيساً حَمَّلوه على ظهر البغل وسار الثلاثة بهدوء يجرون البغل باتجاه باب المطحنة الخارجي، بتلك الأثناء وفي ظلمة الليل (حيث لم تكن بذلك العهد قد انتشرت الكهرباء) استيقظ حارس المطحنة على أصوات وقع أقدام خفيفة تعكر صفو الليل وسكونه..

نهض من فوره ثم وبسرعة خرج من غرفته وصاح: من هناك؟ ماذا تفعلون؟!.

بتلك اللحظة كان أحدهم قد صوَّب مسدسه وأطلق باتجاه الصوت طلقة واحدة، فاختفى الصوت ولم يعد لينطلق ثانية!. تُرى هل أصابه.. هل قُتلَ؟.

ثم لاذوا بالفرار، فلقد سمعوا بآذانهم وكأنَّ شخصاً قد هوى على الأرض واختفى صوته من بعد الطلقة.

وصلوا بعدها إلى دار أحدهم حيث جلسوا هناك يقتسمون الطحين، وقبل أن يصلوا وفي الطريق ابتعد واحد منهم منفرداً عنهم لقضاء حاجة، بتلك الأثناء عاد ليتذكر ألم السياط التي نالت من كل أنحاء بدنه فأدمته، تذكر مرارة ذلك اليوم، يوم ضربه رئيس القسم عقاباً على عمل صدر منه، إذ لم تمضِ عليه إلا أيامٌ قليلة، وما أَنْسَاهْ إلا معاناة الصغار للجوع والحرمان، ولكن الآن وقد وقع ما وقع وتصوَّر ما سيلقاه على هذا العمل، فهو على يقين تام أن رئيس القسم سيكتشفه ويقبض عليه.. أدرك ما بات عليه من خطر، عاد إليهم ودخل البيت وما يزال يفكر في مصيره المشؤوم ويزداد رعباً وهو يحسب ألف حسابٍ لعقاب رئيس القسم البطاش «حسب نظرته له»، وبينما الاثنان الآخران سيبدآن القسمة، أحسَّ برجفةٍ عنيفة فصرخ:

«لا تبلوني الله يستركم لا تبلوني.. أنا لا أريد حصَّتي من كيس الطحين هذا، سامحتكم بها واتركوني وشأني كأني لا رأيتكم ولا رأيتموني.. وليذهب كلٌّ مِنَّا في حال سبيله، خذوا كيس الطحين لكما.. لست شريككما بالسرقة».

ذُهلَ الآخران لِـمَا سمعوا وسرى الرعب لقلبيهما فقالا: رِجْلُنا ورِجْلُك في الركاب، وما سيحيق بنا يحيق بك.. أما هو فازداد رعباً وتملُّصاً حتى هيمن الجبن على قلوب الجميع!.

ولكن ما الحل وقد وقعت الفأس بالرأس، ما العمل.. ماذا سنعمل وقد وقعنا بقتيل وسرقة.. كيف نتخلَّص من هذه الورطة؟.

قال أحدهم: ما رأيكم يا شباب أن نذهب إليه، إلى رئيس القسم، صحيح إنه قاسٍ وبطَّاش لكنَّه رجلٌ شجاعٌ «قبضاي» وشهم ولا يَرُدّ طالبيه بمساعدة أبداً، فوالله سمعت الكثير عن شهامته وكرمه وعن كبير المساعدات التي يقدِّمها لمن يقصده من أهل الحيِّ والمقطوعين، ما رأيكم أن نذهب إليه الآن ونقص عليه قصَّتنا وعن ظروف أسرنا التي أجبرتنا أن نعود لمثل هذه الأعمال؟ أنا متأكدٌ أَنَّه سيساعدنا.

واتفقوا جميعاً على هذا الرأي وانطلقوا مباشرةً إلى القسم لعلمهم أَنَّه بمعظم الأحيان يناوب ليلاً في القسم.

ولما اقتربوا من القسم بدأ الخوف يغزوهم ويسيطر عليهم الرعب أكثر، إذ أَنَّهم يخافون هيبته وشدَّته رغم أنهم يتوقعون مساعدته لهم!.

وقبيل وصولهم القسم بقليل بعثوا أحدهم يستطلع هل هو حقاً بالقسم أم لا، لحظات وعاد إليهم فرحاً إذ لم يجده بالقسم! حتماً هو في منزله، فلربَّما بالقسم قبض عليهم مباشرةً وزجَّهم بالسجن للتعذيب والإذلال، أما في منزله فاحتمال مساعدته لهما أكبر بكثير وخصوصاً أَنَّهم حَلُّوا في بيته يطلبون العون والرحمة، انطلقوا للمنزل على وجه السرعة يجرُّون وراءهم البغل وعليه كيس الطحين.

الآن فَهِمَ ضابطنا السيد محمد أمين قصَّتهم وفَهِمَ سبب حضورهم في هذا الوقت المتأخِّر من الليل.

حمد الله كثيراً في نفسه، فلقد أدرك أن ثمرة أتعابه وجهوده الشاقة لم تذهب سدىً، وأنَّهم يحسبون له ألف حساب حاضراً كان أم غائباً.

سألهم: وهل مات الحارس؟.

قالوا بأصواتٍ ترتجف خوفاً: سيدي نحن أطلقنا النار عليه وشعرنا أنه ارتمى على الأرض فقط واختفى صوته، ولا ندري أكثر من ذلك عنه.

صمت قليلاً ثم قال: أتمنى من الله أن يكون على قيد الحياة، وأنا سأساعدكم قدر الإمكان. والله يستر أن يكون قد قُتِل.. على كلِّ حالٍ أعدكم أنَّني سأبذل كل ما بوسعي في مساعدتكم.

والآن أدخلوا البغل وكيس الطحين إلى بايكتي «الإسطبل العائد لرئيس القسم بداره» وغداً حوالي الساعة العاشرة صباحاً يأخذ أحدكم البغل وعليه كيس الطحين للمطحنة، يربطه هناك بشجرة ويتركه.

قالوا بعد أن رُدَّت إليهم أرواحهم وزال الخوف عنهم: هذه بسيطة يا سيدي.

وقبل أن يغادروا طلب منهم الانتظار قليلاً، ثم قال: اتبعوني.

أما هو فقد دخل غرفة المؤونة داخل المنزل حيث أكياس الطحين ومن خلفه الرجال الثلاثة، أشار لكيس طحينٍ وقال: خذوه، كلوه حلالاً بدل ذاك الكيس بالحرام.

لقد صدق ظنُّهم، فهو حقاً شهمٌ كريمٌ لا يردّ طالبه، غادروا بعد أن أزال عنهم ما ألمَّ بهم من مقاساة ومعاناة هذه الليلة المريرة.

أما هو فدخل غرفته بعد مغادرتهم وصلى ركعتين وسجد لله حامداً شاكراً على ما ألبسه من ثوب الهيبة حتى جعل أمثال أولئك الجبابرة الطغاة يلتجئون إليه.

۞۞۞

وفي الصباح عندما وصل إلى القسم حدث ما توقعه، إنها شكوى المطحنة، سرقةٌ موصوفةٌ باقتحام المطحنة وسرقة البغل وكيس الطحين وإطلاق الرصاص على الحارس، حيث أصيب بجرح طفيف بكاحله لا أكثر، عندها حمد الله كثيراً أن الحادثة لم تودِ بحياة الحارس، ثم وعلى الفور فتح ضبطاً على ورقةٍ خارجيَّة «لعلمه بالنتائج» بالواقعة كما أخبروه ووعدهم خيراً.

لما عاد المدَّعون إلى مطحنتهم وجدوا البغل مربوطاً بالشجرة وعليه كيس الطحين!. مباشرة عادوا إلى القسم ليخبروه بعثورهم على البغل وكيس الطحين.. وأخبروه أنهم تنازلوا عن الدعوى، عندها مزَّق الضبط وبذلك خُتِمَت القضية.

كانت النتائج سليمة، وكما وعد الثلاثة وفَّى.

ولكنَّ هذا الحادث والاعتراف الذي سمعه من الثلاثة وما يعانونه وأسرهم من جوعٍ وفقرٍ وحرمان، جعله يدرك حقيقةً وواقعاً أليماً.. فهذا وضعهم لم يتبدل لا من قبل توقُّفهم عن إجرامهم ولا من بعده، فالمعاناة والجوع

والحرمان هي هي بالنسبة لهم، والطحين الحلال لهم مسكِّنات لبؤسهم لا يلبث مفعوله أن ينتهي فيعودون للإجرام من جوعهم وجوع أسَرهم.

هذا الحادث لفت انتباه هذا الضابط الإنسانيِّ إلى وضع سبعين أسرة تعاني المعاناة نفسها من البطالة والجوع والحرمان، وجعله يمكث ليلة طويلة يفكِّر بهم.

راتبه الذي يتقاضاه شهرياً لا يمكن أن يكفي إلا لجزءٍ بسيطٍ منهم، ولكن الباقين.. كيف؟..

إنهم سبعون اسماً مدوَّناً عنده بالقائمة، مجرمون ولكن الثلاثة أضحوا تائبين، ومن قبل ما أكرههم على الإجرام إلا الجوع والحرمان، والآن بعد أن تركوا على يديه طريق الإجرام كيف لهم أن يؤمِّنوا أقوات أسرهم ويسدُّوا رمق صغارهم بعد استهلاك كيس الطحين؟!.

وعلى الأخصِّ أنَّ سمعتهم مطعونٌ بها، وما من أحدٍ يرغب بتشغيلهم كعمال ومستأجرين مثلاً، عداك عن السمعة السِّيئة، إذ يكفي لأشكالهم وصورهم التي جار الزمان عليها وصَكَّها الشقاء والحرمان بطابعه وصبغها السلوك الملتوي في تأمين لقمة العيش فباتت مرعبة لا توحي إلا بأنَّهم مجرمون قاتلون.. لصوصٌ سارقون.

كان الناس من قبل استلام الضابط السيد محمد أمين يهربون منهم خوفاً، والآن أنَّى للناس أن يألفوهم بيومٍ وليلة ويَأْمَنُوا جانبهم؟!.

إذاً هذا واقعهم وهذه الدراسة والتفكير بشأنهم هي ما توصَّل إليها السيِّد محمد أمين، وذلك بعد حدوث هذا الحادث الذي أجراه الله تعالى أمامه وبين يديه، ويبقى السؤال لديه كيف لهم بتأمين عيشٍ كريم وسدِّ حاجات أسرهم؟.

إن بقيت المسيرة والظروف التي هم فيها دون تغييرٍ وتدبير يضمن لهم الكفاف لا أكثر فلا بد إلا وأن يعودوا لما اعتادوا عليه من الإجرام مُرغَمين بدافع الجوع، بل إني لأظنُّ بأن عودتهم ستكون أبشع و حقدهم على المجتمع أكبر.. فما الحل؟.

أمضى ليلةً كاملةً وهو يتضرَّع إلى الله تعالى في تلك القضيَّة التي تقضُّ مضجعه، يبحث لهم عن الحل الكافي الشافي، فلا بدَّ من الحفاظ على توبتهم وحفظهم وغيرهم أيضاً من شرهم، وأخيراً وجد الحل وقال بنفسه الشريفة: وجدته.. وجدته.. إنه الحل بإذن الله تعالى.



الأسئلة والتدريبات

1- لماذا فتح الله تعالى على العلَّامة السيد محمد أمين شيخو بهذه العلوم الربانية؟.

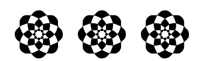
2- ما السبب في تقهقر الإمبراطورية العثمانية، ولماذا غدت بهذا الضعف والإنهيار؟.

3- لماذا هيمن الرعب والخوف على قلوب المجرمين الثلاثة أثناء تقاسمهم لكيس الطحين؟.

4- كيف عامل العلَّامة السيد محمد أمين شيخو أولئك المجرمين الثلاثة حين قصدوه تائبين؟.

5- ما هو أوَّل شيءٍ فعله العلَّامة بعد مغادرة المجرمين الثلاثة لمنزله؟.

6- ما الذي أرَّق العلَّامة طوال الليل وبماذا كان يفكِّر؟.



الدرس الخامس والعشرون

الحراس الأمناء
ملحمة عظيمة ضد الحرمان واللاإنسانية

الجزء الثالث

أعزائي الطلاب: بعد أن قضى السيد محمد أمين ليلة كاملة وهو يلتجئ إلى الله ويبحث ويفكِّر في حَلٍّ نهائي لمشكلة أولئك التائبين السبعين حتى خطر على باله الحلُّ والخطَّة الكاملة لتنفيذه، فطفح وجهه بالبِشْر والنور.. وقال بنفسه الشريفة: وجدته.. وجدته.. إنه الحل بإذن الله تعالى.
لقد تذكَّر: فمنذ أيام كان قد اطَّلع على تقرير أصدرته السَّراي باسم قيادة درك الشام، مفاده، طلبُ عددٍ كبيرٍ من الحرَّاس الليليين، وذلك بسبب الفوضى وكثرة الجرائم والسلب والنهب بمعظم أحياء الشام.
كانت تلك الوظيفة يحلم الناس بها حلماً وذلك لما يتقاضاه الدركي أو الحارس أو الموظف إذ ذاك من راتبٍ ضخم، وفيما بعد من راتبٍ تقاعدي كبير يضمن لأفراد الأسرة العيش الرغيد مهما كانوا كثيرين، عداك عن المكانة الاجتماعية المرموقة بين الناس، فلقد كان الدركيُّ يتمتع بهيبة وله احترامه بين الناس، إذ تخوِّله الدولة بصلاحِيَّات لا يملكها عامة المجتمع.

۞۞۞

قصد السيد محمد أمين القائد العام «قائد جيوش بلاد الشام»، طرق باب مكتبه، وبسماعه كلمة تفضل دخل المكتب، وأدى التحيَّة: «تحياتي أفندم».

نهض القائد العام مسروراً برؤيته لِـمَا يَكنُّه لـه مـن محبـةٍ وتقـدير، رد التحيـة: أهلاً بأصلان[1] تفضل واجلس.

ضابطنا بعـد أن جلس: لي طلـب عنـدك سيادة القائـد العـام، ولكـن قبـل أن أطلبه اسمح لي أن أُقدِّم لك هذا المثال.

القائد العام: تفضَّل وهاتِ ما عندك.

هنالك قال: لا سمح الله لا سمح الله... لا سمح الله.

تسمَّرت عيون القائد العام وهو ينظر لضابطنا واعتراه ذهولٌ بالغ، فلا بـد أن هناك أمرٌ خطير.

تـابع ضـابطنا بجدِّيـة وثبـات: لا سـمح الله.. لا سـمح الله غضـب «الـوالي» عليك وطردك من الوظيفة لسبب ما.. طبعاً عدت لحياتـك المدنيَّـة مُجُرَّداً مـن كل شيء اسمه جيش ووظيفـة، عـدت مـدنِيّاً هنـا في الشـام واسـتخدمت مـا ادخرته من نقود من راتبك بالسابق.. وهكذا يوماً وراء يوم حتى نفد كـل مـا لديك، وأنت رجل أمـنٍ وقائـد جـيشٍ ومـا بيـدك عمـل ولا صـنعة لتمارسـها فتكسب من ورائها عيشك وأسـرتك، طبعـاً وواحـدٌ مثلـك في هـذا المنصـب المرموق المعروف للناس أجمع في بلاد الشـام لا يمكـن لـه أن يعمـل حـدّاداً أو نجّاراً.. وجاءت، جاءت تلك الليلة العصيبة القاسـية وقـد ضـجَّ بهـا الأولاد من الحرمان وطار النوم من عيونهم يبكون ألم الجوع وقساوته، فلقد نفـد كـلُّ ما في البيت حتَّى لقمة الخبز ما وجدوها، وأنـت تقـف مـا بيـدك حيلـة تَشْـهد

(1) كلمة أصلان تعني باللغة التركية (الأسد)، وقد لقبه القادة الأتراك بها لعظمة ما شاهدوه منه مـن جـرأة وشجاعة وبسالة حيرت عقولهم جميعاً، وأصبح من يومها هذا اللقب هو اسمه بينهم.

هذا المشهد المر الأليم وتكويك قساوته، عندها ماذا تعمل.. بماذا تتصرَّف؟ هل تتركهم للموت؟.

اتسعت حدقتا القائد العام بعد أن توتَّرت أعصابه وارتجفت أوصاله وقد بدا بغاية الانفعال، ثم صرخ بأعلى صوته: أصلان، أتريدني أن أسرق؟!.

أجابه ضابطنا: حاشا لله، لا سمح الله، بل لي هدف من المثال. لا سمح الله.

أردف القائد العام بقوة: أَسْرُق، أَسْرُق وأَقْتُل.

هنالك انطلق ضابطنا بقوة قائلاً: سيادة القائد العام، سبعون أسرة يكابدون هذا الواقع المرَّ الأليم، سبعون أسرة تاب أربَابُها عن الإجرام والآن لقمة الخبز يفتقدونها، أطفالهم يبكون جوعاً وحرماناً.. برداً وآلاماً، فيضطرُّ آباؤهم للسرقة لإطعامهم فيجرمون ونحن نقبض عليهم فنضربهم ونسجنهم.

تراجعت حالة العصبيَّة والانفعال لدى القائد العام وبدا نوعٌ من الذهول على وجهه..

وقال: ولكن هل يكفي راتبي لسبعين أسرة؟ طبعاً لا يكفي يا أصلان، أنا ما عندي القدرة لتأمين عيش سبعين أسرة، فهؤلاء يحتاجون لدولةٍ حتى تكفيهم.

أردف ضابطنا قائلاً: سيادة القائد العام، أنا لا أطلب منك صدقةً لهم، إنما تعلم بأن هناك طلب رسمي قدَّمته السراي باسم لواء درك الشام يطلب فيه عدداً كبيراً من الحرَّاس الليليين «الدرك»، هؤلاء السبعون أظن أنهم يكفون ويلبون هذا الطلب.

ارتسم الذهول والاستغراب على وجه القائد العام ثانيةً..

وصرخ بقوة: أتريد أن تُسلِّم أرواح البشر لمجرمين؟!.

ردَّ ضابطنا بقوة وانفعال: سيادة القائد العام، هؤلاء مجرمون لنفس السبب الذي جعلك تسرق وتقتل، لم يسرقوا إلا بسبب القلة، والآن تابوا عن هذا الطريق الأعوج، أنت تعلم أنَّني ما إن تسلَّمت قيادة منطقَتَيِّ الصالحيَّة والأكراد حتى أحلت ليلي نهاراً مع أفراد قِسْمِي لم نكلّ ولم نملّ حتى طهَّرت المنطقة من الإجرام وكسرت ما فيها من مخاوفٍ وفتن، ما لم يتحقق ببقيَّة أرجاء الشام، وتعلم أن هذه الأماكن من أخطر أعتى المناطق وأشدّها اضطراباً وهلعاً، ولكن لا بد من تأمينٍ ثانٍ، فهؤلاء السبعون إن بقوا على ما هم فيه من قلةٍ وحرمان فلا بد وسيخرجون على النظام مهما كانت العقوبات أليمة، لأن ما يدفعهم لهذا السلوك أشد منها.. إنه فقدان القوت، نعم سيعودون لإجرامهم ثانيةً إن لم نُؤَمِّن لهم أقواتهم..

وتابع ضابطنا: ثم إن هؤلاء أفضل حرسٍ ليلي على الإطلاق، فهم كانوا من قبل مجرمين ويعرفون كل المداخل والمخارج وخطط أعمال السرقة والقتل، ولا تفوتهم فائتة إلا ويكونوا لها بالمرصاد وخاصةً بعد وصولهم لمرتبة «حارس» التي لم يكونوا يحلمون بها إطلاقاً ولا يحلمون بما يتقاضونه من راتب وما ادُّخِر لهم من معاشٍ تقاعدي يضمن الحياة الرغيدة لعائلاتهم ويُؤَمِّن مستقبل كل أفرادها، ولذا وعند وصولهم لهذه الوظيفة فلكي يحافظوا عليها وخوفاً من أن يخسروها، سيكونون أشجع وأفضل حرسٍ ليلي، لا يهابون الموت يتصدَّون لكلِّ كبيرةٍ وصغيرة.

خلال الحديث بدا القائد العام ملتفتاً أشدّ الالتفات لحديث ضابطنا الذي لم يسمع بمثله ولا بما يتضمَّنه من أفكار عبقريَّةٍ طيلة حياته إلا من هذا الإنسان الشريف، وخلال إصغائه زال عنه كلُّ توتُّرٍ وانفعال.

بينما استمر ضابطنا يشرح أفكاره الإنسانيّة، مُرْدِفاً: وبذلك يا سيادة القائد العام سيتحقق الآتي:

أولاً: نضمن توبتهم.. **ثانياً**: ننهض بأسرهم لمستوىً جَيّدٍ وسمعةٍ طيِّبة فنخلِّصهم من كلِّ شقاءٍ وحرمان. **ثالثاً**: نضمن الأمان لدمشق كاملةً وأهلها، فلا فوضى ولا سرقة ولا إجرام وذلك بعد أن نُوَلِّيهم هذه الوظيفة أو بالأحرى دعني أقول هذه المهمَّة..فما رأيك؟.

ارتبك القائد العام ثم قال: ولكن تعلم يا أصلان أني لا أملك من هذا الأمر شيئاً، فهذا الأمر من صلاحيات «الوالي» فهل تستطيع مواجهة الوالي وإقناعه؟.

أجابه ضابطنا: طيِّب، أنا سأكلِّم الوالي، ولمَ لا؟.

أردف القائد العام، وقد بانت آثار الدهشة والاستغراب على ملامحه: أصلان!. ماذا تقول!. أنت تُكلِّم الوالي بشأنهم!.

قال ضابطنا: ولِمَ لا؟.. سأشرح له الوضع بالتمام كما سبق وشرحته لك.

بتلك اللحظات نهض القائد العام بقوة ثم وضع قبَّعته العسكريَّة على رأسه ورتَّب هندامه ومشى من وراء طاولته خارج المكتب وهو يقول: إذا كنت أنت ستكلم الوالي فاتبعني، هيا بنا إلى الوالي.

نهض أصلان بسرعة وانطلق خلف القائد العام، ويبدو عليه أَنَّه مصممٌ على مقابلة الوالي وإتمام هذا العمل العبقريِّ الإنساني.

۞۞۞

ليس أمر مقابلة الوالي سهلاً.. فالوالي بمثابة رئيس جمهورية، إلا أنه كان والياً على بلاد الشام التي تضم سوريا بلوائها «لواء اسكندرون» وكيليكيا والموصل وجبل لبنان وفلسطين والأردن، تلك هي الشخصيَّة التي سيقابلها، وشخصيَّة بمثل هذا المنصب لها من الهيبة والقوة ما يجعل أمر مقابلتها جدٌّ خطير.

مكان مقر الوالي هو نفسه مكان مقر قائد الجيوش « القائد العام» أي بالسراي.

دخل القائد العام مكتب الوالي ليُعْلِمَه بأن الضابط العربيّ الملقب بأصلان يودُّ مقابلته لأمر ضروري، لحظات ومن ثم خرج ليخبر ضابطنا بإمكانيَّة الدخول، فلقد أخذ موافقة الدُّخول.

عاد القائد العام ودخل مكتب الوالي ومن خلفه دخل أصلان بخطوات ثابتة قويَّة، حتى وصل قبالة الوالي، يبدو بمنظره كاللَّيثِ الـهُمَـام تتألَّق الشجاعة في لمحاته.. أدَّى التحيَّة العسكريَّة بثبات.

تكلم الوالي قائلاً: أهلاً.. أهلاً بك.. أهلاً بالأسد مسموعاتك وأعمالك الباهرة عالية جداً عندنا. تفضل اجلس.. ما الأمر؟.

جلس ضابطنا ثم أردف قائلاً: سيادة الوالي لي عندكم طلب وأحبُّ أن أقدِّم لكم أولاً بمثال.

الوالي: تفضل.

ضابطنا: لا سمح الله.. لا سمح الله.. لا سمح الله..

وتابع السيد محمد أمين حديثه بنفس العبارات التي تكلَّمها مع القائد العام، متفاعلاً مع الحديث مؤثِّراً بواقعه، دون أدنى ارتباك أوتردُّد.. قال: لا سمح الله لا سمح الله لو غضب عليك الصدر الأعظم، تجمَّعت أحاسيس الوالي ومشاعره بالكليَّة لدى ذِكْره غضب الصدر الأعظم وطرده إياه، ولمعت عيناه بحدة وقوة كالصَّقر الجارح محدِّقاً بعيون أصلان، بينما تابع حديثه بثباتٍ ورسوخ:

فأصبحت بذلك مدنِيّاً هنا في الشام بلا راتب ولا مصدر رزق، واستهلكت ما معك من نقود وما كنت قد ادَّخرته في السابق.. ويوماً إثر يوم حتى نفدت كامل ثروتك، وأنت طبعاً رجل حكم وسياسة فأنَّى لك أن تمارس عملاً آخر تكسب به عيشك وعيش أسرتك، ومثلكم يا سيادة الوالي من المستحيل عليه العمل كحدّادٍ أو نجّار أو غيرها من المهن..

وجاء اليوم، ذلك اليوم العصيب الذي ضجَّ فيه الأولاد والصغار بواقعهم وبَكوا ألم جوعهم وقساوة عيشهم، فلقد نفد كل ما في البيت حتى لقمة الخبز باتوا لا يجدونها... وأتى ذلك الليل القاسي وما استطاعوا النوم.. يبكون جوعاً، وأنت تشهد بأمِّ عينك ما ألمَّ بهم.. وتكتوي بمرارة هذا الواقع الأليم، فماذا تعمل؟!. هل تتركهم للموت جوعاً؟.

عندها توتَّرت أعصابه وارتجفت بقوَّةٍ كل أوصاله، فصرخ بصوتٍ ارتجَّ له المكتب: أصلان!. أتريدني أن أَسْرِق؟!.

أجاب ضابطنا بثبات وقوة: لا سمح الله لا سمح الله، فَرَضاً.

أردف الوالي بأعلى صوته: بَلَى أَسْرِق.. أَسْرِق وأَقْتُل.

هنالك تابع أصلان بمنطقٍ وعبقريةٍ صاعقة تُجسِّد حِسّه الإنساني العميق: جلالة الوالي، سبعون أسرة يكابدون هذا الواقع المر الأليم، سبعون أسرة تاب أربَابُهم عن الإجرام والآن لقمة الخبز يفتقدونها، أطفالهم تبكي جوعاً وحرماناً.. برداً وآلاماً.

قال الوالي وقد بدا نوعٌ من الاستغراب على وجهه: ولكن.. أصلان!. هل يكفي راتبي لسبعين أسرة؟! هل يؤمِّن عيش سبعين أسرة؟! طبعاً لا يكفي يا أصلان، أنا ما عندي القدرة لتأمين عيش سبعين أسرة. الغرابة أن جوابه هذا كان كجواب القائد العام ذاته.

أردف أصلان قائلاً: جلالة الوالي، أنا لا أطلب منكم ذلك، إنما هناك طلب رسميّ قدَّمته السراي باسم لواء درك الشام، يطلب فيه عدداً كبيراً من الحراس الليليين، هؤلاء السبعون أظن أنهم يكفون ويلبُّون هذا الطلب.

اتسعت حدقتا الوالي وأطلقها كلمة قوية: أصلان!. أتريد أن تُسلِّم أرواح الناس لمجرمين؟!.

أجاب ضابطنا: جلالة الوالي: هؤلاء ليسوا مجرمين بالفطرة والطبع.. ولكن بالجوع والحرمان، لم يسرقوا إلا بسبب القلَّة والحرمان، هؤلاء السبعون إن بقوا على ما هم فيه من قلةٍ وحرمان فلا بدَّ وأنهم سيخرجون على النظام مهما كانت العقوبات أليمة لأن ما يدفعهم لهذا السلوك هو الجوع لا الإجرام، نعم سيعودون لإجرامهم ثانيةً مجبرين إن لم نؤمن لهم أقواتهم.. ثم إن هؤلاء

أفضل حرسٍ ليلي على الإطلاق..فلا فوضى ولا سرقة ولا إجرام بعد تعيينهم وتسليمهم هذه المهمة يا سيادة الوالي.

بعد سماع الوالي لهذه الحجج الدامغة والمنطق الرفيع، هزَّ برأسه وقد بدا عليه الإعجاب والتقدير بعبقرية أصلان الذي لطالما سمع عنه وعن أعماله وأفكاره ومخططاته.. مجرمون يصبحون حراساً، أمر لم يشهده وما سمع به.. وهم الأنسب وما سواهم لا يحقِّق الكفاءة التي يحقِّقها أولئك في هذا المنصب!. أفكار مذهلة وعبقريَّة عظيمة!.

ولكن رغم كل ما سمعه الوالي ورغم الإقرار والخضوع لتلك الحجج وذلك المنطق العالي، بقي غير مطمئن كل الطمأنينة فالمسؤولية مسؤوليته، فهو يخاف من أن لا يتطابق الواقع العملي مع البرهان النظري المقنع، ولذلك من واجبه أن لا يستسلم للأمر مباشرة قبل إجراءاته.

قال: ومن يكفل هؤلاء في عدم الشذوذ وفي ضمانتهم على أرواح الناس؟.

ونظر الوالي بالقائد العام يسأله هل يحمل مسؤوليَّتهم؟. فأجاب القائد العام بأنَّه يحمل المسؤولية، ذلك أن ما رآه من ضابطنا من أعمال وإنجازات ونجاحات باهرة طيلة حياته جعلته موضع ثقة كليّة لديه.

عندما لمس الوالي الإيجاب من قبل القائد العام قال: ولك ما تريد يا أصلان. أصدرنا أمرنا بتعيينهم.

هنالك أخرج ضابطنا من جيبه معروضاً فتحه وسلمه للباشا (كان قد هيَّأه مسبقاً) إنه يتضمن طلب تعيين سبعين اسماً مدوَّناً فيه مهمات الحراسة الليلية، تناول الوالي المعروض وقرأه ثم وقَّعه وختمه بخاتم الولاية، فأصبح

معروضـاً نظاميـاً قـابلاً للتنفيـذ، وأردف قـائلاً: خـذه أصـلان وعليـك أن تستكمل بقية إجراءاته.

تناول أصلان المعروض وشكر الـوالي، ثـم استأذن بـالخروج وحيَّاه وانطلـق يتبعه القائد العام، الذي كان مبهوراً بتلك الجرأة والقـوة والتـدبير العبقـريّ، وهذا النتاج الرائع.

وما أن وصلا درج السـراي، حتى توقف ضابطنا فجأة، سأله القائد العام: ما بالك أصلان!.

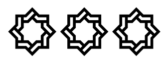
أجابه: لقد نسيت شيئاً مهماً جداً ويجب أن أعود للباشا مباشـرة.

انفتـل القائـد العـام وجـرى مسـرعاً عائـداً لمكتـب الـوالي، وطلـب لـه الأذن بالمثول بحضـرة الوالي، تبسَّم الوالي (ولعـل لسـان حالـه يقـول: منـذ لحظـات جعلـت مِنَّـا لصوصـاً مجـرمين والآن مـاذا سـتجعل منـا!.) وقـال: مـا الخـبر أصلان؟.

أجاب ضابطنا: جلالة الـوالي: هـؤلاء مجرمـون بـالجوع والحرمـان لا بـالفطرة والطبع ووقعوا بإجرامات ومطلوبون للقضاء بأحكام قضائِيّة سابقة، فلو تمَّ تعيينهم فسوف يتم إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم بأحكـامٍ بسـبب جـوعهم وحرمانهم واضطرارهم لتحصيل لقمة العيش. لذا هـم بحاجـة لإضـافة بنـد عفوٍ شامل لكلِّ ما عليهم من أحكام على مرسوم تعيينهم.

هنالك أضاف نَصَّ عفوٍ شامل يشمل ما عليهم من أحكام، ثم ختمـه بخـاتم الولاية.

شكره ضابطنا ثانية على هذا التعاون ثم استأذن بالخروج، فحيَّاه وانطلق منتصراً.



أرسل يطلب السبعين في ساعة محدَّدة بعد عصر اليوم للاجتماع بساحة سوق الجمعة عند باب مسجد الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله.. وفي الوقت المحدَّد اجتمعوا.

حضر السيد محمد أمين، وفصَّل لهم الموضوع بتمامه وقرأ على مسامعهم مرسوم تعيينهم، بعد أن أخبرهم أَنَّ أمر العفو عن جرائمهم السابقة قد صدَّقه الوالي بالذات، وهو الآن قيد التنفيذ.

لدى سماعهم هذه الأنباء الصاعقة التي ستنقذهم من ذُلِّ الحاجة والهوان إلى الغنى والسعادة والحياة الرغيدة التي ما حلموا بها حلماً طيلة حياتهم، لم تعد تسعهم الفرحة وعصف بهم الفرح، وغمرهم السرور فانطلقت أصواتهم وطار ما على رؤوسهم من قُبَّعات وعصائب..أخذوا يرقصون بنشوةٍ غامرة.. فهل يُصدَّق هذا.. أَوَ يعقل!. بلحظة من اللحظات سيخلصون من كل منغصات الحياة، فها هي أحكامهم القضائية شملها العفو، وها هم سيستلمون وظائف لا يحلم بها أحدٌ من الناس، سيصبحون حراساً أمناء، سيلفّهم وشاح الهيبة والوقار بين الناس، وسيهجرهم الجوع والحرمان بلا رجعة ليعيش أطفالهم بأمانٍ وسلامٍ، وسيلبسون اللِّباس المحترم بين الناس، ويصبح لهم الحقُّ بممارسة كافة حقوقهم في المجتمع.

وبينما هم في هذا الصخب والمرح، أصوات ضحكاتهم تملأ المكان، انطلق صوت ضابطنا ثانية كالرعد القاصف: سماع.. سماع.

صمت الجميع وسكنوا بأماكنهم جامدين كأن على رؤوسهم الطير، فانطلق ثانية بصوته:

اسمعوني جَيِّداً، أنتم ستستلمون أرواح الناس تلك التي ستكون أمانة بين أيديكم، وهذا لن يكون أبداً إن لم تُصَلُّوا جميعاً، إن لم تداوموا على الصلاة فلا تعيين لكم عندي ولا عفو، هل فهمتم؟.

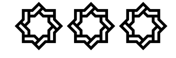
سابقاً كانت أعمالكم المنكرة وجرائمكم تمنعكم من الصلاة والوقوف بين يدي الله تعالى، أما الآن فلقد تبتم عن تلك الأعمال، فإن لم تُصَلُّوا فكيف سأسلِّمكم أرواح الناس؟ كيف سيصبح البشر أمانة بين أيديكم لتحافظوا على سلامتهم وتحموهم من كل الشرور؟!.

هنالك انطلقت أصواتهم: عهداً علينا أن نُصَلِّي.. نعم سنصلي يا سيدي.

قال: إذن موعدنا اليوم في جامع الشيخ محي الدين هذا عند صلاة العشاء؟.

أريدكم أن تكونوا اليوم جميعاً في المسجد على صلاة العشاء، الآن ومن فور ذهابكم لبيوتكم تغتسلون وتلبسون ثياباً نظيفة على حسب مقدرتكم، ثم وعلى موعدنا تحضرون المسجد، مفهوم؟.

أجابوا جميعاً: حاضر سيدي.. مفهوم.



مسجد الشيخ محيي الدين مسجد معروف في كلِّ أنحاء الشام، بتلك الأثناء كان الشيخ أمين خربوطلي رحمه الله خطيب وإمام هذا المسجد، يلقي يوميّاً

درساً على مريديه ما بين صلاة المغرب والعشاء، يومها وبينما هم في الدرس بعد صلاة المغرب ملتفين حول الشيخ «أمين خربوطلي»، وطبعاً يجلس الشيخ عند المنبر ووجهه باتجاه الشمال مواجهاً أبواب المسجد الأربعة، أما مريدوه فقد التفوا حوله باتجاه الجنوب ينظرون إليه بإصغاء، فبينما كان يلقي درسه لاحظ أن الأبواب الأربعة قد ازدحمت برجالٍ ذوي سحنات عريقة بالإجرام.. تقاطر ما بين خمسة إلى سبعة رجال من كل باب، ثم تلاهم سبعة آخرون.. وهلمَّ جرا.

هاله منظرهم وهزَّه مرآهم الإجرامي وخصوصاً لمّا عرف بعضهم تمام المعرفة، لقد نال المشهد الرهيب منه كلَّ منال حتى شلَّه عن الحركة والنطق فبقي شاخصاً بعينيه إلى الأبواب جامداً بلا حراك، يحاول نطق الكلمة التي كان يتكلَّمها قبل هذا المشهد المريع فلا يستطيع.

سيطر الخوف الشديد عليه وشلَّ قواه، خاف على مصير من حوله من مريدين، إذ أيقن بقتلهم الحتمي على يد أولئك الأشرار.. فهؤلاء حتماً سيبطشون بجماعته وسيسرقون كل ما في المسجد من السجاد الفاخر وغيره من أثاث المسجد. «هذا ما دار بمخيِّلته في اللحظة الأولى من رؤيته لهم» لقد بات بوضعٍ غريبٍ لا يُحْسَد عليه.. ارتبط لسانه وتسمَّرت عيناه على الأبواب وبدا عليه نوعٌ من الهلع الشديد حتى تجمَّد فمه المفتوح إلا من اهتزازات وأحرف مبعثرة.

رآه الحاضرون بهذا المنظر الغريب، وهم لا يرون ماذا يحدث خلفهم، فلقد أذهلهم أمر شيخهم فما باله..لعله رأى شيئاً ما خلفهم، تُرى ما الذي

يحدث؟ وهكذا كل من التفت منهم للخلف ليستطلع الأمر، فإنما هي لفتةٌ واحدة إثرها تَجمّدت حركتُه بوضعيِّة الالتفات ورقبته تظلُّ ملتوية مشلولة، لقد أصابهم ما أصاب شيخهم، فكل من التفت لا يصحو لما حوله أبداً إذ يوقن بالموت قتلاً.

لقد خيَّم جوابٌ واحدٌ لأسئلةٍ عديدة دارت بمخيلة كل من رأى ما يحدث على أبواب المسجد الداخلية، ما الذي يُدْخِلُ هؤلاء المسجد؟ إذا دخل أحدهم سوقاً أو شارعاً فإنما يخلو الناس منه هرباً وفراراً، فكيف الآن بالعشرات منهم مقتحمين؟! ليس هناك هدف يدخلون المسجد من أجله إلا الإجرام والسلب والنهب.

كان الشيخ لا يزال بوضعيةٍ بائسة لا يُحسَد عليها عندما دخل من خلف هذه الحشود الغفيرة من الرجال المرعبين بأشكالهم وماضيهم، ضابطنا المحبوب السيِّد محمد أمين شيخو، عندها ارتدت للشيخ الخربوطلي الروح، وشعر بالأمان والاطمئنان، فقام مباشرة للسيد محمد أمين وسأله من فوره قائلاً:

بني: ما قصة هؤلاء المعتدين المجرمين.. ما الذي يُدخل هؤلاء المرعبين مسجدنا؟!.

أجابه السيد محمد أمين: إنهم تائبون.

قال الشيخ وقد لفّته الغرابة والدهشة: بني ماذا تقول.. هؤلاء تائبون! لو تأتَّى لإبليس أن يتوب فإن هؤلاء يتوبون.. والله لو يأتي سيدنا محمد ﷺ فلن يتوبوا معه!.

قال السيد محمد أمين: إنهم تائبون وحضروا ليصلُّوا صلاة العشاء خلفك.

ولما أقام الصلاة اصطفوا من ورائه وبعضهم ينظرون إليه كيف سيصلِّي ليصلوا مثله، لا يعرفون حتى حركات الصلاة، يلتفتون يمنةً ويسرة، تارةً يحدِّقون بالمصلِّين الآخرين باستغراب، وتارةً ينظر بعضُهم بدهشةٍ إلى أقدام صفِّ المصلين وكيف صارت على استقامةٍ واحدة..

إلى أن بدأ الإمام بالصلاة بكلمة الله أكبر، بدأوا مثله ولربما كانت هذه أوَّل مرة يدخل بعضهم المسجد منذ عشرات السنين، فلربما دخلوه حينما كانوا أولاداً صغاراً.

وهكذا فلقد كانت هذه الصلاة عملاً خالداً من أعمال السيد محمد أمين، لأنَّها كانت مفتاح خير كبير لسبعين إنسانٍ مع أسرهم، أخذ بيدهم لهجر حياة الآثام والمعاصي وبداية حياةٍ شريفة طاهرة.

عصاةٌ مجرمون، لصوصٌ جبابرةٌ معتدون.. والآن تابوا وهاهم يصلُّون، كان كلُّ واحدٍ منهم لا سلطان لأحد عليه مهما بلغ، وليس له أن يؤثِّر على قلبه ويلويه عن جبروته مهما حاول، أما الآن فها هم تائبون ولربِّهم حامدون على يدي الإنسان الإنسانيّ الكبير، وهاهم يصلُّون جماعة!.

قُضيت الصلاة فخرج ضابطنا لباحة المسجد تبعه سبعون رجلاً وحيثما وقف في الباحة التي يكسوها الثلج ببياضه وقفوا والتفُّوا حوله، فأخبرهم عن موعد ومكان اجتماعه بهم يوم الغد في الصَّباح وذلك ليلحقهم بدورة الحرَّاس الليليين ليتعلموا أصول الحراسة وقوانينها وليتلقُّوا التعليمات الأساسية والتوجيهات الرئيسيَّة وليخضعوا من بعدها للتدريبات الأمنيّة وذلك بعد استلامهم بَذّاتِهم العسكرية وسلاحهم.

ومن ثم أوصاهم بضرورة تواجدهم في كلِّ صلاة بالمسجد.

أخذ ضابطنا الإنسانيّ الرحيم يحثُّهم على الصلاة، حتى أن بعضهم ذاقوا لذة الصلاة بعد أن تفتَّحت قلوبهم لها، أي: للحياة والسعادة الحقيقيَّة من الله تعالى، فأصبحوا من ذاتهم مداومين على الصلاة ولا يضيّعونها، ومنذ ذلك العهد التزموا الطاعات وهجروا المنكرات.

وما أن أنهوا دورتهم التعليمية حتى استلموا سلاحاً ووُزِّعوا على مناطق دمشق كاملةً في كل حيٍّ وشارع، وقد بُنيت لهم غرفٌ صغيرة للحراسة الليلية، وأصبحوا منذ ذلك الوقت حرَّاساً شجعان أمناء، فاختفت الفوضى والسرقات وانمحى الإجرام، وحلَّ الأمن والأمان، ولو أنَّ امرأة تخرج في منتصف الليل تحمل مكتلاً من الذهب لما اعترضها معترض، تسير بكلِّ سلامٍ وأمان.

۞۞۞

وهكذا فلقد ملأ هذا الحكيم الرحيم دمشق أمناً وعدلاً بعد أن كانت قد مُلئت ظلماً وجوراً.

أما واقع الأُسر السبعين، فياله من تبدِّلٍ جذريٍّ عظيم، كم كانوا تعساء معذَّبين بؤساء، يقاسون البرد والجوع، اعتادوا أكل الحرام ولبس الحرام، وهؤلاء الأولاد والأطفال كانوا عند آباء مجرمين سارقين..كانوا سيؤولون لنفس المصير الذي عاشه آباؤهم قبل هذه التوبة النصوح العظيمة.

أما الآن فلقد تغيّر الحاضر وتغيَّر المستقبل.. الآن بعد أن أصبح آباؤهم حرَّاساً أمناء يتقاضون راتباً ضخماً يغمرهم وأسرهم بما يكفيهم ليعيشوا

حياة رغيدة مطمئنة، عدا عن المرتبة الاجتماعية المحترمة التي سيحيون بها من الآن فصاعداً، حيث كان للموظف بذاك العصر قيمة كبيرة.

عندها عاشت دمشق فترةً ذهبيَّة بأمان واطمئنان فلا جرائم ولا أخطار لعقود عدة.

هذه هي الملحمة العظيمة ضِدَّ القهر والشقاء وضدَّ اللاإنسانية، قد سطَّرها بإنسانيَّة كبرى.

إنها السيرة الخالدة وتلك هي الأعمال الإنسانيَّة الفريدة، ألا لمثل ذلك فليتنافس المتنافسون.





الأسئلة:

1- لماذا كان القادة الأتراك يلقَّبون العلَّامة محمد أمين بأصلان، أي: الأسد؟.
2- ما الحكمة التي أرادها العلَّامة محمد أمين أثناء حديثه ممهِّداً في تلك المقدمة لكل من القائد العام و الوالي؟.
3- عَدِّد بعض الميِّزات التي تجعل من السبعين تائباً مؤهَّلين لمنصب حراس ليليين؟.
4- لماذا تكفل القائد العام أمام الوالي خطة العلَّامة السيد محمد أمين شيخو؟.
5- بعد مقابلة الوالي وأخذه الموافقة منه على تعيين السبعين تائباً حرَّاساً ليليين، لماذا أراد العلَّامة الدخول ومقابلته مرة أخرى؟.
6- ما هو الشيء المهم الذي طالب به العلّامة أولئك السبعين رجلاً أن يفعلوه حين قرأ عليهم مرسوم التعيين ومرسوم العفو العام؟.
7- لماذا بدا الارتياح على وجه الشيخ الخربوطلي وهو الذي امتلأ قلبه هلعاً ورعباً من وجود أولئك السبعين رجلاً في مسجده؟.
8- اذكر استنتاجك من الدروس الثلاثة الماضية.



الدرس السادس والعشرون

حكم قطع يد السارق

أعزائي الطلاب: لا بد من وِقْفةٍ مع درسٍ مُهمٍ مرتبطٍ بدروسنا السابقة وهو حكم قطع يد السارق.

فهل تقطع يد السارق بكل الظروف والأحوال؟.

أم لحكم قطع اليد شروط يجب الوقوف عندها والنظر فيها؟.

فمتى تُقطَعُ يد السارق؟.

قال تعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]

حكمٌ ظاهره فيه العذاب والشدَّة، باطنه كلُّه الخير والرحمة، بحقِّ السارق والسارقة وبحق المجتمع ككل.

أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يقطع أيدي السارقين أيام القحط والمجاعة التي عمَّت البلاد والعباد بزمنه، لأنَّه تحقَّق أنَّهم سرقوا ليأكلوا وتأكل أبناؤهم، بل خصَّص للذين سرقوا ما يكفيهم من بيت مال المسلمين، أعطاهم ما يضمن لهم عيش الكفاف، أما في الأحوال العادية ولـمَّا أزال الله الطاعون والقحط عن البلاد وكشفت الغمة، فهو على علمٍ

(1) سورة المائدة الآية: (38).

تام أن بيت مال المسلمين يكفي ويؤمِّن معيشة الكفاف لكلِّ الناس من مسلمين وذِمِّيين، وفيما لو قبضوا على سارقٍ فهو يقطع يده مطبِّقاً حكم الله عليه.

فلماذا هنا يقطع يد السارق؟.

بما أن عيش الكفاف مُؤمَّن للجميع، وتوجد كفالةٌ إجتماعية ترعى الكلَّ بدون تمييز أو مُحاباة، فسرقة السارق هنا ليست لحاجة أو عوز وإنما لِعِلَّةٍ خبيثةٍ في نفسه، وحُكم الله ينطبق عليه.

إذن حكم قطع اليد غير مُطْلَق بل يجب التحقُّق من السرقة قبل القطع، فإن كانت لحاجةٍ ماسَّة فلا تقطع اليد بل يتمُّ سدّ هذه الحاجة والكفاف، كما حدث لمن سرقوا كيس الطحين فخافوا والتجؤوا لضابط الأمن خوفاً من بطشه وأملاً برحمته. ثم إن سرق من بعدها فتقطع يده، لأن سرقته إنَّما هي ناشئة عن علَّة خبيثة في نفسه يلزمها الاجتثاث.

وهذا القطع خيرٌ كبيرٌ بحقِّ السارق والسارقة والمجتمع، فهو عندما تُقطع يده ويفقدها تعاف نفسه السرقة، لأنه يعلم تماماً أنه إذا سرق ثانية فسيفقد الثانية، أما بالنسبة لتنفيذ الحكم فيتمُّ على مرأى فئةٍ من المؤمنين وفي مكانٍ عام كالسُّوق مثلاً، وتبقى اليد المقطوعة معلقة عدة أيامٍ في الساحة الرئيسية للبلد، والناس عامة يرونها وهي مُعلَّقة فيعتبرون بها، ويسأل الأطفال الذين فيهم عِلَّة حُبِّ السَّرقة آباءهم عن قصَّة اليد هذه، فيُقَالُ لهم هذه يد السارق قطعت، إياكم من السرقة.

هذه الواقعة، ومنظر اليد المقطوعة والدماء تقطر منها تنقشُ في نفس الصغير انطباعاً وخوفاً لا يُنسى أبداً فتعاف نفسه السرقة وتكرهها منذ حداثة سِنِّه، يكبر والخوف من حَدِّ السرقة منقوشٌ في نفسه، لقد انطبع واستقرَّ بها جرَّاء ما رأت منذ الصغر، فلقد صار القصاص شفاءً من تلك العلة المنطوية في نفس السارق.

وبذلك يخلصون من الوقوع في شهوة خبيثة، إذ كلما حاك حُبُّ السرقة بنفس أحدهم تذكَّر اليدَ المقطوعة ونظر بخشيةٍ إلى يده الغالية، فيغدو المجتمع آمناً من السرقات ومن كل ما يعكِّر صفوه، كل ذلك بصحيفة صاحب اليد المقطوعة، يُسجِّل الله كلَّ ذلك الاعتبار والكفِّ عن السرقات وكلَّ ما أنتجه هذا القطع من نتائجٍ عاليةٍ في الفرد والمجتمع، كل ذلك يُسجِّله تعالى عملاً صالحاً له.

وهو ذاته لم يعد يتجرَّأ على السرقة ثانيةً، فيصبح ذا وجهٍ أبيض تجاه خالقه يقبل عليه في صلاته بعد أن كفّ عن المنكر، فليس هناك من عملٍ منحطٍّ يقف حجاباً بينه وبين خالقه، وبذلك يتَّجه إلى الله توجُّهاً صادقاً فيسري النور الإلهي لنفسه فيطهرها من كلِّ ما علق بها من أدران، ومثواه الجنة من بعد الموت بَدَلَ النيران التي كانت ستحيق به فيما لو لم تُقطع يده وعاش مجرماً سارقاً.

قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

في القصاص حياة للناس، يعيشون بسعادة إن طبقوا تعاليم الله في القصاص، فإنَّ قُتِل القاتلُ أو قطعت يدُ السارق كَفَّ الناس جميعاً عن اقتراف القتل أو السرقة، فالقاتل أو السارق يرى أن في ذلك علاجاً لنفسه لعلَّه يقبل فيطهر.. إذاً بتنفيذ حكم الله تُنْتَزَع هذه العلَّة من كافة أفراد المجتمع لرؤيتهم اليد المقطوعة، ويعيش المجتمع آمناً من هذه المخالفات جيلاً بعد جيل، أما بالنسبة للسارق فلقد حَيِيَ قلبُه وتاب عن فعله وانفتحت له أبواب الجنان.

فلو لم تترك البشريَّة اليوم قانون الله تعالى وتتبع قانوناً من عندها لما كانت تلك المصائب ولا الفقر والحرمان والسرقات والسطو وإزهاق الأنفس التي نراها اليوم تنشأ من جرَّاء سيرهم بقوانينهم.

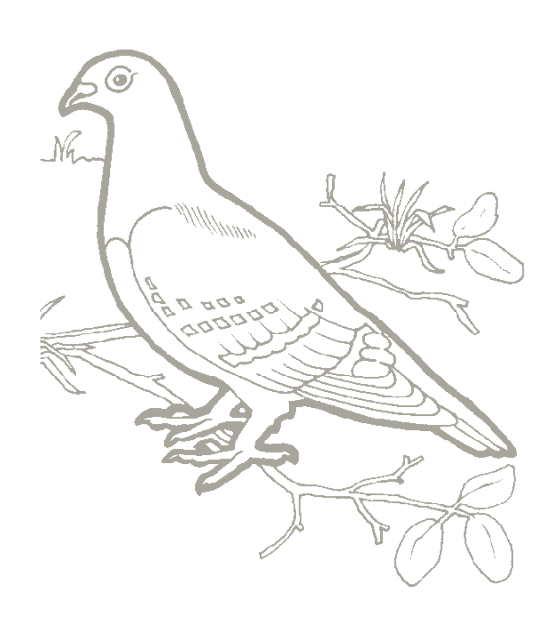
ظَنُّوا أن قانونهم أرحم ورأوا أنَّ السجن خيرٌ من قطع يد السارق، وإذ بقانونهم يجلب لهم الشقاء وازدياد السرقة مع ما يرافقها من سفك دماء وانتهاك أعراض، فكم أُزهِقَت أنفس ولا تزال تُزْهَق من أجل السرقة، إذ أنَّ السارق يعلم أن مصيره السجن إن أُلقي القبض عليه فلا يبالي، وهناك بالسجن سيلتقي بأساطين علم السرقة والإجرام، وبعد انقضاء مدته سيخرج وهو مشحون بحبِّ السرقة وتدمير المجتمع الذي رحمه «بزعمه» ولم يقطع يده، وإذ بالجميع يشكو ويَئِنُّ ويتألم من تبعات قانونهم الوضعي.

(1) سورة البقرة الآية: (179).

قانون قطع اليد للسارق هو قانونٌ ونظام إلَهي كلّه خير بخير على الفرد وعلى المجتمع ومرتبط تطبيقه بنظام كفالةٍ اجتماعي صارمٍ بالدِّقة، تماماً كما كان الأمر بعصر الصحابة الكرام وكذلك عصر العثمانيين الأوائل، لكن حين بدل العثمانيون فيما بعد قانون الله تعالى بقوانينهم الوضعيَّة وظنوها أرحم من قانون الله الرحمن الرحيم، الحكيم الخبير، هووا وسقطوا من عليائهم وذَهَبَ عِزُّهم وشأنهم، وغدا مجتمعهم تعمّ فيه الرذيلة ويشيع فيه الإجرام، وأصبح الإنسان عدواً لأخيه الإنسان.

زمان كأهله وأهله كما ترى





الأسئلة:

1- لماذا لم يقطع سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيدي السارقين في أيام المجاعة، وكيف عاملهم؟.

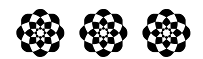
2- لماذا تُقطَع يدُ السارق في حالة الكفالة الاجتماعية وتأمين العيش الكريم للجميع؟.

3- ما الذي ينطبع في نفوس الناس عامةً والصغار خاصة عندما يرون يد سارق مقطوعة وتقطر منها الدماء؟.

4- ما الحال الذي يصبح فيه السارق بعد قطع يده؟.

5- اشرح قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾.

6- ما الذي أوصل البشريَّة اليوم إلى ما هي فيه من بعدٍ ذريع عن الأخلاق وانحدار بالقيم والمبادئ وتعدٍّ وسرقةٍ وسفك دماء وإجرامٍ بلغ الذروة من الصنوف والأشكال؟.



الفهرس

قسم
الحفظ والتأويل

قسم
القصص والعبر